عروبة لبنان

بيروت

تطورها في القديم والحديث

محمد جميل بيهم

"دراسة تحليلية تتناول العروبة بلبنان قبل الاسلام"
"وبعده وما تخلل ذلك من أحداث سياسية اضفت"
"عليه لوناً خاصاً في مجموعة الدول العربية .. هذه"
"الدراسة تتناول ايضاً مساهمة كل من الاميرين فخر الدين"
"المعني وبشير الشهابي في تكوين لبناننا المعاصر"
"على ما كان بينهما من الاختلاف في المبادئ والمطامع"
"وقد ساعد المجمع العلمي العراقي على نشر هذا الكتاب".

عروبة لبنان

تطورها في القديم والحديث

محمد جميل بيهم

"دراسة تحليلية تتناول العروبة بلبنان قبل الإسلام"
"وبعده وما تخلل ذلك من أحداث سياسية أضفت"
"عليه لوناً خاصاً في مجموعة الدول العربية .. وهذه"
"الدراسة تتناول أيضاً مساهمة كل من الأمير فخر الدين"
"المعني وبشير الشهابي في تكوين لبناننا المعاصر"
"على ما كان بينهما من الاختلاف في المبادئ والمطامع"
"وقد ساعد المجمع العلمي العراقي على نشر هذا الكتاب".

شباط ١٩٦٩

دار الريحاني للطباعة والنشر
بيروت

المقدّمة

ليس القصد الأول من تأليف هـذا الكتاب محاولة أثبات عروبـة لبنان ، لأن هذه القضية لا تحتاج لاثبات ، وأنما الغاية منه كشف النقاب عن نواح أخرى في تاريخ وطننا العزيز لم يتعرض لهـا المؤرخون ، لا سيما في صدد تدوين سيرتي الاميرين فخر الديـن المعني الثاني وبشير شهاب الثاني على وجه صحيح غير الـذي أراده الأستعمار ، وفي صدد الأسباب الخارجية التي أدت الى أضفاء لون خاص على لبنان وفقا لمخطط الاستعمار الرامي الى استعادة البلد المقدس .

وقد حملني على ذلك أن التآليف التي صدرت في العهـد الأجنبي لغايات سياسية معلومة ، ووضعت بين أيـدي طلبة معاهدنا العلمية قـد أستطاعت أن تنشىء جيلا مـن الناس يحاول بعضهم أخراج لبنان مـن المجموعة العربية بشتى الطرق . فاذا كتب أحدهم أو الف فهو لا يخرج عن أطار هذا المبدأ بينما أن الدولة في لبنـان مشت مخلصة في مقدمة الصف العربي ، وكانت لها ، في الأيام السوداء التي نجمت عـن العدوان في ٥ حزيران ١٩٦٧ ، مواقف بيضاء جديرة بالتقدير .

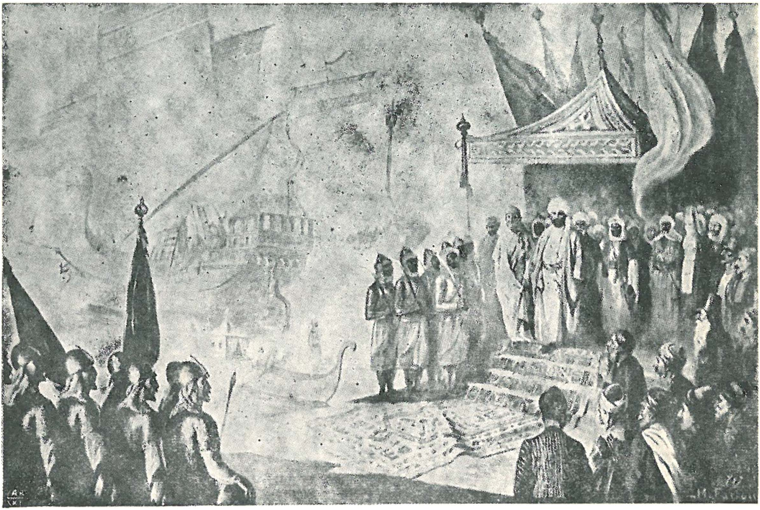
وأني لآمل أن يكون هذا الكتاب مساعدا على تصحيح ما أفسده الاجنبي عمدا في تاريخ بلدنا ، ومساعدا بالتالي على تمتين أواصر الوحدة الوطنية التي تدعو اليهـا دولتنا ونتوخاها علـى اعتبار أن أية وحـدة

للجماعات لا تقوم على أساس وحدة الفكر والمبدأ تعد مصطنعة وعرضة للزوال • كما أني أؤمل أن تأتي دراستي هذه جديدة ووافية لأني ، وقد ألفت أربعة كتب في تاريخ السلطنة العثمانية ، أثنان منها في فلسفة التاريخ العثماني وجدت الوسائل متوافرة لدي لتعليل الحوادث وربطها بأسبابها • وهذه ناحية مهمة جدا في تدوين تاريخ بلد كلبنان قضى أربعة قرون كاملة مرتبطا بدولة أشغلت العالم الأوروبي طوال تلك القرون حتى كانت سياسته تدور على محورها سواء أكان ذلك في غضون عظمتها ومدّها ، أو حين ضعفها وجزرها •

محمد جميل بيهم

الفصل الاول

عروبة لبنان في التاريخ قبل الإسلام وبعده



معاوية بن ابي سفيان والى جانبه ستي ام الحرام في موكب وداع العمارة المتوجهة الى فتح قبرص
بريشة الاستاذ مصطفى فروخ

العروبة في بلاد الشام قبل الاسلام وبعده

كان لبنان في التاريخ اسما جغرافيا اختلفوا كثيرا على تحديده ، وبلغ من اختلافهم هذا أن صاحب معجم البلدان روى عن الأزهري : « ان حدود لبنان تبدأ من العرج الذي بين مكة والمدينة ، ثم لا تزال تمتد الى بحر الخزر » •

ولكن الذي أجمع الجغرافيون عليه ان لبنان جزء من الشام القطر الذي أطلق عليه أهل الغرب سورية ، لذلك كان الكلام عن عروبة الشام يشمل لبنان وطننا العزيز •

وعلى رواية روبنس في كتابه « تاريخ اسرائيل » فقد جاء العرب الى بلاد الشام قبل ثلاثة آلاف سنة من ولادة السيد المسيح ، وذلك على موجات متتابعة ، فكانوا في داخلها يعرفون بالعموريين ، وفي ساحلها بالكنعانيين » ، ومنهم الفينيقيون •

وقد أكدت التنقيبات الأثرية صحة ما رواه روبنس ، كما أكدتها الكتابات العربية الأثرية التي وجدتها اخيرا بعثة جامعة مشيغن الاميركية على جدران خزان للمياه في القرب من عمان وهي تعود الى القرن الخامس قبل الميلاد •

وقد ورد ذكر العرب بأسمهم الصريح في رقيم أصدره الملك

الأشوري شلمناصر بمناسبة حملته على دمشق سنة ٨٥٤ ق م ، كما ورد أسمهم في تاريخ الأسكندر المكدوني الذي ألفه لاريانوس حيث قال : « ابان ما كان الأسكندر يحاصر صور في السنة ٣٢٨ ق م رغب في الترفيه عن نفسه بالصيد ، ولما توغل في طلبه وجد نفسه بين قوم من العرب » •

ثم ان التوراة أتت كثيرا على ذكر العرب بالشام خلال القرنين السابقين للسيد المسيح ، خصوصا في الأصحاح ١١ العدد ١٣ والأصحاح ١٢ العدد ٢٠ ، وأراميا الاصحاح ٣ والاصحاح ٢٥ وكذلك في سفر ايوب • كما ان تاريخ المسيحية يشير الى وجودهم بفلسطين في عهد السيد المسيح • اشار الى ذلك الأب يوسف قوشاقجي في مقال له نشر في مجلة الشراع عدد ١٠٧٥ حيث روى ان العرب كانوا بين الحاضرين في أورشليم يو منزل الروح القدس على الرسل ، وان الرسولين العظيمين بطرس وبولس تكلما بالعربية ، وذلك باستناده الى ما جاء في الفصل الأول من سفر أعمال الرسل •

والى هذا فان التاريخ حفل بذكر دول لهم كثيرة سبقت المسيحية كالأنباط في البتراء (الاردن) قبيل القرن الرابع قم ، والتدمريين بسوريا سنة ١٠٦ قم ، والأباجرة في الرها سنة ١٣٢ قم ، وقد عاصر أشهر ملوكهم أبجر الخامس السيد المسيح ، وكالايطوريين بلبنان في القرن الثاني قم ، وفي نهاية القرن الاول الميلادي •

وكانت عاصمتهم عنجر في البقاع التي تسمى الآن مجدل عنجر • وقد قال فيهم المستشرق هنري لامنس في مجلة المشرق سنة ١٩٠٢ : « لما فتح الرومان الشام ، وجدوا لبنان في حوزة قوم من الغزاة ، في جباله الساحلية الممتدة من طرابلس الى جبيل » ، كما قال في موضع آخر : « لما زحف بمبيوس على لبنان وجده في قبضة أحد الأيطوريين » •

وقال في كتابه تسريح الأبصار : « كل الاعلام الأيطورية الواردة في الكتابات القديمة أما عربية ، وأما آرامية » .

وللتدليل على أن العرب نزلوا لبنان قبل الأسلام قال هذا المستعرب في المجلة المذكورة سنة ١٩٠٣ ص ٨٢٤ : « ومما يدل على وجود العرب في لبنان ما وجدنا في الكتابات اليونانية من الاعلام العربية ، لا سيما في رأس الشقعة وجبيل » .

أجل وفضلا عن هؤلاء فقد كان للعرب دولة في حمص أيام السلوقيين ذكرها بفن Beaven في كتابه House of Seleucus, ووصفها بأنها قوية وذكرها ايضا دوسو . Dussaut , Les Arabes en Syrie avant L'islam وكذلك جرجي زيدان في كتابه « العرب قبل الاسلام » ، حيث قال :

« ولما قدم بمبيوس على مصر في القرن الاول ق.م ، كانت حمص في حوزة دولة عربية فأقرها على ما كانت عليه . والتنقيب الذي قام به لامنس اليسوعي سنة ١٩٠٠ بحمص كشف عن عدد من قبور أمراء هذه الدولة تعود الى القرن الثاني للميلاد » .

وأما في العهد الروماني ، الذي حفل بهجرات عربيات عديدة الى بلاد الشام « فكان للتنوخيين أمارة في مشارفها عزيزة الجانب ، خلفهم عليها بالقوة بنو سليح باسم الضجاعمة . وهم من قضاعة تنصرت فملكها الروم على العرب الذين بالشام » . على ما روى المسعودي في الجزء ٣ ص ٢١٦ في كتابه مروج الذهب .

ثم ازدادت هجرة العرب الى الشام في عهد البيزنطيين لما صار للملوك الغسانيين فيها من المكانة العليا جزاء ما قاموا به من خدمات للروم أبناء دينهم ، ولا سيما في حروبهم المتواصلة بينهم وبين الفرس وأنصارهم آل لخم في العراق . فأنعم أباطرة الرومان على رؤسائهم بألقاب الملوك .

ويقول نولدكي في ص ١٦ من كتابه « امراء غسان » : « فمنذ سنة ٥٣٦ أصبح أسم فيلارك ، وهو لقب روماني عال ، هو اللقب العادي الـذي يعرف به صاحب السلطة بين العرب ». وعلى رأيه فان سلطة آل غسان على العرب كانت تمتد من دمشق ، وفلسطين الى تدمر شمالا وشملت لبنان .

وربما كانت قبيلة بني عاملة هي التي أستوطنت لبنان قبل غيرها من العـرب . ويقول ديمونبـين في كتـابه « سوريا عهـد المماليـك »
Demonbygne : La Syrie aux Temps des Mamlukes P. 23
ان بني عاملة سلالة سبأ العربي هم اليمنيون الذين أتوا عقب أنهيار سد مأرب وسكنوا جبلا دعي بأسمهم » وهو كلام يؤيد قول الهمداني فـي كتابه صفة جزيـرة العرب ص ١٢٩ . ويكرر ما رواه أبو الفدا في الجزء الأول من تاريخه حيث قال : « وأما لخم وجذام فقد أتوا بعد ذلك بزمن متأخر الى لبنان حوالي القرن الثالث الهجري » . كل هذا أوحى الـى الكونت سفورزا الايطالي لأن يقول في التاريخ الذي وضعه عن العرب وصدر سنة ١٩٣٨ ما يأتي :

« اذا ما سألت عن الأمبراطورية الرومانية الشرقية علمت أنها كانت تسيطر على سوريا على أعتبارها قطـرا يتولاه أمراء العرب الذين كـان شعبهم يؤلف الكثرة بين سكانها » .

لذلك فان اللغة العربية أصبحت في الشام ، وربمـا في أقليم لبنـان أيضا ، لغة رائجة رواج لغة الدولة او تكاد . ويؤيد ذلك مـا جاء فـي كتاب تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية حيث قال :

« بعد انتصار هرقل على الفرس ، وأخراجهم من فلسطين طاف بين اليهود أسقف عربي ليطلع على مقدار الخراب في تلك الديار ، ولينظـم جدولا في ذلك . وقد وضع هذا الجدول باللغة العربية ، وذلك قبل فتح القدس بعشر سنين » . زد على ذلـك ان الشعر العربي كان يتغنّى بـه

الناس في الشام قبل زمن طويل من الفتح العربي الأسلامي • ويروي نولدكي أيضا ان شعراء جزيرة العرب كالنابغة الذبياني ، وحسان بن ثابت كانوا كثيرا ما يأتون الى الشام حيث يلاقون كل اكرام ، واذا ما عادوا الى ديارهم كانوا يتندرون بما لاخوانهم العرب عند الرومان من المنزلة الرفيعة •

على ان أكبر برهان على وجود العرب بلبنان من بلاد الشام قبل الاسلام كتاب الأمان الذي كتبه أبو عبيدة بن الجراح الى أهل بعلبك المنشور في كتاب فتوح البلدان للبلاذري (ص ١١٤) : فبعد البسملة وجه القائد هذا الكتاب الى أهل بعلبك رومها وفرسها وعربها •

والجدير بالذكر أن الفاتحين عاملوا هؤلاء العرب في كل مكان معاملة خاصة دون أي أعتبار للناحية الدينية • فكانوا يعفونهم من الجزية المفروضة على غير المسلمين مهما كان دينهم • كما أن هؤلاء ، وجلهم من النصارى ، يسروا للفاتحين أبناء عمهم أسباب الفتح ، ثم كانوا من المرابطين في لبنان لدفع غزوات البيزنطيين عن بلاد الشام • وقد نوه لامنس بذلك في الجزء الاول من كتابه « La Syrie ص : ١١٨ ١١٩ » حيث قال : « لما أستولى العرب على لبنان لم يجبروا أحدا على أعتناق الأسلام ، وما أسلمت كثرة شعبه الا بعد قرنين أو ثلاثة من الفتح العربي • »

عصر الخلفاء الراشدين

فتح العرب بلاد الشام بعد ثلاث عشرة سنة من الهجرة (٦٣٥ م) • وكان فتحها يسيرا ، ولم يشعروا فيها بوحشة الغربة اذ فضلا عن أن هذا القطر كان مألوفا لديهم على أعتبار أنه محط رحلاتهم الصيفية كل عـــام وذلك منذ عهد الجاهلية فقد كان حافـــلا على ما يروي المـــؤرخ دوسّو بقومهم في الحواضر والبوادي والجبال • وكان فريق منهم منتشرا من حوران الى ديار بكر وربيعة عبر دمشق وحمص وحماه وحلب في الداخل، وفريق آخر في الساحل ، ولا سيما في البقاع وبعلبك وجبل عاملة •

وقد أستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان ، فقـــدم أخوه معاوية الى صيدا وبيروت وجبيل وعرقة ، وأجلى البيزنطيين عنها ، وأحلّ فيها طائفة من العرب مكان الروم الذين غادروها لاحقين بحكامهم الاولين • وتـــرك الارض لعمالها علـــى ان يرصدوا خراجهـــا لأعطيات المسلمين •

ولكن البيزنطيين أستردوا في آخر خلافة عمر بعض هذه الثغور • فلما خلف معاوية أخاه يزيدا على ولاية دمشق أستعاد ما كان البيزنطيون قد أحتلوه من الثغور، ورمم معاقلها وعززها بالمرابطين، وأقطعهم أراضيها الخالية • ثم فتح طرابلس سنة ٢٤ هـ • وخلال ذلك فتح شرحبيل بـــن حسنة جميع مدن الاردن بغير قتال • واذ كانت صور وعكا تابعتين للاردن فقد دخلتا في عداد المستسلمين وبذلك أصبحت سوريا ساحلها وداخلها في حوزة العرب الفاتحين •

وقد اذن الخليفة عثمان بن عفان لمعاوية بركوب البحر بعد أن كان الخليفة عمر نهاه عنه ، ففتح قبرص سنة ٣٣ هـ ، كما انه تقدم شمالا حتى فتح أنطاكية • وجرى الخليفة عثمان مجرى سلفه الخليفة عمر في الاهتمام بالساحل ، فأمر معاوية عامله على الشام باقامة الحصون والمعاقل ، واتخاذ المواقيد ، وبتوزيع الاراضي والمنازل علـى المستحقين ، تلـك الاراضي والمنازل التي تخلى عنها النازحون ، كما أمره ببناء المساجد ، وتكبير مـا كان قد بني منها صغيرا من قبل •

وقد عني معاوية منذ الفتح بصورة خاصة بتوطين العرب والمسلمين في ثغور الشام • لأن البيزنطيين كانـوا لا يزالون يمنون النفس بالعودة اليها • ولعله اراد استغلال العداوة القديمة التي كانت بين الروم والفرس فأنزل فيها قوما من رعايا الفـرس للمرابطة • ولا سيما في طرابلس ومـا حولها ، على اني أرجح ان هؤلاء الفرس الذين ساقهم معاوية الى الساحل لم يكونوا في الواقع فرسا بالقومية ، وانما هم من العرب الذين كانوا يقيمون في العراق الفارسي قبل الفتح العربي ، وعلى رأسهم آل لخـم المناذرة أصحاب الحيرة • وقد أسماهم المؤرخون فرسا نسبة الى موطنهم الاول • وعلى كل حال فان تسرب القبائل الى لبنان رافق عهـد الفتح ، حيث أحتلت هذه القبائل منازل الروم الذين لحقوا بالبيزنطيين حتى اذا قامت دولة الامويين على اكتاف السوريين « شرع معاوية يستعين بالشعب السوري الذي كانت كثرته مسيحية ، وبالقبائل اليمنية التي كانت مقيمة بسوريا » على ما جاء في كتاب فيليب حتي History of the Arabs P.194 وكان يستعين بهما على غزو الروم صائفة وشاتيـة ، وعلى دفعهم عن بلاد الشام كلما تعرضوا لها •

مني الأمويون ، ولا سيما بعد وفاة معاوية بخلافات داخلية شغلتهم عن ساحل الشام ، وكادت تزعزع اركان حكمهم . فبالاضافة الى خروج ابن الزبير عليهم ، ثم مصعب بن الزبير بسبب الخلافة فان الصراع الذي وقع بينهم حول هذا المنصب كان مشجعا للروم البيزنطيين على محاولة استرداد هذا الساحل . فتقدموا الى جبل اللكام (١) ، حيث أنضوت اليهم طائفة من الجراجمة الذين يدعوهم كتبة الروم والسريان بالمردة . وسموا جراجمة نسبة الى قرية جرجومة التي كانت قاعدة اقليمهم الجبلي . وقد أتخذ البيزنطيون هذا الجبل منطلقا الى جبال لبنان الشمالية ، واتخذوها قاعدة لغزو بلاد الامويين في عقر دارهم .

ففي خلافة معاوية بن ابي سفيان « ٤١ ــ ٦٠ هـ ٦٦١ ــ ٦٨١ م » ساق الأمبراطور قسطنطين الرابع هؤلاء الجراجمة للتصدي للأمويين مع فرقة من جيشه ، ونفر من قواده ، وانضم اليهم فريق من أهل لبنان ومعهم شرذمة من الموالي الآبقين . ولكن مشاغل معاوية الداخلية جعلته يفضل أن لا يفتح جبهة جديدة للحرب في جبال صعبة المسالك فصالح الجراجمة على مال يؤديه لهم ، وعلى ان يرتهن منهم رهائن وضعهم في بعلبك .

ثم لما خرج على الخليفة عبد الملك بن مروان كل من مصعب بن الزبير ، وعمر بن سعيد بن العباس سنة ٧٠ هـ تقدم البيزنطيون تكرارا الى جبل اللكام ، والتحق بهم الجراجمة وغيرهم ، وهددوا الأمويين بغزو جديد ، فلم يسع الخليفة الأموي الا أن يصالح يوستنيانوس الأخرم

ــ ١ ــ هو جبل مشرف على أنطاكية والمصيصة يسمى عند الاتراك كاورطاغ أي جبل الكفار . وهو يتصل من جنوبه بجبل لبنان ، ويعرف الآن بجبال العاويين والنصيرية .

أمبراطور الروم في قسطنطينة على مقدار من المال يؤديه ، وكان في عداد بنود هذا الصلح اخراج الجراجمة من بلادهم • فاحتال عليهم الامبراطور سنة ٦٨٦ م• وبعد أن قتل أميرهم نفى اثنى عشر ألفا منهم الى تراقيا •

ولكن المتخلفين منهم في جبل اللكام وفي صرود جبال لبنان الشمالية عادوا الى شن حرب عصابات على البلاد الأموية المجاورة ، فكان هـذا العدوان وبالا عليهم اذ حمل عليهم مسلمة بن عبد الملك في خلافة أخيـه الوليد « ٨٦ ـ ٩٦ هـ ٧٠٥ ـ ٧١٤ م » فأفنى مـن أفنى منهم ، وجعل الباقين يفرون الى الأناضول حيث تجندوا في الجيش البيزنطي • وأمـا الذين استسلموا منهم وتخلفوا في البلاد فقد أعطاهم الأمان ، وسمح لهم بممارسة دينهم ، كما سمح لفئة منهم بالأنضمام الـى الجيش الأموي ، فساهمت فيقمع ثورة العراق فيعهد الخليفة يزيد الثاني « ١٠١ ـ ١٠٥ هـ ٧٢٠ ـ ٧٢٤ م » • وقد خالف المستشرق لامنس الكثيرين من مؤرخـي الموارنة الذين زعموا ان المردة هم الموارنة (١) وحجته في ذلك ان المردة دخلاء على لبنان • وهم من أنصار البيزنطيين ، ومن الذين تجندوا لهم ، بينما ان الموارنـة لبنانيون قدماء انما لجـأوا الى لبنان فرارا من جـور البيزنطيين • ونزيد على ذلك ان الجراجمة كانوا خـلافاً للموارنة مـن النصارى اليعاقبة أسوة بنصارى مصر (راجـع لامنس في الموسوعـة الاسلامية ص ٢٧٣) Les Mardaites • على ان هؤلاء اليعاقبة هم الذين اخرجوا الموارنة من ديارهم الاولى من قبل واضطروهم لمغادرتها الى لبنان • وتحسن الأشارة هنا الى أن رواية أخبار المردة في بعض الكتب

ـ ١ ـ للمستشرق آ. دوبرون .A. Dupperon محاضرة عن المردة منذ عهد الاسكندر المكدوني أستعرض فيها تاريخهم قبل حلولهم في جبل اللكام ، رد فيها قول المؤرخين الذين يزعمون بأن المردة هم موارنة لبنان . وقد رفع هذه المحاضرة الى المجمع العلمي في باريس .

على هذا الوجه من الأقتضاب أدى الى ذيوع معلومات خاطئة عن الأوضاع العربية في زمنهم •• ذلك بأن رواية أخذهم المال ، على سبيل الخوة من معاوية بن ابي سفيان، ومصالحة عبد الملك بن مروان لعاهل القسطنطينية للخلاص منهم صورتا هؤلاء الجراجمة في أذهان فئة من الناس على صورة البعبع المخيف الجبار، وحاكتا حولهم اطارا من الفخار كانت لحمته التخيل بأن لبنان الشمالي كان يتمتع في عهدهم بالاستقلال التام والاستقرار ، وكانت سدته المباهاة بهؤلاء المرتزقة الذين أحرزوا على زعمهم الأنتصار ، بينما ان البلاد العربية كانت عرضة للفتن والفوضى •

والواقع فان الجراجمة الذين استسلموا عند الفتح العربي لحبيب ابن مسلمة الفهري ، ثم أصبحوا اعوانا للروم البيزنطيين في حروبهم المتواصلة مع الأمويين من جهة الساحل ، والذين كانوا اذا تخلى عنهم هؤلاء يبادرون لطلب الأمان من المسلمين • ان هؤلاء كانوا اجنادا مرتزقة يستقيمون مرة ويعوجون أخرى « على ما روى البلادزي » • واذا كان معاوية وعبد الملك ، اللذان هما قطبا الدولة الأموية، اديا لهم ولأسيادهم الاموال من أجل وقف غزواتهم فلم يكن ذلك يرجع الى عجزهما عن مواجهتهم والقضاء عليهم ، وانما كان يعود الى ظروف داخلية وخارجية كانت تستدعي امهالهم مدة من الزمن •

ولا بدع ففي عهد معاوية امتد الفتح العربي حتى بلغ في آسيا حدود الهند عبر الأفغان وتركستان والسند ، وبلغ سفيان بن عوف في غزوه الروم عاصمتهم قسطنطينية وحاصرها مدة • واما في افريقيا فقد أدرك الفتح السودان وتونس واتخذ منهما مركزا استراتيجيا لمحاولة الأستيلاء على كل شمالي افريقيا • ولكن معاوية انما أراد مهادنة الروم ورشوة أنصارهم الجراجمة حبا بالتفرغ لتصفية الفتن الكثيرة التي نشبت في

العراق وفارس ضده من قبل الهاشميين ومريديهم • وللتفرغ الى امـداد الفتوحات الخارجية ، التي انطلقت كالسهم الى مدى بعيد •

واما عبد الملـك بن مروان فلما أفضت اليـه الخلافة كان عـرش الأمويين متزعزع الأركان ، وليس لهم في البلاد العربية غير مصر والشام، والباقي كان لعبدالله بن الزبيـر • وكانت الثورات مشتعلة في العـراق وفارس واليمامة ، كما كان الخوارج في كل مكان حتى ان بعض البلاد البعيدة أعلنت استقلالها • لذلـك لما استجاش عليه الـروم ، وساقـوا الجراجمة في الطليعة لغزوه اضطر لان يصالح امبراطور قسطنطينية علـى أن يؤدي له كل جمعة الف دينار • ولكن عبد الملك بن مروان ما ان نعم بالفوز على الخصوم الداخليين ، وتمتع بالاستقرار حتى تحول الى غـزو الروم في عقر دارهم سنين ٧٧ و٨١ و٩٤ هـ ففتحت اجناده تباعا اندولية وهرقلة وكيليكيا والمصيصة على ما يروي ابن الأثير في الجزء الرابع من الكامل ص ٢٢١ ــ ٢٤١ • وكذلك فان ابنه الوليد ، الذي امتدت دولته من حدود الصين وجوف الهند الـى شواطيء البحـر الاطلسي وجبـال استوريا في اسبانيا ، فقـد اصلى الروم نارا حامية فاستعـاد قادته اطنة وعمورية وهرقلة وفتحوا قونية •

ثم جرى مجـراه سليمان بن عبد الملك (٩٦ ــ ٩٩ هـ = ٧١٤ ــ ٧١٧ م) على الرغم من المشاغل الداخلية بسبب اشتداد الدعوات العباسية وغيرها ، ولكن هذه المشاغل لم تلبث ان صرفت خلفاءه عن متابعة الحروب الخارجية ، وما زالت تتفاقم حتى قضت على الدولة الأموية • اذن فـان الأسطورة التي انبثقت من الزعم ان الجراجمة تغلبوا على معاوية وعبـد الملك بن مروان ، والتي حاك حولها واضعوها حكاية مدارها ان احدا من الفاتحين لم يدخل لبنان ، ولا سيما جبال الجراجمة • ان هذه الأسطورة

ليس لها من حيّز الا في نطاق الخيال .

والجدير بالذكر هنا أن تلك الحروب المتوالية بين الأمويين وبين أباطرة القسطنطينية حملت خلفاء دمشق على الأهتمام الشديد بسواحل الشام . وقد نوه كتاب لبنان (١) بما اقاموه في هذا الساحل من الحصون والمعاقل وغيرها من المنشآت ، وقال : (ص ٢٥٠) « كانت الدولة الاموية تحسن الصنع الى رعاياها ، وتجد في تأليف قلوبهم ، وتتساهل معهم في أمور دينهم وعلى الأخص في بداية حكمها لقلة العرب في المدن ، وكثرة المواطنين » ثم ذكر أسماء أعيان النصارى الذين تولوا المناصب الكبرى في عهدها ، وساهموا في خدمتها .

وبالاضافة الى المعاقل والحصون للدفاع كان الامويون يقيمون دور الصناعة في ثغور الشام لغزواتهم البحرية . كانت هذه الصناعة قبل سنة ٤٩ هـ في مصر فأمر معاوية بان تقام في عكا ، وكان يعتمد على أهل صور في الغزوات لخبرتهم فيها . ولما تولى هشام بن عبد الملك الخلافة (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ = ٧٢٤ ــ ٧٤٣ م) جعل صور مقرا لصناعة السفن الحربية .

ويقول عبد الكريم الدندشي في كتابه العروبة في لبنان (ص ٥٥) : « ويظهر ان عملية أجلاء الأجانب من السواحل كانت من الأمور التي اهتم لها الامويون . فجميع النصوص التي تعني بفتح السواحل تخبرنا عن جلاء أهل الثغور . فلم يبق والحالة هذه سوى السكان الأصليين والعرب الفاتحين وبعض العناصر الفارسية التي أسكنها معاوية في بعض مدن السواحل . وهكذا نرى ان وجود المردة في انحاء لبنان كان من الأسباب التي دعت العرب الى التوغل فيه للخلاص منهم فلم يقتصر دخولهم على الساحل ، بل وصلوا الى قممه العالية » .

ــ ١ ــ اسم كتاب الفته لجنة بأمر متصرف لبنان اسماعيل حقي بك (١٩١٧ ــ ١٩١٨) .

عصر العباسيين

لما انتزع العباسيون الخلافة من الأمويين سنة (١٣٢ هـ = ٧٤٩ م) ونقلوا العاصمة الى العراق ولوا عنايتهم لبلاد الرافدين ، ولفارس حيث قامت الدعوة لهم وبرزت المناصرة • وهذا التحول بالاضافة الى شعور أهل الشام بان العباسيين يحاولون اقصاءهم عن الحكم ، وانهم لا يعاملونهم معاملة المساواة مع سواهم اديا الى نشوب بعض الفتن في سوريا • وكان في عدادها خروج الموارنة حوالي سنة ١٤٢ هـ = ٧٥٩ م على الدولة • وقد قال البلاذري (ص ١٦٢) فيهذه المناسبة « ثار في لبنان قوم شكوا عامل خراج بعلبك فوجه صالح بن علي بن عبدالله بن عباس من قتل مقاتلتهم ، واقر من بقي منهم على دينهم ، وردهم الى قراهم ، وأجلى قوما من أهل لبنان » • وعلق على هذا الأجلاء بالتنويه بالأمام الأوزاعي الذي استنكر هذه المعاملة القاسية لأهل الذمة وكتب رسالة الى صالح المشار اليه حفظ منها ما يلي : « وقد كان من اجلاء الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئا لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت • فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى « ان لا تزر وازرة وزر اخرى » وهو احق ما وقف عنده ، واقتدى به واحق الوصايا » •

وقد كان للأمام الأوزاعي ، نزيل بيروت في حياته ومماته ، كلمة مسموعة عند الخاصة والعامة ، فلم يسع أمير البلاد الا الامتثال له ، فاعاد المنفيين الى بلادهم •

بيد ان بني العباس سرعان ما ادركوا ما لثغور الشام من الشأن في دفع الغوائل عنهم فتحولوا الى مصانعة أهلها ، والى تحصينها • وقد أشار الى ذلك البلاذري بقوله : « ولما ولي أبو جعفر المنصور (١٣٦ ــ ١٥٨ هـ

= ٧٥٤ ــ ٧٧٥ م) تتبع حصــون السواحل ومدنها فعمرها وحصنها ، وبنى ما احتاج الى البناء منها ، وفعل مثل ذلك بسائر مدن الثغور » • وقيل انه جاء بنفسه الى لبنان لافتقاد أحواله •

ثم لما استخلف المهدي « ١٥٨ هـ = ٧٧٥ م » استتم ما كان بقي من المدن والحصون يحتاج للبناء والترميم وزاد في شحنها بالمقاتلة • وجرى مجراه خلفاؤه ولا سيما هرون الرشيد• قال معاوية بن عمرو « وقد رأينا من اجتهاد امير المؤمنــين هارون الرشيد « ١٧٠ ــ ١٩٣ هـ = ٧٨٦ ــ ٨٠٩ » في الغزو ونفاد بصيرته في الجهاد أمراً عظيما : اقام من الصناعة ما لم يقم قبله • وقسم الأمــوال في الثغور والسواحل ، وأشجى الــروم وقمعهم » • ثم أمر المتوكل على الله بترتيب المراكب في جميع السواحل ، وان تشحن بالمقاتلة في سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) ، هذا وقد اختصر الأستاذ نويهض في كتابه أبو جعفر المنصور الحروب التي نشبت بين العباسيين والبيزنطيين بقوله : « وأشد الخلفاء العباسيين ايغالا في نكاية الروم أبو جعفر المنصــور والمهدي وهــرون الرشيد • وامتــاز الرشيد بانزالــه الهزيمة المنكرة بالأمبراطور نقفور ، والمأمون والمعتصم • وفتح عمورية آية في النصر حتى هم المعتصم بغزو القسطنطينية برا وبحرا » •

والى هذا فان أبا جعفر المنصور تنبه باكرا الى ضرورة املاء لبنان بالمرابطين فانزل في أواسطه حول بيروت قبائل مــن تنوخ انجبت اسرا عديدة منها الأمراء آل بحتر وارسلان ، وآل علم الدين والمقدمون مــن اللمعيين الذين اصبحوا امراء في أوائل القرن الثامن عشر ، ومشايخ آل عماد ونكد وتلحوق وعبد الملك والعيد • وعلى رواية ابن العبري فــي مسودته المكتوبة باللغة السريانية فان تلك المنطقة التي نزل فيها آل تنوخ كانت مقفرة فاستعمروها •

وقد اتيح للبنان في عهد العباسيين الأول كثير من الاستقرار ، وساهم بقسط كبير مما أصابوا من الازدهار ، الا انه في عهد العباسيين الثاني الذي تغلب فيه الأعاجم من ترك وفرس وديلم على بغداد ذلك العهد الذي امسى نفوذ بعض الخلفاء فيه لا يتعدى قصورهم ، تعرض لبنان اسوة بغيره لحياة الفوضى اذ صار ينتقل مع سائر بلاد الشام من سلطة سيد الى سلطة آخر ، وهو في غضون ذلك كان عرضة لغزو القرامطة سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٢ م) ، ولغارات متوالية من قبل البيزنطيين ، واهمها سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٧ م) اي بعد سنة من وفاة سيف الدولة بن حمدان الذي كان يقف في وجههم بحلب كالطود الراسخ ، وكذلك سنة ٣٦٤ هـ (٩٧٤ م) .

وقد تداول على بلاد الشام في أواخر عهد العباسيين الدولة الطولونية من سنة ٢٥٤ هـ الى سنة ٢٩٢ هـ (٨٦٨ الى سنة ٩٠٥ م) ثم الأخشيدية الى سنة ٣٥٨ هـ (٨٦٨ م) حيث دخلت في حوزة الفاطميين . وفي غضون كل هذه الحقبة كانت تابعة لمصر .

والى عهد الدول الأعجمية التي استولت على الشام قبل الفاطميين ترجع شكاوى النصارى من ظلم المسلمين : فبعد ان كان خلفاء العرب الذين أشاد بعدلهم كوستاف لوبون وقال : « لم ير التاريخ فاتحا أرحم من العرب » ، وبعد أن كان مسلمة بن عبد الملك قد اخضع المردة بلبنان وامنهم « على ما روى البلازري » وسمح لهم بأن ينزلوا حيث شاؤوا ، وأجرى عليهم الاعطيات على أن يمارسوا دينهم بحرية ، وولى عليهم أميرا منهم كان يلقب بطريركا . بعد كل ذلك فان هذه الدول الأعجمية في بلاد الشام أخذت تعاقبهم على الشبهات ، وتتهمهم بالعمالة لقسطنطينية وتحاسبهم حسابا عسيرا حتى أخرجتهم ، فكانوا ، ولا سيما في عهد الصليبيين ، حربا على المسلمين ، وظلوا كذلك الى ان تمكن مماليك مصر

من القضاء على الخوارج منهم سنة ٥٠٧ هـ = ١٣٠٥ م وذلك بعـد أن تمكن هؤلاء المماليك مـن دفع تيار الحملة المغولية ، واستئصال بقايـا الصليبيين • ومنذ ذلك فتحت السبل على وجه أكمل لأنتشار اللغة العربية في جبال لبنان الشمالي ، ولم تكن الآرامية أو السريانية الا لغة الطقوس الدينيـة •

والى هذا العهد اي عهد الحكم الأعجمي ترجـع ايضا شكـاوى الفرنجة من المسلمين في صدد عرقلة سبل الحج الى بيت المقدس ، واتخذوا من هذه الشكوى ذريعة للحروب الصليبية ، تلك الحروب التي زادت في حدة الخصام بين الطوائف ، ولا سيما في لبنان •

وفي الجملة فان الحروب التي تعاقبت بين دمشق وبغداد من جهـة وبينهما وبين القسطنطينية من جهة أخرى ظلت المبادرة فيهـا حتى عهـد الواثق بالله العباسي (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ = ٨٤١ ـ ٨٤٧ م) في قبضـة العرب• وبعد ذلك تبدل الموقف تبعا لتبدل احوال العباسيين فاخترق الروم الحدود العربية • وكادوا يستولون على سوريا لولا ان جاء ابن طولون من مصر وصدهم عنها • ثم اكتسحها الروم مرة ثانية وكادوا يحتلـون القدس بعد الأستيلاء على دمشق لولا ان تصدى لهم الفاطميون وردوهم على اعقابهم •

عهـد الفـاطميين

دخل الفاطميون بلادالشام في زمن المعز لدين الله سنة ٣٥٩هـ (٩٦٩م) لرد الروم عنها• ذلك بأن الأمبراطور يوحنا المعروف عند العرب بالشمقمق Jean Tsimites وهو من أصل أرمني ، كان قد استطـاع فـي نفس العام الأستيلاء على انطاكية وحلب ، وسار منها الى دمشق ، ولمـا

فتحها ولى وجهه شطر بيت المقدس ، ولكن الفاطميين ردوه على أعقابه عنها ، واستمروا حتى سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) يصلونه حربا شعواء حتى اضطروه للأنسحاب الى انطاكية •

ومن المؤسف ان المسلمين لم يأخذوا من هذا الخطر عبرة ، بل عادوا الى خلافاتهم، وكان أبرزها وقتئذ الخلاف بين أهل السنة وأهل الشيعة• فاذا بالفاطميين يواجهون ثورات عدة في بلاد الشام ، وانتفاضات كان أهمها الحروب بينهم وبين الحمدانيين أصحاب حلب • وهذا الخلاف اتاح للروم الفرصة كرة أخرى لأكتساح سوريا سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) تحت ستار انجاد الحمدانيين الذين استنجدوا بهم على الفاطميين •

لكن الفشل كان نصيبهم لأن الفاطميين هزموا آل حمدان على مقربة من العاصي شر هزيمة وأرجعوا الروم الى انطاكية ، ثم تحولوا الى الساحل فاستردوه تباعا ، ولم تدخل سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) حتى أصبح الساحل الشامي في حوزتهم مع أكثر بلاد الداخل •

وعلى رواية تاريخ « لبنان » ص ٢٥١ : « ففي السنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) كان المتولي على بيروت أبا سعيد قابوس بن فاتك أمير الغرب من قبل المستنصر بالله الخليفة الفاطمي بمصر • وفي السنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م) اقطع المستنصر عكة وبيروت وجبيل لعز الدولة ثمال بن مرداس صاحب حلب عوضا عن حلب التي تنزل عنها للخليفة » • وقد اختصر صالح بن يحي تاريخ الشام في القرون الثلاثة التي تقدمت على الحروب الصليبية بقوله : « وكان الذي يقوى على دمشق يملك على السواحل حسب ما ذكره المؤرخون • »

ثم بدأ حكم الفاطميين يتقلص عن الشام، ولا سيما في عهد خليفتهم الخامس العزيز بالله • وما الحوادث التي تتابعت فيها ما بين سنة ٤١٤

و ٥٠٠ هـ (١٠٢٣ ــ ١١٠٦ م) الا صراع بين الفاطميين وبين الخارجين عليهم من عمالهم في ساحل الشام ، وعلى رأسهم آل عمار امراء طرابلس وآل عقيل في صور . ومن الأسف الشديد ان يكون لهذا الصراع لــون طائفي .

أجل ، وكان يرجع هذا الصراع الداخلي على الأكثر الــى ظهور عنصر جديد وقف في وجه الفاطميين الشيعيين في زحفهم نحو بغداد ، بغية القضاء على العباسيين ، واعني بــه السلاجقة الأتــراك ٤٢٩ ــ ٧٠٠ هـ (١٠٣٧ ــ ١٣٠٠ م) الذين كانوا من غلاة السنيين . ولما استطاع هــؤلاء السلاجقة احتلال بــلاد الشام الداخلية ، وفتحوا دمشق بعــد القدس شجعوا زعماء الساحل ، وكانوا على مذهبهم على الخروج على الفاطميين.

بيد ان الأنقسام ، وهو داء الشرق المزمن ، لــم يلبث ان وقع بين السلجوقيين انفسهم بعــد موت السلطــان ملكشاه في بغــداد ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) وقد ساعد ذلك الفاطميين على سحق الانتفاضات المتوالية التي كانت تقع في الساحل السوري وعلى توطيد أركان حكمهم فيه. الامر الذي كان حافزا لطوائف كثيرة من أنصارهم على الاقبال على جبال لبنان وثغوره وأكثرهم من الطوائف المتعددة التي تتعصب لسلالة الرسول الأعظم على اختلاف مذاهبها .

عهد الحــروب الصليبية

في القرون الوسطى كانت ذكريات فلسطين مؤلمة لدى الفرنجة كما هي الآن عند العرب والمسلمين ، وكانت قلوبهم وابصارهم لا تفتأ تتجــه اليها . فلما أمست بلاد الشام ساحة عراك بين خلفاء مصر الفاطميين ، وبين المتغلبين تباعا على الخلافة العباسية ببغداد من الأعاجم، وآخرهم السلاجقة

تجاوب مع الفاتيكان ملوك وعواهل أوروبا لاسترداد البلاد المقدسة من المسلمين . فحملوا على سوريا ست حملات متوالية (١٠٩٦ — ١٠٩٩) و (١١٤٧ — ١١٤٩) ، و (١١٨٩ — ١١٩٢) و (١٢٠٢ — ١٢٠٤) ، و (١٢١٧ — ١٢٢١) و (١٢٢٨ — ١٢٢٩ م) . وكانت الحملة السابعة الى مصر (١٢٤٨ — ١٢٥٤ م) ، واما الثامنة في سنة ١٢٠٨ م فقد توقفت عند تونس ، وقد اعانهم تفرق المسلمين على أحتلال سوريا .

وكانت سواحل الشام في حكم الصليبيين موزعة بين ملك القدس وبين حاكم طرابلس ، فكانت صور وصيدا وبيروت تابعة لملك القدس بينما كانت الثغور والجبال التي تقع في شمال بيروت من أعمال طرابلس .

وكان حكم الصليبيين في هذه البلاد حكما اقطاعيا على غرار حكمهم في بلادهم : فكان على صور اسرة دي مونفرّا ، ثم اسرة دي مونفور ، وعلى صيدا اسرة غوتيار ، وعلى بيروت اسرة ديبلين ، وعلى جبيل اسرة دي لمبرياك من ١١٠٤ الى ١٢٨٠ م. واما حكام طرابلس فكانوا اسرة دي صنجيل كونت دي طولوزة من ١١٠٩ الى ١٢٨٩ م .

وتلك الحملات الصليبية المتعاقبة تشير الى واقع هؤلاء الغزاة لسوريا وما حولها : فهم كانوا عرضة لهجوم دائم يقوم به المسلمون من كل جانب حرمهم من لذة الاستقرار خلال القرنين تقريبا اللذين قضوهما فيها وكأنها مدة حرب واحدة .

رافقها الاطمئنان ، وواكبها الازدهار : ذلك بأن وجود هؤلاء الصليبيين
ومع ذلك فان سوريا لم تخل في عهدهم الطويل من فترات من الزمن
في الشرق الأدنى كان عاملا كبيرا لرواج التجارة بين الشرق وبين الغرب . فكانت المراكب الأوروبية تغدو وتروح بينهما ، ولا سيما من البندقية وجنوا ومرسيليا ، مشحونة ببضائع القارتين . وما يصل منها الى الموانىء

الأيطالية والفرنسية كان يوزع على أسواق أوروبا حتى اقاصيها •

ومثلما ان بلاد الشام المحتلة افادت في الناحية التجارية من وجود الصليبيين فيها فان هؤلاء افادوا أكثر في الناحية الأجتماعية : فهذه البلاد اذ كانت أعلى مرتبة من اوطانهم في الحضارة صبغتهم بصبغتها العربية في اخلاقهم وأزيائهم وفنونهم وثقافتهم • هذا فضلا عن ان الحروب الصليبية حملت عناصر أخرى اسلامية على النزول في بلاد الشام الساحلية تباعا لاجلاء المغتصبين اسوة بالأمراء التنوخيين الذين كانوا يرابطون في اواسط لبنان ، والأمراء بني الحمراء في البقاع • وكان في طليعة هذه العناصر التي تقدمت وقتئذ الى ساحل الشام الأمراء المعنيون وذلك خلال الحملة الصليبية الأولى ، والأمراء الشهابيون في غضون الحملة الصليبية الثالثة • فكانت هذه الحروب بما تخللها من الزحف المتتابع الى الشام من الغرب ومن الشرق سببا في زيادة عدد سكانها ، ومضاعفة الحركة فيه •

ففي عهد استيلاء السلجوقيين على دمشق انزل عاملهم عليها طغتلين الأمير معن بن ربيعة اللخمي جبل الشوف في نحو سنة ١١١٨ م ، ثم لما استولى السلطان نور الدين زنكي على دمشق وعلى سوريا تقدم الأمراء الشهابيون العدنانيون من حوران الى وادي التيم ، وأزاحوا عن حاصبيا الكونت اور الصليبي •

وعدا هؤلاء وهؤلاء فان الحروب الصليبية كانت حافزة لأسر أخرى عربية كثيرة للتقدم من حوران وغيرها للمرابطة في لبنان • ومنها آل الدحداح ، وهم من اليمامة ، وبنو هاشم بن عقبة الصحابي على ما يروى بعضهم ، وبنو حبيش المنتسبون الى حبيش بن خالد الصحابي ، وربما كانوا من اليمن فقد قال لي السيد علي المؤيد الذي كان يمثل اليمن في الجامعة العربية في عهد آل حميد الدين : ان اسرة حبيش من قبيلة سفيان

الهمدانية باليمن ، وان فئة منها لا تزال تقيم في المحويت في الشمال الغربي من صنعاء • وكان في عداد النازحين الى لبنان ، وقتئذ المقدمون آل مزهر وآل الصواف والمشائخ آل حصن الدين وبنو الشاعر في علمات ومقدمو جاج ، وآل زوين بغزير •

هذا وقد بدأت كفة المسلمين ترجح على الصليبيين مذ تصدى لهم آل زنكي أصحاب الموصل وحلب ، ولا سيما في أواسط القرن الثاني عشر • ثم لما اتيح لصلاح الدين الأيوبي الأستواء على عرش مصر ، نهد لاجلائهم عن الديار الشامية • وبعد ان أسر ملكهم لوزينيان وكثيرا من امرائهم في وقعة حطين (٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م) دخل القدس منتصرا فتسنى له فتح هذه الديار في السنتين التاليتين تباعا حتى لم يبق للملكة الصليبية الا بعض المدن الساحلية التي استردتها اسرة المماليك البحرية في عهد الأشرف بن قلاوون سنة ١٢٩١ م • وكانت مدة اقامتهم في سوريا منذ احتلالهم انطاكية سنة ١٠٩٨ م الى يوم اخراجهم من عكا سنة ١٢٩١ مئة وثلاثا وستين سنة • وهي مدة وان نكبت البشرية خلالها بالأرواح والأموال ، وبما سلبته تلك الحروب من أسباب الاطمئنان والراحة الا أن الفضل الأول يرجع اليها في بعث التمدن الحديث وذلك نتيجة لجرائيم الحياة الراقية التي لقح الشرق بها الغرب خلال مدة تلك الحروب •

عهد المماليك

قامت في مصر دولتان للمماليك : الأولى البحرية والثانية البرجية• الأولى من التركمان من ٦٤٨ هـ لغاية ٧٨٤ هـ (١٢٥٠ الى ١٣٨٢ م) ، والأخرى من الجراكسة من ٧٨٤ هـ لغاية ٩٢٢ (١٣٨٢ ــ ١٥١٧ م) •

وكان أول ما اهتم به المماليك البحرية استرداد ما بقي من ثغور الشام

في حوزة الصليبيين ، واقامة الحصون والمعاقل فيها وفيما حولها • اقاموها في وجه فلول هؤلاء الأعداء الذين كانوا يقفون لهم بالمرصاد في جزيرتي قبرص ورودس ويوالون عليهم الغارات • وكان همّ المسلمين أيضا دفع تيار المغول ، وتحرير سوريا الداخلية من هؤلاء الغزاة الذين كانوا بعد استيلائهم على بغداد سنة ١٢٥٨ م قد احتلوا قسما من الشام • وبقوا فيها الى أن أتيح لبيبرس البندقداري أحد ملوك هذه الأسرة استرداده منهم في سنة ١٢٦٠ م •

والجدير بالذكر انه لما زحف المغول على الشام انضمت اليهم شراذم من الصليبيين المقيمين في جزيرة قبرص ، وفئة من أهالي جرود كسروان قال عنهم أبو الفدا في تاريخه « انهم كانوا من النصيرية والظنيين وغيرهم من المارقين » وقد أخذوا يوالون غاراتهم على ثغور الساحل في غضون اشتغال الدولة في محاربة المغول ، ويلقون الرعب فيها والدمار ، ثم يعودون الى حصونهم في أعالي جبل كسروان •

وفي سنة ٧٠٤ هـ (١٣٠٤ م) زحف عليهم الأمير جمال الدين آقوش نائب دمشق ومعه نائبا طرابلس وصفد ، وفتك فيهم فتكا شديدا ، وشتت عيالهم • ثم ولى عاملا على بعلبك ، وملحقاتها وفي عدادها بلاد كسروان رجلا اسمه بهاء الدين قرهقوش (أي الطير الأسود) استعمل الشدة والعنف في قطع دابرهم ودابر سائر الخوارج حتى صار اسمه حتى الآن عنوانا للظلم في بلادنا •

وتداركا لانتفاضات اخرى من قبل الكسروانيين أو غيرهم فان المماليك البحرية ، علاوة على اقامتهم المزيد من الحصون ، فقد عبؤوا البلاد الواقعة ما بين بيروت وطرابلس بالمسلمين ، واقطعوهم اياها ، ثم أقطعوها سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) لآل عساف • وهم من التركمان أبناء جنسهم ، وجعلوا دركهم يمتد من أنطلياس جنوبا الى مغارة الأسد شمالا

على مقربة من طرابلس • وكانت اغزير بكسروان قاعدة لأمارتهم • وفي عهدهم أقبلت طوائف كثيرة من المسلمين على اقطاعهم حتى ملأت جباله وسواحله •

وأما في أواسط لبنان فان المماليك اقطعوا الأمراء التنوخيين الغرب المشرف على بيروت ، كما أقطعوا الأمراء آل معن الشوف ، والأمراء الشهابيين حاصبيا وراشيا • وولوا على بيروت الأمراء آل بحتر التنوخيين الى حدود الدامور في الساحل لأنهم أبلوا بلاء حسنا في الحروب الصليبية في البر والبحر • وقد أشاد بهم صالح بن يحي ، ونوه بمبانيهم في بيروت• هذا وكان لمماليك مصر مأثرة أخرى غير اجلاء الصليبيين عما بقي في حوزتهم من ثغور الشام ، وغير اخراج المغول من داخلها ، وأعني به الرخاء الذي نعم به القطران مصر والشام في أيامهم فضلا عن العمران • ويرجع ذلك الى رواج التجارة بين الشرق وبين أوروبا • فعلى أثر انتهاء الحروب الصليبية كان الأوروبيون قد ضربوا ، بالاتفاق مع المغول ، الحصار الأقتصادي على البلاد الاسلامية ، ولكنهم لم يلبثوا الا قليلا حتى تنافسوا ، فبادر تجار البندقية الى تحسين علاقاتهم مع أهل الشام بينما كان تجار جنوا ، يعقدون الأتفاقات مع أهل مصر • وهذه المبادرة المزدوجة رافقها مخابرات رسمية ثم معاهدات بين المماليك وبين عواهل الدويلات في ايطاليا • على ان هذا التبادل التجاري المثمر جعل من سوريا مركز الأتصال بين الاقطار الشرقية وبين الأقطار الغربية • وقد ظلت تنعم بخيراته الكثيرة الى سنة ١٤٩٧ م حين اكتشف البرتغاليون طريق الهند الجديد من رأس الرجاء الصالح • هذا الأكتشاف الذي حول التجارة الأوروبية عن مجراها القديم • وكان له ما كان من الأثر السيء على اقتصاديات كل من مصر والشام •

ويقول بيكولوتي : «ان اربع مرافىء بالشام وهي عكا وبيروت

وطرابلس واللاذقية ، بالاضافة الى خمس مدن في الداخل ، وهي الرملة ودمشق وحماه وانطاكية وحلب استفادت كلها بعد الحروب الصليبية من هذا التبادل التجاري مع البلاد اللاتينية فوائد كثيرة » .

ومن المفيد أن نورد هنا قول صالح بن يحي في تاريخه عن بيروت حول هذه الناحية الاقتصادية في أعقاب الحروب الصليبية : « صارت بعض مراكب الفرنج تتردد الى بيروت بالمتاجر قليلا قليلا . وكانت مراكب البنادقة تحضر الى قبرص فيرسل صاحب قبرص بضائعهم في شوتتين كانت له الى بيروت نقلة بعد أخرى . وكان للقبارصة كنس ببيروت وجماعة من التجار يسكنون فيها ، ولهم خانات . ثم بطل ذلك وتكاثر حضور مراكب طوائف الفرنج . وكانت ضرائب الواردات والصادرات تؤخذ ببيروت ، وهي تبلغ جملة مستكثرة . وكان على باب الميناء دواوين وعامل وناظر ومشرف وشاد يوليهم نائب دمشق الشام . والمتوفر عن المرتبات يحمل الى دمشق » .

وقد أطرى كتاب « لبنان » المذكور هذا العهد قائلا : « وبقي لبنان في سكينته فتوفرت فيه الراحة . وقصده الناس حبا بالأمن والطمأنينة لا سيما الموارنة المتفرقين في الأماكن البعيدة . وفي ذلك الوقت بنيت عدة كنائس وأديرة وارسل قصاد رسوليون الى لبنان من الرهبان الصغار » . ولا شك أن هذه البادرة بادرة عودة الحكام الترك الى ما كان في عهد الحكم العربي الصافي من التسامح الديني يعود الى التفاعل الايجابي بين المسلمين والمسيحيين في غضون الحروب الصليبية حيث تعارفوا روحيا على الرغم من صراعهم السياسي . والناس أعداء ما جهلوا .

وكان لهذا التسامح والأستقرار أثر في مجيء موجات اخرى عربية الى لبنان ، ولا سيما من حوران في القرن الخامس عشر أبان حكم المماليك الجراكسة ذكرها جرجي زيدان في مجلة الهلال السنة ١٧ وكان

على رأسهم بنو الخـازن والعازار والضاهر والغريّب والجميّل ومـراد ونجيم والتويني ومعلوف وثابت ، وكذلك آل المطران وجبارة وغنـام وحوراني وعطية وشقير وطراد وحداد وصفير وغصن وسواهم • وكانت هجرتهم بسبب فتن محلية نشبت في موطنهم الأول فغادروه تباعا قاصدين الساحل حيث توافر الرزق وتأمن الاستقرار •

وبهذه الموجات المتوالية منذ عهد الفتح العربي أصبح العنصر العربي بلبنان ، سواء في جنوبه أو شماله ، وسواء في ساحله أم جباله ، أبـرز العناصر المقيمة فيـه خصوصا بعد أن غـادره في أعقاب جلاء كل مـن البيزنطيين عنه والصليبيين عدد كبير من ذويهم ومريديهم • وبذلك اجتمع فيه آل غسان وآل لخم الذين كانوا قبل الاسلام اعداء لا لشيء عربي ، وانما لأن الأولين بالشام كانوا أنصارا لدولة الـروم على الفـرس ، وان الآخرين بالعراق كانوا مظاهرين للفرس على الروم ، كما اجتمع فيه أبناء عدنان وقحطان والحزبان العربيان قيسي ويمني • ونقـل هؤلاء وأولئك الى لبنان أخلاقهم وتقاليدهم ومعها غرضياتهم وحزبياتهم على انهم كانوا جميعا اذا فاخـروا فانما يفاخرون بعروبتهـم سواء أكانـوا نصارى أو مسلمين • أما الطائفية الملية التي نشكو منها الآن فلم تبرز الى الميدان الا بعد أن عملت السياسة الأجنبيـة للتفريق بين أهل لبنان • وللتمهيـد للأستيلاء عليه وعلى سائر البلاد العثمانية •

وخلاصة القول ان الحروب التي رافقت العهد العربي من بدايته الى نهايته مع البيزنطيين والصليبيين ساقت الى لبنـان موجات متتابعة مـن العرب تولت الحكم فيه ، وهي بالاضافة الى الموجات الأولى قبل الاسلام، كانت كافية لتعريبه على الرغم مما بقي فيه من عناصر غير عربية من حيث الدم • خصوصا اذا أخذنا بعين الأعتبار مـا قاله المؤرخ دوسو في كتابه الفرنسي «العرب بسوريا قبل الاسلام في الصفحة ٤» : « ان الاعتماد على الجنس أو الدم وحده في تشكيل قومية امة هي نظرية غير صحيحة » •

الفصل الثاني

لبنـان في عهـد آل عثمان

لبنـان في عهـد آل عثمـان

لما فتح السلطان محمد الثاني قسطنطينية سنة «٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ م» تحولت مطامع آل عثمان الى بلاد الشام التي كانت مـن أعمال مماليك مصر • وقد شدد عزمهم على فتحها انحياز المماليك الى خصوم الاتراك في الحروب التي نشبت بينهم وبين المملكة الصفوية التي نشأت بفارس فـي أوائل القرن السادس عشر للميلاد وعملت لتحرير الفـرس بقيادة الشاه اسماعيل وتزعمت جماعات أهـل بيت الرسول وأنصارهم بينما كان آل عثمان يتزعمون أهل السنة •

وقد اتيح للسلطان سليم الأول الأنتصار في وقعة مرج دابق ، قرب حلب ، على قانصوى الغوري ملك مصر سنة ١٥١٦ م ففتح هذا الأنتصار أبواب سوريا أمامه فدخلها ، وسار منها الى مصر وفتحها في السنة التالية، ثم عاد منها الى دمشق وكتب منها الى امراء لبنان بالأمان •

وعلى رواية الدويهي « ١٦٢٩ ــ ١٧٠٤ م » في كتابه تاريخ الأزمنة (ص ٢٣٦) فان « الأمراء الذين وفدوا على السلطان سليم ، ومثلوا بين يديه هـم الأمير قرقماس « وهـي كلمة محرفة مـن قرقماز التركية أي لا يخاف » بن الأمير يونس بن معن ، والأمير جمال الدين اليمني والامير عساف التركماني ، وغيرهم• أما امراء الغرب التنوخيون (آل بحتر) فلم يفدوا على السلطان الفاتح لأنهم كانوا من محازبي المماليك الجراكسة ، فتحذروا منه • فولى السلطان الأمير قرقماس على بلاد الشوف ، والأمير

جمال الدين على الغرب ، والأمير عساف على كسروان وجبيل • وأمرهم أن يحسنوا السياسة ، ويجروا العدالة كل منهم على قـومه • وأعطاهم بذلك خطا شريفا ، وأثبت امتيازاتهم المعترف لهم بها من سلالتي مماليك مصر منذ سنة ١٢٦٠ م ، وضرب عليهم جـزية خفيفة ••• وقـدم عليهم الأمير فخر الدين الاول ابن الامير عثمان معن أمير الشوف ا هـ » • غير ان ابن سباط الذي عاصر هذا الفتح ، وكان فقيها من أهالي عاليه بلبنان ، يذكر في مخطوطته الموجـودة في مكتبة الجامعـة الاميركية ببيروت ، ان الأمير التنوخي شرف الدين يحي لبى أيضا دعوة السلطان المشار اليه وجاء مرتين ، وباس يده ، وخدمه فرسم له بالعلامة على مناشيره » •

ولنا ملحوظة على رواية الدويهي بـأن السلطان قـدم على اولئك الوافدين اليه الأمير فخر الدين الأول المعني أمير الشوف ذلك لان امارته لم تشمل في الواقع ما بعد بيروت أي كسروان وبلاد جبيل لأنهما كانا من أعمال الأمراء آل عساف منذ سنة ١٣٠٦ م عهد المماليك ، ثم أقرهم عليها السلطان سليم • وزادهم سلطة في الولاية • فامتدت مساحة اقطاعهم من بيروت جنوبا حتى عـرقا شمالا • وفي عهـد الأمير منصور بن حسـن « ١٥٥٢ ــ ١٥٨٠ م » تمتعت ولايتهم بالأمـن والأستقرار فتكاثر ورود الناس اليها ، ومنهم اسرة آل حبيش التـي كافأها الأميـر منصور على خدماتها بأن فوض اليها ادارة غزير والكفور وفتقا • وقدمها أيضا من جهة البقاع فئة من المسلمين السنيين فأقاموا بفتقا والجديدة وساحل عاما وفيطرون ، وجاءها جماعة أخرى من الجعفريين من الهرمل وفي مقدمتهم آل حماده ، واستوطنوا الفتوح وعكار • هذا فضلا عن دروز من المتـن استوطنوا قريةمزرعتاء ثم انبسطت امارة آلعساف، حتىامتدت الىحمص وحماه في عهـد السلطان سليم الثـاني « ٩٧٤ ــ ٩٨٢ هـ = ١٥٦٦ ــ ١٥٧٤ م » • ولكن السلطان مراد الثالث « ٩٨٢ ــ ١٠٠٣ هـ = ١٥٧٤ ــ

١٥٩٦ م » حسب لهم حسابا فأمر بأن تعطى ايالة طرابلس ليوسف باشا سيفا وهو من الأكراد • وبذلك بذر بذور الشقاق بين بني عساف التركمان وبني سيفا الأكراد فقامت بينهما حروب انتهت بقتل الأمير محمد عساف• وبانقراض سلالته طوى الزمان اسمهم ، ولكن الجامع الذي عمره الأمير منصور عساف في بيروت على شكل هندسي جعل بعض المؤرخين الأوروبيين ينوهون به أحيا ذكرهم حتى الان • ثم أن الدولة ظاهرت الأمير فخر الدين المعني الثاني « ١٥٨٤ — ١٦٩٧ » على تخضيد شوكة بني سيفا حتى قضى عليهم • كما فصلنا كل ذلك في كتابنا الحلقة المفقودة في تاريخ العرب •

هذا وكان الملك الظاهر بمصر قد كافأ المقدم يعقوب بن أيوب على مناصرته له في الحروب الصليبية بتسميته نائبا على جبة بشري ومنطقة الأرز ، ولما دخلت الشام في حوزة السلطنة العثمانية أقرته هذه على اقطاعه ، وكان يعتبر في المرتبة الأولى بين سائر مقدمي الموارنة زعماء جبيل والبترون الذين كان يعهد اليهم جباية الخراج بالرفق والعدل وتأديتها الى متبوعهم متسلم طرابلس •

وفضلا عن هؤلاء وأولئك فان السلطان العثماني الفاتح وخلفاءه أقروا امراء آل نحاش على الكورة وملحقاتها ، وبني شعيب على عرقا في شمالي لبنان ، وكذلك آل الصغير ، وآل منكر ، وآل صعب على جبل عامل في الجنوب ، والأمراء آل شهاب على وادي التيم ، والأمراء آل حرفوش على البقاع • وكانوا جميعهم يحكمون على طريقة الأقطاع • وعلى كل اقطاع اسرة تحكمه على هواها ، وهي اما من الأمراء أو المقدمين أو المشايخ • وهم ينتخبون أميرهم الأكبر الذي يمثلهم أمام السلطنة •

ومنذ أفل طالع آل تنوخ ونصب السلطان سليم فاتح الشام الأمير فخر الدين الأول بن معن رئيسا على اقطاعيي اواسط لبنان الحالي بسم

الحظ لأسرته ولا سيما في عهد الأمير فخر الدين الثاني الذي لعب الدور الأكبر في تاريخ لبنـان ، وانبسط حكمه على ما حـول لبنان . وفي سنة ١٦٩٧ توفي الأمـير أحمـد بن ملحم بن فخر الديـن الكبـير عقيما فأنقطعـت بوفـاته السلالة المعنيـة بعـد ٥٧٩ سنة قضوهـا علـى رأس الامارة . وكان الأمراء الشهابيون الذين يتصل نسبهم بمالك بـن مرة بن كعب القريشي الملقب بشهاب قـد صاهروا آل معن ، وناصروهم على اعدائهم الحزب اليمني . فلما توفي الأمير احمد المعني دون عقب اختار اصحاب الأقطاعات ابن اخته الأمير بشير بن حسن الشهابي حاكم راشيا خلفا له على اعتباره كبير آل شهاب . وبذلك انتقلت امـارة لبنان الأوسط الى هذه الأسرة . ولكـن حكومة استامبول رأت ان الحق في الامارة يعود الى الأمير حيدر بن موسى الشهابي امير حاصبيا ، وهو ايضا ابن اخت الأمير احمد المعني وذلك على الرغم من انه لم يكن له من العمر سوى اثنتي عشرة سنة ، واقامت عليه الأمير بشيرا وصيا الى ان توفي سنة ١٧٠٦ . فاستقل الأمير حيدر بالحكم . وقد عرف بمضاء العزيمة ، وجميل المزايا .

وقد اتيح لهذا الأمير الخطير ان يتمتع بشيء كثير مـن الاستقلال ومن الاعتزاز لانشغال السلطنة عنه بشئونها الخاصة بعد فترة طويلة من الحروب التـي شنتها عليهـا النمسا وبولونيا والبندقيـة ورهبنة مالطة والفاتيكان باسم التحالف المقدس وذلـك من الغرب ، ثم روسيا مـن الشرق . تلك الحروب التي دارت فيها الدائرة عليها ، واضطرتها لتوقيع معاهدة كارلوفتز سنة ١٦٩٩ التـي اعترفت فيها بالتخلي عن كثير مـن بلادها .

ولما اتيح للامير حيدر حرية التصرف رأى ان يستهل عمله بالقضاء على الحزب اليمني خصمه ، فكان له مـا اراد سنة ١٧١١ م فانصرف الى

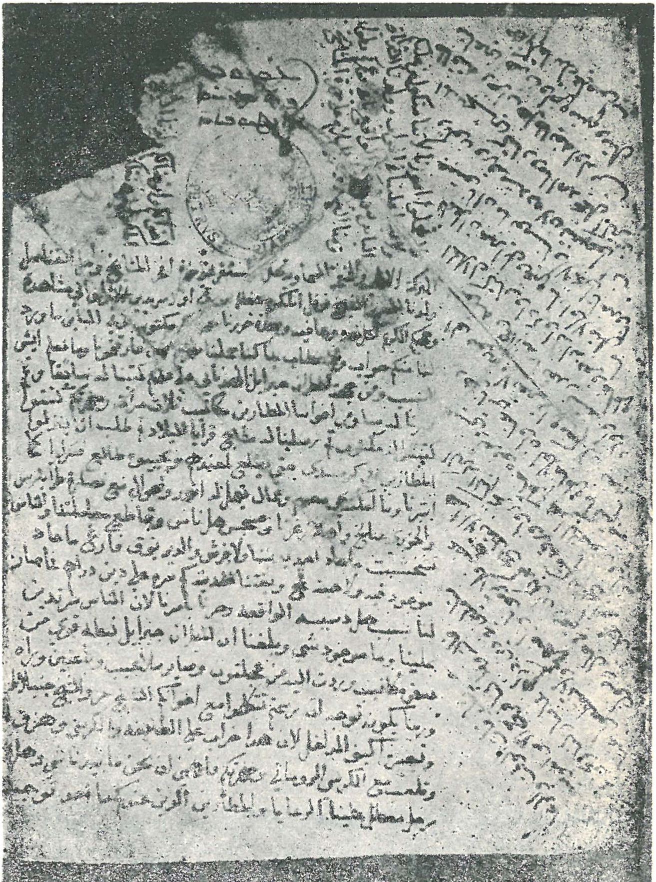
تنظيم شؤون بلاده معتمدا على زعماء الحزب القيسي وحده • فولى على الشوف بني جنبلاط ، وعلى المناصف بني نكد ، وعلى العرقوب بني عماد ، وجعل الجرد لبني عبد الملك ، والمتن للمعنيين ، والغرب الأعلى لبني تلحوق ، والغرب الأقصى لآل ارسلان • واما في خارج الأشواف فقد ولى على كسروان آل الخازن ، وعلى الزاوية بيت الضاهر ، وعلى الكورة بيت العازار وعلى جبة المنيطرة بني حمادة •

وقد جاء في تاريخ « لبنان » المذكور : « ولم يكتف الأمير حيدر بتقوية سلطته في جبل لبنان حتى اشرب حبه مشائخ بلاد بشارة الشيعيين ، ومشائخ حاصبيا وراشيا ومشائخ البقاع وبعلبك والضنية فمالوا اليه ومالأوه على ما اراد فاصبح يدير الشؤون من مركزه في دير القمر او بيروت ليس في لبنان فقط ، بل في بلاد البشارة ومرجعيون والبقاع ايضا ، وهي عبارة عن معظم ولاية الأمير فخر الدين الكبير الواسعة الأطراف • »

وكان من المفروض ان يفيد خلفاء الأمير حيدر من التركة الواسعة التي خلفها لهم ، وان يستغل هؤلاء مثله مشاكل آل عثمان ومشاغلهم ، ولكنهم انصرفوا عن هذا وذلك الى التنازع فيما بينهم على الامارة : فالأمير ملحم الذي خلف اباه الأمير حيدر سنة ١٧٣٢ ، والذي اعتنق اولاده المسيحية في عهد امارته ، اطمع اخوته به حتى اضطروه للاستقالة سنة ١٧٥٤ تاركا لعميه الأميرين احمد ومنصور ان يحكما في وقت واحد ، وان يمارسا الصراع بينهما • اولهما على رأس الحزب اليزبكي ، والآخر على رأس الحزب الجنبلاطي • ثم لما انفرد احدهما الأمير منصور بالحكم سنة ١٧٦٢ برز الأمير يوسف بن ملحم الى الميدان ينازعه على الامارة واستغل ما صار له من الزعامة عند الموارنة ، والرضا من دولة آل عثمان للاستئثار بالامارة طوال ١٨ عاما ابتداء من سنة ١٧٧٠ • وكانت الفرصة سانحة لأسلافه ثم له في بداية حكمه لأن يوطدوا اركان

امارتهم على غرار ما فعل الأمير حيدر موسى ، ولكنهم اذ انصرفوا الى الخلافات الحزبية والطائفية تركوا ارنؤوطيا غريبا يهتبل تلك الفرصة دونهم ، وان يتولى على ايالة صيدا سنة ١٧٧٢ ويلعب بمقدرات الامارة الشهابية كلاعب الكرة يلقيها الى واحد بعد الآخر ، واعني به احمد باشا الجزار الذي مثل بساحل الشام في عهد آل عثمان ، دور الحجاج بالعراق في زمن الأمويين . فما ان آنس في الأمير بشير شهاب « الملقب بالكبير » القدرة على تأمين مصالحه حتى القى اعتماده عليه سنة ١٧٨٨ . ثم استغل شغفه بكرسي الامارة لتنحيته عنها مرة بعد اخرى بغية ترويضه والاستزادة من تقدماته ، على ما سنبينه في فصل آخر .

وفي عهد هذا الأمير حمل ابراهيم باشا المصري على سوريا واحتلها سنة ١٨٣٣ وعهد اليه ببعض الخدمات العسكرية والادارية ، ولكن جلاء المصريين عنها سنة ١٨٣٩ جعل الأمير بشيرا يسرع الى صيدا ، ويسلم نفسه الى مندوب السلطنة خليل باشا . وكان ما كان بعد ذلك من نفيه الى جزيرة مالطة ، ثم انتقاله الى استامبول حيث توفي سنة ١٨٥٠ . وقد خلفه على الامارة الأمير بشير قاسم ملحم شهاب سنة ١٨٤٠ ، ولكن الفتن الطائفية التي وقعت في عهده بين النصارى والدروز سولت لنفس استامبول ان تحكم لبنان مباشرة ، فنحته عن منصبه ، وبعزله انتهت ولاية الأمراء الشهابيين . اما في لبنان الشمالي التابع لايالة طرابلس فقد كان باشاوات هذه المدينة قد عهدوا الى المشائخ آل حمادة الجعفريين جباية الجزية والضرائب من مقدمي النصارى اصحاب الاقطاعات على جبة بشراي وجبيل والبترون . بيد ان الحماديين تجاوزوا هذه المهمة الى بسط سلطتهم المباشرة على هذه الاقطاعات ، وعلى الضنية ، واستأثروا بكل مرافقها في ابان ما كانت السلطنة العثمانية مشتبكة مع الدول الأوروبية بحروب متصلة . ولدي بين محفوظاتي من الوثائق التاريخية



وسالة البطريرك يعقوب عواد الى الشيخ نوفل الخازن قنصل فرنسا في بيروت
موقعة بالسريانية يعقوب بطريرك انطاكيه

الرسالة نفسها التي ارسلها البطريرك يعقوب داوود عواد الى الشيخ نوفل الخازن الذي كان قنصلا لفرنسا في بيروت • وهي تدل على مقدار ما ادرك آ لحمادة من الجاه والنفوذ في تلك الفترة بلغ حداً جعل بطاركة الموارنة يرجعون اليهم في شؤونهم الخاصة •

ففي عهد البطريرك عواد المشار اليه وقعت فرقة بين احبار الطائفة ادت الى خلعه ، ولكن البابا في رومة ايده وامر باعادته ، وظل قائما على الكرسي البطريركي حتى سنة ١٧٣٣ حين خلفه البطريرك يوسف الخازن•

وفي غضـون هذه الفرقة الطائفيـة ارسل البطريرك يعقوب عواد الرسالة التي اشرنا اليها الى الشيخ الخازني يشكو فيها المطران جبرائيل الهذياني وأهل اهدن ، ويتوسطه للكتابة الى زعيم آل حمادة وقتئذ ان يرد عنه عدوانهم • وجاء في هذه الرسالة ما نصه :

« في حال وصول البريد اليكم تحرروا ورقة منكم للشيخ ابو محمد عيسى وتعرفوه خاطركم بهذا الخصوص • وانه يرد ها الناس عنا • وانه لولا خاطره ما كنتم جبتونا الى قنوبين «الديمان» • ولا يغيّر قراره معكم لأن بغير ناموسه وحمايته ما نقـدر نستقيم • واولاد الحـلال كتار • واذكروا لـه ان يعرف خاطره للمطران جبرائيل وغيره ماجا • والا مثل ما جبتونا ، ان ما نوسنا ، والا تجوا تأخذونا • وتكون ورقة مشددة »• هذا ويروي المؤرخون ان آل حمـادة طغوا وتجبروا وبغوا ، وارتكبوا اعمال عنف وجور اثارت نقمة السلطنة عليهم ، وان باشا طرابلس استعان عليهم بالأمـير يوسف ملحم شهاب « ١٧٧٠ ــ ١٧٨٨ » ، والمشائخ آل الخازن حتى تمكن من اجلائهم عـن جبة بشري وجبيل والبترون الـى الهرمل • وأن الأمير يوسف احـل محلهم في الحكم آل الضاهر في جبة بشري وآل الدويهي في اهدن ، وبني عـواد وغيرهم في حصرون وعين طورين وآل الدحداح في بلاد جبيل والبترون ، وبذلك اعـاد الى تلك

المنطقة وجهها المسيحي •

والواقع فان الأسباب الحقيقية لاجلاء المشائخ آل حمادة عن هذه المنطقة لم تكن ترجع على الأكثر الى جورهم وعسفهم ، وانما كانت تعود الى اسباب اخرى داخلية وخارجية : فالداخلية تعود الى سياسة آل عثمان • ومدارها انهم كانوا يريدون تخضيد شوكة كل اسرة يبدو خطرها • فهم قضوا على آل عساف بآل سيفا ، وعلى آل سيفا بآل معن ، وعلى مقدمي النصارى بآل حمادة • ولما استفحل أمر هؤلاء ابان ما كانت فرنسا ، ومن ورائها الفاتيكان تريد اعادة الحكم للموارنة على تلك البلاد استجابت استامبول لباريس • وكان لا بد لها ان تستجيب لأنها كانت بعد الانكسارات المتوالية في آخر القرن السابع عشر وفي القرن الثامن عشر وذلك في الحروب المتصلة بينها وبين دول التحالف المقدس من وجهة، وبينها وبين النمسا روسيا من جهة اخرى، كانت لا ترى بدا من الارتماء في احضان باريس التي تظاهرت بمساعدتها ، ولا ترى مناصا في التالي من الاصغاء لنصائحها ، وتحقيق رغباتها • واما الأسباب الخارجية للقضاء على بني حمادة فكانت تعود الى سياسة فرنسا وقتئذ بالاتفاق مع الكرسي الرسولي التي كان مدارها كسب لبنان بتحويله الى الحظيرة المسيحية ابتداء من امرائه ليكون مركزا استراتيجيا لحملة صليبية جديدة يراد بها استرداد البلاد المقدسة ، على ما سنبنيه في فصل آت • وكان يشجعهم على المضي في هذه السياسة نجاح مبشريهم وانصارهم من الأحبار اللبنانيين في تنصير اولاد الأمير ملحم حيدر شهاب فضلا عن الأميرة سحر الندى ارملة الأمير بشير بن حسن شهاب وهو اول الامراء الشهابيين في الحكم على لبنان •

ومن هنا نرجح ان اجلاء آل حمادة عن مقاطعتهم في شمالي لبنان ، التي كان يتولاها المقدمون الموارنة ، لم يكن يعود الى الجور والعنف

اللذين بالغـوا في نسبتهما اليهم ، وانما كـان يرجـع الى رغبة فرنسا والفاتيكان في تبديل الوضع ، والى تأييدهما ابنهما البـار الأمير يوسف ملحم شهاب حاكم لبنان « ١٧٧٠ ــ ١٧٨٨ » الذي كـان ينفذ بأخلاص سياستهما التقليدية • يؤيد ذلك ما جاء في كتاب السفير نجيب الدحداح « تطور لبنان التاريخي (١) » حيث اشار في الصفحة ١٨٠ الى ان هـذا الأمير كان يتوسط بطريرك الموارنـة بلبنـان لدى الكرسي الرسولي للحصول على رعايته ورضائه •

نقول هذا لا دفاعا عن بني حمادة ، وانما بغية تصحيح ما التوى من التاريخ • وما أكثر ما في تاريخ وطننا العزيز من التواءآت بفعل تضارب الأهواء •

وقد اصبحنا على يقين فيما نقول حينما قرأنا عبارة جاءت عرضا في مقال الأب بطرس الطياح المنشور في مجلة اوراق لبنانيـة في « اب سنة ١٩٥٧ » ص ٣٤٢ وهي :

« ثم عرض السمعاني على الكرسي الرسولي مشروع تحرير شمالي لبنان من ضغط الحماديين الذين استولوا علـى المقاطعة سنة ١٦٥٣ » • وهذا القول المنسوب الى وثيقة وجدت في ارشيف مجمع نشر الايمـان بروما تدل بصراحة على ان اجلاء آل حمادة عن الأقطاع الشمالي كانت نتيجة لمؤامرة عليهم دبرت في الداخل واستعانت بقوى خارجية على اقناع الباب العالي من اجل تنفيذها • وقد قـام المتولي على طرابلس والأمير يوسف المشار اليه في تنفيذ اوامر المتبوع بدار السعادة فخامتلو أفندم دون ان يعرف باشا طرابلس وباشا استامبول شيئا عن هذه المؤامرة التي كانمدارها التمهيد لاجلاء كافةشيعة آل حمادة واحزابهم المنتشرين وقتئذ من طرابلس الى جونية على مقربة من بيروت عن تلك المنطقة بغية اضفاء لون جديد عليها •

Evolution Historique du Liban - 1

لبنان في فترة الانتقال خلال عهد الاقطاع

أولت سلطنة آل عثمان الأسرة الشهابية الثقة ووسعت رقعة امارتها اذ آنست فيها الاخلاص والحرص على جباية الأموال ، واطلقت يدها في قتال امراء البلاد الآخرين الذين كانوا يخرجون عليها ، كالمشائخ الزيادنة في فلسطين ، ومشائخ بني الصغير ، وآل منكر ، وصعب في جنوبي لبنان الحالي ، والأمراء الحرافشة في البقاع ، والمشائخ آل حمادة في شمالي لبنان • وكان الباب العالي يمد الأمراء الشهابيين بالمال والجند لمجابهة هذه الانتفاضات • ولكن تواطؤ الأمير بشير المعروف بالكبير مع اعدائها نزع الثقة من هذه الأسرة ، ومع ذلك فلما استعادت السلطنة سوريا من المصريين فانها ، مسايرة للأوضاع الداخلية ، نصبت الأمير بشير قاسم ملحم شهاب خلفا للأمير المشار اليه ، ولكن الفتن الطائفية التي نشبت في عهده بين الدروز والنصارى نتيجة للصراع الدولي وقتئذ حملت الدولة على ان تفكر في حكم لبنان حكما مباشرا •

وقد علل الدكتور مشاقة في كتابه (مشهد عيان) اسباب هذه الفتن من الناحية الداخلية بقوله : « وشرعت (أي الدولة) في تحصيل الخراج من الأهالي ، كما كانوا يدفعون الى الأمير بشير المالطي • فالدروز لم يعترضوا على مطاليبها • انما النصارى اعترضوا ، وشفعوا اعتراضاتهم بالبراهين المعقولة ، واخذوا يعقدون الجلسات خصوصا اهالي كسروان ومن جاورهم ، وأكثروا من الشكوى ، وادعوا الفقر والعوز ، وقحل الأرض ، واستشهدوا بفقراء لبنان المنتشرين بمدن سورية وقراها • وان

ثلاثة ارباع الأراضي بملك المشائخ والأمراء والاديرة ، وتسعون بالمائة من هـذه الأملاك معفى مـن الخراج • وبلغت القحة والجهالة بهم الى تهديد الدولة بالعصيان » الى ان يقول : « واصبحت الدولة بعد مجاهرتهم علنا بعزمهم على شق عصا الطاعة عليها لا تأمن جانبهم ، وخصوصا بعد تصريحهم بأنهم ينتمون الى دولة أجنبية اذا لم تأخـذ بيدهم علـى رفع الجزية عنهم » •

وحينئذ رأت الدولة ان تستغل تلك الفتن الطائفية في تحقيق ما كانت تفكر فيه ، فعزلت الأمير الشهابي المشار اليه ونصبت مكانه مصطفى عمر باشا النمساوي • ولكن احتجاج سفراء الدول باستامبول للسلطات على هذا التبديل ، في حين ان الباب العالي كان يصر على ابعاد آل شهاب عن امارة الجبل ، أفضى الى حل جديد اقترحه اسعد باشا ، الذي عهد اليه بمنصب ولاية صيدا (١) ، وكـان مداره قسمة لبنان الى قائمقاميتين : قائمقامية النصارى ، وقد ولي عليها اثنـان مـن امراء آل أبي اللمع ، وقائمقامية الدروز ، وقد ولي عليها ثلاثة من امراء آل ارسلان • وكانت بيروت مرجع هاتين القائمقاميتين على ان تكـون قرية دير القمر في عهدة احد باشاوات العثمانيين • ولكن هذا التقسيم الذي كرس الطائفية كان ، بالاضافة الى الدسائس الخارجية ، سببا لوقـوع ثورات طائفية بـين النصارى والدروز خـلال سـنين ١٨٤٣ و ١٨٤٤ و ١٨٦٠ ، وكـانت الأخيرة أعظمها فسمحت لفرنسا بسوق حملة عسكرية الى سوريا باسم الدول الأوروبيـة • وجعلت فرنسا وانكلترا والنمسا وروسيا وبروسيا توفد كل واحدة منها مندوبا عنها الى بـيروت • وهكذا اصبحت قضية لبنان قضية دولية •

---

(١) وقيل ان هـذا الاقتراح هو لمترنيخ رئيس حكومـة النمسا الذي لعب دورا كبيرا في سياسة عصره •

وقد والى هؤلاء المندوبون اجتماعاتهم في بيروت برياسة الصدر الأعظم فؤاد باشا الذي ارسله اليهـا السلطان عبد الحميد معتمداً فوق العـادة ، وانتهت هـذه الاجتماعات بوضع نظـام جديـد للبنان سنة ١٣٧٧ هـ = ١٨٦١ م قضى على عهد الاقطاع ، وصدرت به الارادة السنية في سنة ١٨٦٣ . ثم تعدل هذا النظام في سنة ١٨٦٤ باشتراك دولة ايطاليا في المشاورات .

عهد المتصرفية الممتازة

ان هذا النظام الجديد وان لم ينتزع لبنان كليا من جهاز السلطنة العثمانية لأن المتصرف حاكمه ظل ينصب من قبل الباب العالي ، ويرجع اليه في الأمـور المهمة فضلا عن استمرار حق الدولة في الاشراف علـى المتصرف ، الا انه مع ذلك منح الدول الأوروبية حق الموافقة على الحاكم الذي يختاره الباب العالي ، كما منحها حق المساهمة في الاشراف علـى تطبيق النظام .

ويلخص هذا النظـام بأن يتولى حكم جبل لبنان متصرف مسيحي من غير أهله يعاونه مجلس ادارة مؤلف من اثني عشر عضوا من طوائفه على اساس المساواة .

وقد توالى علـى حكم لبنان وفقا لهذا النظـام ثمانية متصرفين ، اولهـم داوود باشا « ١٨٦١ ــ ١٨٦٨ » وآخرهـم اوهانس قيومجيان باشا « ١٩١٢ ــ ١٩١٥ » . ولكن لما نشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، وظن الأتراك ان عاقبة الحرب مؤمنة لهـم ولحلفائهم ، وضعوا يدهم على جهاز الحكم في لبنان ، ونصبوا على التوالي ثلاثة متصرفـين منهم ، وذلك سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩١٧ . وكان آخرهم ممتاز بك الذي غادر البلاد في ٣٠ أيلول ١٩١٨ . على ان هؤلاء المتصرفين كانوا يتظاهرون بمراعاة نظـام لبنـان الخاص فلم يجنـدوا ابناءه اسوة بغيرهم ، ولم

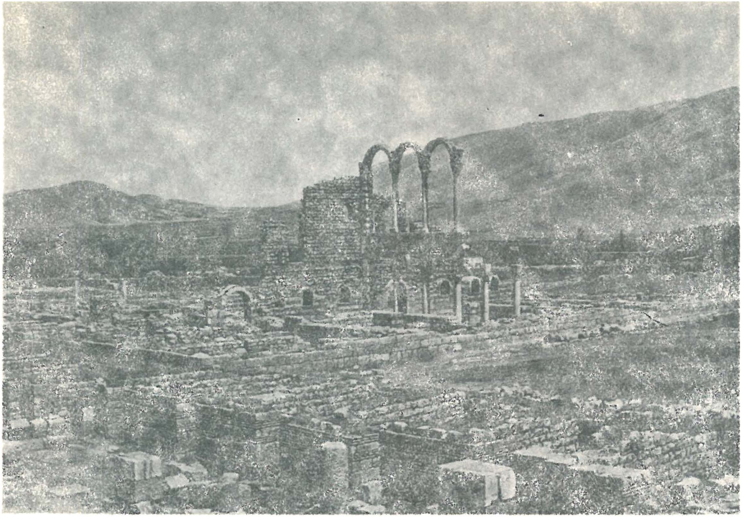
يتعرضوا لتبديل نظـام ضرائبه • ولما انتهت تلك الحرب بفـوز الحلفاء استقبل لبنان عهده الجديد هذا العهد الذي توج بعـد حين بالاستقلال الذي هو موضع الاعتزاز •

وبعد فهذا مجمل تاريخ الوطن في عهد آل عثمان • ويبدو منه جليا ان لبنان كان طوال ذلك العهد جزءا من بـلاد الشام كما كان من قبل ، وانه كان مقسما الى اقطاعات خاضعة في جملتها لسلطة الدولة الحاكمة ، وذلك على الرغم من ان الحكم المباشر فيها كان يعود الى اهلها اسوة بغيره في عالم الاقطاع • ويبدو ايضا ان لبنان لم يتمتع بنظام دولي ممتاز الا في عهد المتصرفية • وحتى في هذا العهد لم يعرف الاستقلال بـل اصبح خاضعا لسلطات اجنبية متعددة بدلا مـن سلطة واحدة ، فضلا عن ان المتصرفين الذين تعاقبوا عليه كانوا من عمال السلطنة •

فاين هذا من تلك الصورة التي يريـد بعض المواطنين الاعزاء ان يرسموها بريشة الخيال وهم يحاولون ان يتخذوا من كل حبة قبة ؟

الفصل الثالث

لبنان والشام صنوان في التاريخ
لبنان وفلسطين أشد عروبة من سواهما



قصر الخليفة هشام بن عبد الملك الاموي في قرية عنجر بلبنان

هل استقل لبنان قبل بلاد العالم ؟

نوه سيادة المطران مبارك بالخطاب الذي ألقاه في ١٠ شباط ١٩٤٤ لمناسبة عيد مار مارون : « بأن لبنان استقل قبل بلاد العالم أي منذ أربعة عشر قرنا حينما لجأ اليه الموارنة هربا من الروم في سوريا » • وعلى الرغم من ان هذا القول يبدو غريبا في نوعه ، لكنه لم يكن غريبا في عهد الانتداب الذي مضى لأن بعض مدارس ذلك العهد ودعاته كانت تبشر بأمثاله • ومن جراء ذلك عشنا زمنا كان الجيل الصاعد فيه من طلاب بعض المدارس يؤمن بأن الأستقلال كان حليف لبنان منذ القدم ، وان أي فاتح من الفاتحين لم يجرؤ على التعرض له • ولو وقف هذا الزعم عند خريجي هذه المدارس والمعاهد لهان الأمر ، ولكنه تجاوزهم الى من هم أكبر منهم سنا ومقاما ، لأنه أمر محبوب : ففي ذلك الحين دعيت الى مأدبة أقامها الرئيس الحاج حسين العويني بداره في احدى المناسبات ، وصادف اني جلست على كرسي الى جانب جورج بك زوين النائب والزعيم اللبناني المعروف • فأخذ يتحدث عن استقلال لبنان منذ القدم ونحن نصغي اليه • ولما استرسل في القول الى حد انه أخذ يؤكد ان احدا من الفاتحين لم يقو على اكتساح لبنان ، لم استطع التزام السكوت ، فانتظرت ، حتى اذا ما انتهى من حديثه سألته اذا كان يقيم في المعاملتين ، وهي قرية قريبة من جونيه ، فأجابني بالايجاب ، وتفضل بدعوتي الى زيارته • فشكرت له لطفه ، وسألته مرة أخرى اذا كان يعرف لماذا سميت تلك الناحية بالمعاملتين، فقال « لا » فأوضحت له السبب • وهو يعود الى ان الجسر القديم القائم في جوار داره كان ، في وقت من الاوقات السالفة ، الحد الفاصل بين معاملتي صيدا وطرابلس ، وان المعاملة كانت في ذلك العهد ، تعني الولاية في عهدنا المتأخر •

وقد ادرك المرحوم جورج بك ما أريد ، ولم يسعه الا التحول عن هذا الموضوع . وقال لي : « ان اسرته هي عربية جاءت لبنان من النجف بالعراق . »

ونحن كلبنانيين مخلصين لوطننا كل الاخلاص ، ومفاخرين به يسرنا كما يسر غيرنا من المواطنين ان يكــون هذا الوطن عريقا في استقلاله ، ولكن هذا السرور لا يسمح لنا بان نخلق تاريخا جديدا على هوانا لان التاريخ فضلا عن انه ليس لنا وحدنا فهو مقدس يفرض علينا وعلى غيرنا ان نحرره من الأهواء .

والواقع ان لبنان لم يكن في يوم من الايام حتى سنة ١٩٤٣ مستقلا استقلالا تاما في المعنى الصحيح للاستقلال . فلبنان بحكم موقعه الجغرافي كان ممرا تارة للفاتحين ، او مستقرا لهــم تارة أخرى ، وذلك في الصراع القديم بين آسيا وافريقيا ، وبين الشرق والغرب ، كما كان عرضة للموجات البشرية التي غمرته وغمرت سائر البلاد السورية على السواء .

وحتى ان الفينيقيين اجدادنا الذين نفاخر بهم عن حق ، اولئك الذين اتخذوا لبنان وطنا لهم ، وانطلقوا منــه الى جوب البحار ، والى اقامــة القواعد التجارية في انحاء البحر المتوسط وعلى شواطىء اسبانيا وغيرها في البحر الأطلنتيكي ، والذين كانوا على اتصال مع امريكا انما كانوا من الكنعانيين الذيــن جاؤا مــن جزيرة العرب الى الساحل السوري بعــد الأموريين ، وانتشرت مدنهم الأولى فيه من جبل قاسيوس « جبل الاقرع اليوم في سوريا » حتى الكرمل بفلسطين .

ثم كــان لبنان بعــد الفينيقيين جسرا ، او مقرا لكــل منتصر ابان الحروب التي وقعت بــين المصريين وبين الاشوريين ، كذلك في الحروب التي توالت بــين الفرس والرومان ، ثــم بين الفرس وكل مــن المصريين والبيزنطيين وذلك قبــل ان يدخل في حــوزة العرب والترك في العهــد

الاسلامي ، ويصبح تارة تابعا لدمشق ، وتارة تابعا لعكا وصيدا •

يضاف الى ذلك ان لبنان لم يتمتع بالاستقلال التام الحقيقي قبل سنة ١٩٤٣ لانه في الخمسين سنة تقريبا التي قضاها في عهد المتصرفين لم يكن في الحقيقة مستقلا • أجل فعلى الرغم من بروتوكول ١٨٦٣ الذي منحه الاستقلال الجزئي عن سلطنة آل عثمان ، وجعله تحت اشرافها واشراف الدول الكبرى فان استقلاله هذا كان اسميا لان اكثر المتصرفين ، وهم من رعايا هذه السلطنة ، كانوا يتسابقون الى كسب رضاها بالتنقيص تدريجيا من استقلاله ومن حدوده • هذا فضلا عن ان استقلاله هذا لم يلبث ان تعرض للزوال في الحرب العالمية الاولى • وهذا ما حدا باميل الخوري لان يقول في مقدمة كتاب الرئيس بشارة الخوري « حقائق لبنانية » « لبنان لم يلج باب الاستقلال قبل سنة ١٩٤٣ بمعناه الاوسع ولم يستكمل اسباب السيادة الا في العام الثاني • »

ويضاف الى ذلك ايضا ان اسم لبنان لم يكن له وجود في معجم السياسة على الاطلاق قبل بروتوكول عام ١٨٦٣ وذلك في حيز الاستقلال• ولم يأت ذكره على هذا الوجه لا في الكتب التاريخية العربية ولا الاجنبية، ولا في المراسيم الرسمية « فرمانات » • وحتى في غضون امارة بشير الثاني المعروف بالكبير كانت امارته تعرف في البداية بامارة جبل الدروز التابعة لأيالة صيدا ثم لم يلقب هذا الامير بحاكم لبنان بعد ذلك ، وانما اطلق عليه لقب امير جبل الشوف وكسروان • وهذا صك الوقف الذي بين ايدينا : وقف قصر بيت الدين فهو انما يلقب واقفه الامير بشير المشار اليه بامير الشوف التابع لصيدا المحروسة • وكذلك كانت تلك الامارة في عهد آل معن تسمى تارة امارة اشواف صيدا ، واخرى شوف صيدا •

هذا من الناحية السياسية ، واما من الناحية الاجتماعية فان تواريخ

العالم لم يذكر أحد منها في عداد اسماء الحضارات الشرقية القديمة حضارة لبنانية ، وانما حينما قسمت هذه الحضارات الى سورية ومصرية واشورية اعتبرت ان الحضارة السورية ، التي هي والحضارة المصرية بمثابة الاصل للحضارة الاغريقية ، تشمل اقليم لبنان علـى اعتباره جزءا من سوريا • وعلى هذا الاعتبار فان مشاهير العلماء الذيـن ولدوا في هذا الاقليم ، ومشاهير العواهل من ابنائه الذين حكموا سوريا ، او حكموا في روما وغيرها وردت اسماؤهم في تلك التواريخ علـى انهم سوريون لا غير • والى عهد الانتداب الفرنسي كـانت بيروت عاصمة لبنان الان ، مدينة سورية في واقعهـا ، وفي عرف النـاس جميعا ، وظلت العناوين التجارية وغيرهـا علـى اوراق المراسلات والمعاملات ، وعلـى الصكوك المالية « شيكات » ، حتى في اوائل عهـد الانتداب ، تطبـع هكذا : بيروت سوريا • وكذلك في الحقل الثقافي فان لبنان كان يدخل في الكلام عـن سوريـا • ولما اراد Urquart David التحدث عنه في كتاب لـه صدر بلندن سنة ١٨٦٠ بعنوان the Lebanon mount Syria a history a diary لم يسعه الا التعريف به بين هلالين على انه جبل سوري •

ويقال مثل ذلك عن الآثـار القديمة التي اكتشفها المنقبون في لبنان وسواه • ولنأخذ مثالا على ذلك النقش الذي وجدوه على ضريح الفرعون حتم الثاني الذي يشير الى مجيء قوم سوريين الى مصر من مدينة جبيل • فهذا النقش يذكر : « وصول جماعة سوريين من مدينة بيبلوس كان عددهم ٣٧ ، وعلى وجوههم تبدو السحنة السورية • »

لذلك كـان علينا نحن اللبنانيين ان نعدل عن المفـاخرة باستقلال اقليمي مزعوم قديـم ، وان نعزف عـن المباهاة بكل شيء يتعلق بالقوة العسكرية لأنا اصحاب بلد صغير في مساحته ، قليل في عدد سكانه ، وطن وان انجب الافراد الافذاذ فلا يترقب منه ان يمثل دورا هاما في السياسة

العالمية • واذا شئنا الاعتزاز بوطننا القديم فامامنا ماض شريف باهر : ماضي سورية معلمة اليونان • وامامنا ماض آخر هو الماضي العربي العظيم الذي تعتز به الشعوب الشقيقة هذه الشعوب التي لا تزال تربطنا بها المصالح الاقتصادية والسياسية ، والتي تحيط بنا ، وتفيد من نشاطنا وتقدمنا ، كما نجني اطيب الثمرات من جوارها ، ومن بترولها •

واذا شئنا الاعتزاز ايضا فأمامنا حاضر مجيد جدير بالاعتزاز والفخار ، امامنا النشاط اللبناني الفز في الوطن والمهجر ابتداء من الفينيقيين فالرومان الى الان ، وذلك في التجارة والثقافة والوساطة بين الشرق والغرب • وامامنا مجال واسع للمباهاة بما كان لنا من الايادي البيضاء على بعث النهضة العربية الحديثة وبما لنا الان من الفضل في رفع علمها •

وفوق هذا وذاك فامام اللبنانيين المفخرة الكبرى : مفخرة الوثبة الجبارة التي وثبوها في عهد الاستقلال مذ اطلقت الحرية العنان لمواهبهم فاذا بلدهم الصغير في حجمه ، القليل في عدد سكانه ، الفقير في موارده الطبيعية ، يمشي بعد عشرين سنة قضاها في النضال في مصاف الدول الكبرى ، وينال اعجابها •

تداول الفاتحين على لبنان

لم أر في التاريخ جبلا نال شهرة واسعة منذ القدم مثل جبل لبنان فقد ورد ذكره في الآثار القديمة البابلية والهروغليفية ، وفي اسفار التوراة (١) ، وعلى ألسن الشعراء . وكان كلما ذكر هذا الاسم يأتي معطرا حتى قيل ان اسمه مشتق من اللبان لما يفوح منه من الروائح المعطرة التي تنشرها اشجاره الصنوبرية وازاهيره الزكية .

والواقع فان شهرته تعود الى مفاتنه الطبيعية ، وذكرياته المدنية والدينية ، وخصوصا الى مركزه الجغرافي بين آسيا واوروبا . فهو مع ساحله كان ولا يزال جسرا بين الشرق والغرب يتخذه التجار محطة لتبادل البضائع بينهما ، كما يجتازه الفاتحون في طريقهم من قارة الى اخرى . وبحكم هذا المركز الاستراتيجي كان لبنان كالغادة الحسناء يستهوي الغزاة من القارتين ، فما ان يهم احدهم بالآخر حتى يضم اليه هذا البلد ، ويتخذه منطلقا الى محط آماله .

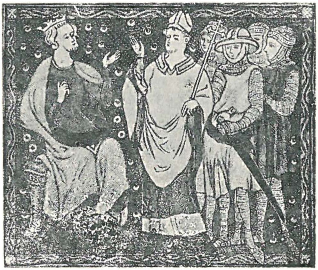
لذلك فان لبنان لم يعرف الاستقلال التام في التاريخ . وحتى في عهد الفينيقيين فقد كان مقسما بين دويلاتهم المتعددة ، ولم يعرف من بعد كدولة بحيث يستطيع المؤرخ تدوين اخباره بمعزل عن القطر الذي كان يطلق عليه اسم الشام ، ثم اصبح معروفا باسم سوريا .

فقد تداول عليه تباعا المصريون ، والفلسطينيون ، والاشوريون

---

(١) ولقد ورد في كتاب الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة لابن شداد المتوفي سنة ٦٨٤ هـ احاديث كثيرة تنوه بمكانة لبنان في الاسلام وذلك في الصفحتين ٣٥ و ٣٦ .

والفرس واليونان والبيزنطيون ، واتخذوه تارة ممرا لهم ، وتارة مستقرا ٠ ولكثرة الفاتحين والمتخلفين منهم في رحـابه أصبح اللبنانيون خليطا من شعوب متعددة شرقية وغربية ، يتكلمـون بلغات كثيرة ، واذا تخاطبوا بلغة الدولة القائمة فانما يتخاطبون بلهجات تختلف باختـلاف اقاليمهم ٠ على ان هذا الاختلاط بالدم كان له من جهة اخرى فوائد لهـم اذ صقل مواهبهم ، ونور اذهانهم ، فكانوا في كل وقت من حملة مشعل الثقافة ، ومن الناجحين في ميدان التجارة ٠



جنود ريشار قلب الاسد ابان الحروب الصليبية

لبنان ايـام زمان

في الناحية الادارية

لما أعلـن الجنرال غورو لبنان الكبير سنة ١٩٢٠ حدد تخومه على الوجه التالي :

شمالا : مصب النهر الكبير • وشرقا خط القمة الفاصل بين وادي خالد ووادي نهر العاصي • وهـذا الخط يشمـل حدود قضاء بعلبـك الشمالية ، وحدود اقضية بعلبك والبقـاع وحاصبيا وراشيا الشرقية • وجنوبا حدود قضائي صور ومرجعيون • وغربا البحر المتوسط • وهذه الحدود لا تزال حدود لبنان في عهد الاستقلال على ما جاء في البند الاول من دستور الجمهورية •

واما قبل ذلك ، سواء اكـان في العصـور الاقطاعية ، ام في عهد المتصرفية الممتازة ، فلم يكن لبنان على هذا الاتساع • وانما كـان قبل المتصرفية مجزأ الى اقاليم • ويعرف كل جزء منـه باسم اقليمه ، وكانت اقاليمه في جملتها مقسمة الى قسمين • الجنوبية منها وكانت على الاكثر من اعمال جند الاردن ، والشمالية كانت من اعمال دمشق • واما في اواخر عهد السلطنة العثمانية فكانت حاصبيا وراشيا وبعلبك وملحقاتها في البقاع تابعة لولاية دمشق بينما كانت طرابلس وصور وصيدا وملحقاتها تابعـة لولاية بيروت ، التي كانت مساحتها تمتد من حدود متصرفية القدس في الجنوب الى حدود متصرفية الاسكندرونة في الشمال •

وكان الفرنسيون قد اتخذوا بيروت عاصمة للبنان خلال الانتداب ،

وجعلوها مقرا لمفوضهم السامي وللدوائر الرسمية فاصبحت بذلك قاعدة لسوريا ولبنان ومرجعا لكل منهما • ولما نعم اللبنانيون بالاستقلال التام كان من الطبيعي ان يتخذوا هذه المدينة عاصمة لجمهوريتهم • وقد ادركت في عهد الاستقلال نصيبا كبيرا مـن الازدهـار في الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية حتى اصبحت درة البلاد العربية والشرقية بعد ان كانت تعرف منذ اواسط القرن ١٩ بدرة السلطنة العثمانية •

هذا مجمل الوضع الاداري بلبنان في التاريخ حتى اليوم • ولا بد لنا بعد هذا الاجمال من ان نتناول هذا الوضع بالتفصيل فنقول •

لما فتح العرب بلاد الشام في خلافة عمر بن الخطاب اقاموا الحكم فيها على أسس عسكرية : جند فلسطين ، وجند الاردن ، وجند دمشق ، وجند حمص • ثم زادوا عليها في خلافة يزيد بن معاويـة جند قنسرين ، ولكن هذا التقسيم لم يلبث الا قليلا حتى تحور والحقت قنسرين بحمص• وكانت هذه الاجناد تعرف بالاقاليم او الكور •

وقد عد ابن خردازبه والاصطخري لبنان في عداد كورة دمشق • واما صالح بن يحيى الذي تحدث في تاريخه عـن بيروت وما حولها في القرون الثلاثة التي سبقت الحروب الصليبية ، فقد قال : « وكان الذي يقوى على دمشق يملك على السواحل » •

ثم لما فتح السلطان ياوز سليم العثماني بـلاد الشام ومصر جرى مجرى اسلافه في الحاق جبل لبنان الى بكلربكي « أمير الأمراء » دمشق اي حاكمها العسكري • وكانت امارة آل معن على بـلاد الشوف يطلق عليها امارة شوف صيدا على ما روى كل من ابن سباط والدويهي • ثم لما قسم خلفاؤه سوريا الـى ايالات « اي ولايات » دخل لبنان بجباله وسواحله في ايالة صيدا • ولما اقاموا في طرابلس ايالة أخرى الحقوا بها لبنان الشمالي • ويقول ابن رسته « صفحة ٢٠٧ » في صدد هذا الالحاق

ما يــلي :

« فقــد عرف القسم الجنوبي منه بلبنـــان صيدا ، وعرف القسم الشمالي منه بلبنان طرابلس • » وكانت بــلاد الموارنة والنصيرية « اي اقليم العلويين الذي الحقه عهد الانتداب بسوريا » تابعة لأيالة طرابلس فأعادها آل عثمان الــى ما كانت عليه • » وقــد أكد كتاب أعيان لبنان المطبوع سنة ١٨٥٩ هذا التقسيم الاداري الذي جرى خــلال عهد آل عثمان بلبنان • والجدير بالذكر ان هــذه الايالات كانت في اكثر ايــام السلطنة العثمانية تؤجر ، كما تؤجر المزارع الــى المستثمر الذي يؤدي للخزنة شروطا افضل من سواه ، فمنذ عهد السلطان سليمان القانوني سنة «١٥٢٠ ــ ١٥٦٦ م» جرتالسلطنة على هذهالطريقة وكانللتزم الايالةالحق في تلزيم الاقطاعات على هواه • وقد استمر ذلك حتى عهد محمود الثاني سنة « ١٨٠٨ ــ ١٨٣٩ » ولكن هذا السلطان عدل عن هذا الاسلوب ، واقام جهازا للدولة جديدا على اساس افضل ، وذلك بعــد ان تسنى له القضاء على منظمة الانكشارية • ويقول أوسون Ohsson انه كان في بداية عهد السلطان محمود الثاني اثنا وعشرون لواء ملزمة مدى الحياة ، وكان الملتزمون من ناحيتهم يتاجرون بها فيلزمونها على هواهم • كما انه كان في ذلك الوقت ثلاث ايالات يلتزمها الباشوات الذيــن اتيح لهم ان يستولوا عليها • »

وحسبنا أن نعرف ان الملتزم وقتئذ ، سواء أكان التزامه من السلطنة مباشرة ، او مــن ملتزم الايالة ، كــان تاجرا سياسيا حتى نعلم مقــدار الاستغلال الذي كان يجري في ذلك الوقت ، وبالتالي مقدار المظالم التي سودت صفحات آل عثمــان • فهو اي الملتزم كــان يستثمر جهد طاقته اقطاعه ، ولا سيما في اواخر ايامه حيث كان يعتبر كل داخل عليه كسبا •

وكان لبنان وقتئذ الذي يجري مجرى اوروبا وغيرها في ممارسة

الحكم الاقطاعي (١) مقسما من اوله الى آخره الى اقطاعات موزعة على الامراء والمقدمين والمشائخ • وعلى رأس هذه الاقطاعات كان يقوم تارة امير للمنطقة ، وتارة امير للمناطق كان يؤدي جعلا لصاحب الايالة ولي أمره ، ويسعى مثله لتأمين هذا الجعل واكثر • وكان أصحاب المقاطعات اللبنانيون الذين يؤدون الضرائب المفروضة على أقطاعاتهم للامير الملتزم ، يحكمون مثله على هواهم ، ولا يتورع اكثرهم عن معاملة رعاياه معاملة البهائم • وكانوا يسمونهم بلبنان مقاطعجية •

وبقي الحال على هذا المنوال الى ان عدلت تركيا ، في عهد السلطان محمود المشار اليه ، عن نظام الحكم القديم فأصاب لبنان بعض ما أصاب غيره من أجزاء السلطنة من تبديل في اساليب الحكم على ما هو مدون في التاريخ • ومع ذلك فان اكثر ما نسميه لبنان الان كان ملحقا بأيالة عكا أو صيدا ، وكان الحاكم يعتبر ملتزما ، واذا نصب توجه اليه خلع الالتزام على تعبيرهم •

والذي يؤسف له ، ان اسم لبنان ، في العهد البائد لم يكن له وجود في المعاملات الرسمية، ولا يستثنى من ذلك عهدي كل من الامير فخر الدين المعني الثاني ، والامير بشير شهاب المسمى بالكبير : الاميرين اللذين اراد أصحاب القومية اللبنانية المستقلة عن العروبة ابرازها كرمز لاستقلال لبنان وبطولته • وعلى الرغم من ان الامير الشهابي عاصر السلطان محمود المشار اليه وعاصر اصلاحاته التي جرت في اعقاب صدور ما اسموه بالتنظيمات سنة ١٨٣٩ فان اسم لبنان لم يكن له وجود في التنظيمات الجديدة •

أ ـ فاذا قرأت كتاب الشيخ احمد بن محمد الخالدي ، وهو من

---

(١) في السنة ١٦٤٩ صدقت روسيا على قوانين المجلس التي جعلت الفلاحين ملكا لاصحاب الاقطاعات . فاصبح الفلاحون يتنقلون من اقطاعي الى آخر بالوراثة ، أو ببيع الاقطاع .

منشورات مديرية المعارف اللبنانية بعنوان « لبنان في عهد الامير فخرالدين الثاني » ، اذا قرأت هذا الكتاب من اوله الى آخره لا تجد كلمة واحدة اسمها لبنان • وانما قد عثرنا في ذيل احدى طبعاته على كلمة لبنان تفيد ان الكتاب نقل سنة ١٩١٣ • بينما ان ناقلا آخر سابقا لهذا التاريخ اتتسب لدير القمر قال : « انها تابعة صيدا المحروسة « صفحة ٢٠٧ » •

ب ــ وبين ايدينا ايضا كتاب الامير حيدر احمد شهاب من منشورات مديرية المعارف المشار اليهـا التي اطلقت عليـه اسم « لبنـان في عهد الشهابيين » • فاذا ما دققت فيه تلاحظ امرين : اولهما ان مؤلف الكتاب كان يلقب الامير بشير الشهابي بلقب امير جبل الدروز ، ومن اقواله (١) : « في هذه السنة « ١٨١٠ م » انعطف خاطر سليمان باشا « متولي صيدا » على الامير بشير بانه يكون حاكما على جبل الدروز » صفحة « ٥٥٢ »(٢) « حضرت (١٨١٣) خلع الالتزام على حكم جبل الدروز حسب المعتاد منذ سنة ١٨٢٣ » • على ان هذا الكتاب وان ورد فيه اسم لبنان في بعض المناسبات ، الا ان وروده كان نادرا جدا ، بينما ان المخاطبات الرسمية للامير بشير كانت توجه اليـه على اعتبار انـه قاطن ايالة صيدا وتابع لوزيرها •

ج ــ وقد جاء في كتاب الامير احمد حيدر شهاب المشار اليه : « لما توفي الجزار وجه السلطان خطا شريفا الى الايالات واصحاب الاقطاعات ، وفي جملتهم الامير بشير الشهابي الكبير ينبؤهم فيـه صـدور الارادة السنية بنصب الحاج ابراهيم باشا مكانه علـى ايالة صيدا » وقد استهل الخط الشريف الموجـه للامير بشير بالعبارة التاليـة : « قدوة الاماثل والاقران قاطن ايالة صيدا » ثم جاء فيه ما يلي :

« وانت ايها الامير يلزمك ان تكون تحت رأي اوامر الوزير المشار اليه ، وتظهر حسن الخدمة والصداقة • » • صفحة (٤١٤) •

وجاء في الكتاب المذكور ايضا : « ثم حضر خط شريف آخر من السلطَان الى الامير » يخاطبه فيه بساكن جبال ايالة صيدا ، ويأمره فيه « بالسير لاسعاف ابراهيم باشا لفتح عكا ، ويلزمه طاعته » وجاء مع هذا الخط الشريف فرمان الوزير الاعظم وهو يلقب الامير بشيرا « بأمير جبل الدروز حالا » وهذا اللقب ورد كذلك في فرمانات ومراسيم اخرى اتى على ذكرها كتاب الامير احمد حيدر شهاب المشار اليه . ومنها (صفحة ٤١٨) مرسوم الصدر الاعظم يوسف ضيا حيث قال :

« صدر مرسومنا المطاع الى زبدة الاماثل والعشائر وعمدة اصحاب الصداقة والمفاخر الامير بشير امير جبل الدروز حالا زيد رشده . » وهو في هذا المرسوم يعتبر الامير بشير زعيم عشيرة على غرار ما هو معروف عند العرب .

على ان تحويرا في القاب حكام لبنان لم يلبث ان ظهر منذ تعيين سليمان باشا واليا على صيدا وعكا ، ويروي الدكتور مشاقه ، الذي اسمى هذا المتولي باسم سليم باشا سهوا ، يروي « ان مدير خزينته حاييم فارحي اشار عليه ان يمنح الالقاب الى امراء الجبل في مخاطبته لهم . » فشرع الباشا يخاطب الامير بشيرا ، ابتداء من سنة ١٨١٠ ، بامير جبل الشوف وكسروان بدلا عن امير جبل الدروز . وجرى مجراه خلفاؤه من الولاة على صيدا دون اي ذكر للبنان الذي كان مقسما الى اجزاء ، ولكل جزء منه ملتزم يرجع الى ايالة صيدا أو ايالة طرابلس .

ويظهر ذلك في الرسم الفوتوغرافي الذي صدروا به الجزء الثالث من كتاب لبنان في عهد الامراء الشهابيين ذلك الكتاب الذي عنيت بنشره ايضا مديرية المعارف ، اذ جاء فيه ، بمناسبة تعيين عبد الله باشا للامير بشير ما نصه : « التزام جبل الشوف وكسروان وتوابعها مدة حياتك ما دامك تراعي الشروط والقوانين المعتادة . »

واذ كان التعيين مشروطا فكان المنصب ، وان جاء فيه احيانا انه « طوال الحياة » كان في الواقع موضوعا في الحراج لمن يزيد ، وخصوصا وان خلعة الالتزام ، كما كانوا يسمونها، كانت تجدد كل عام •

والى هذا فكانت الاصطلاحات العربية الاجتماعية لا تزال متداولة ايضا بالنسبة لاصحاب الاقطاعات يبدو ذلك في الكتاب المذكور الذي جاء فيه : « وحضر ايضا اوامر الى اكابر البلاد من عبد الله باشا وهذه صورتهم مفاخر الامراء والمشائخ الكرام بيت ابي اللمع وبيت رسلان وبيت جنبلاط وبيت عماد وبيت بو نكد وبيت تلحوق وبيت عبد الملك وبيت الخازن ، وسائر حمايل جبل الشوف وكسروان • » ذلك بان كلمة حمايل هي من الاصطلاحات العربية التي لا تزال تستعمل حتى الان بفلسطين •

وفي غضون احتلال نابليون بونابرت مصر ، وزحفه على سوريا جاءت العمارة الانكليزية ورابطت في شرقي البحر المتوسط فكتب قائدها الاميرال سميث سنة ١٧٩٩ م الى امراء وزعماء المقاطعات مخاطبا اياهم (على ما ورد في الصفحة ٣٩٩ من كتاب لبنان في عهد الامراء الشهابيين) هكذا « الى حضرة الامير بشير الشهابي ، والى جميع الامراء في جبل بيت معن ، والى الشيخ بشير جنبلاط وجميع المشائخ والحكام الدروز والنصارى في ذلك الجبل الاعزاء المكرمين • » وهو في ذلك لم يخاطب الامير بشير بامير جبل لبنان •

ويمضي الامير حيدر احمد الشهابي في التحدث عن الامير بشير الشهابي الى ان يقول في الصفحة ٦٩٢ لمناسبة حملة الامير بشير على مشائخ جبة بشري حين تمردوا عن اداء ما طلب منهم لخزينة الدولة مالا اضافيا يقول « حضروا مشائخ الجبة وتراموا على الامير بالصفح عما بدى من اهالي الجبة لان اولئك المشائخ ما كانوا راضين في اظهار تلك العصاوة• فصفح الامير عنهم ، وكتب الى عبدالله باشا والي صيدا فجاءه جواب

ارتياح مرفوقا ببيلوردي للرعايا شديد اللهجة » ، وقد جاء فيه : « هذه الجسارة التي ما سبقت من احد من الرعايا لانكم تعرفون ذاتكم انكم اناس ضعفاء لستم مقتدرين على لقاء البطش والقتال ، ولا قيام لكم الا بالرحمة والشفقة » . الخ

والجدير بالذكر هنا بان لبنان منذ اوائل الحكم العثماني حتى عهد الامير يوسف ملحم شهاب (١٧٧٠ ــ ١٧٨٨) في التخصيص لم يكن له لون طائفي ، بل كان وطنا للجميع حتى ان مقاطعة كسروان وما بعدها من قرى الشمال ، حيث كان يحكم المقدمون النصارى ، كانت آهلة بالمسلمين اسوة بالمسيحيين : فجونية انجبت كثيرا من علماء المسلمين . وقد قال عنهم ياقوت الحموي « ج ٢ ص ٣٣ » : « ان جونية وحدها أخرجت ما ينوف عن مايتي شاعر واديب وراوية من حديث واخبار » ومثلها كانت جبيل . ولا يزال جامعها قائما حتى الان الى جانب قلعتها الاثرية على الرغم من محاولة بعضهم تغطيته عن عيون السياح بما اقاموا حوله من منشآت ذات طابع ديني آخر وذلك في وقت غير بعيد . وقد صليت فيه الجمعة في مطلع القرن العشرين فكان مملوءا بالمصلين من سكان البلدة . واذا رجعت الى صك وقف الامير بشير شهاب الكبير لقصر بيت الدين على زوجته حسن جهان وجدت ان وكيله في صك الوقف كان مصطفى آغا الجبيلي . وهو من اعيان ذلك البلد .

واما جبة بشري ، التي كانت في الماضي الطريق العام ما بين طرابلس العامرة وبين بعلبك فدمشق ، فقد كانت ايضا من قبل حافلة بالمسلمين . وقد نوه ياقوت الحموي بكثير من علمائها وقال :

« ان منها المحدث عبد الله بن ابي الحسن الجبائي « نسبة للجبة » وقد عرف في غربته بالشامي لان الجبة قرية من اعمال طرابلس الشام ، وكانت وفاته سنة ٥٦٥ هـ » ومعنى الجبة قمة الجبل .

وفي رحلة ابن طبيعة البقاعي ، التي يرجع عهدها الى ثلاثة قرون مضت ، ما يؤكد ان بشري نفسها كانت وقتئذ لا تزال تعج بالعلماء والادباء والمدارس والجوامع • وقد تندر ابن طبيعة بنوادرهم الادبية •

وفي اوائل القرن الثامن عشر زار بشري الشيخ عبد الغني النابلسي ونوه بمساجدها واوقافها ، ثم زارها الشيخ احمد صالح الادهمي الطرابلسي المتوفي سنة ١١٥٩ هـ = ١٧٤٦ م بطريقه الى مصر عبر بعلبك ودمشق ، وقال في رحلته التي نشرتها مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، في عداد ما قال : « وتوارد علينا من سائر الاقطار طائفة الحمادية سكان تلك الديار • » ونوه بمساجد بشري وبمن لقي فيها من العلماء والادباء •

لذلك كله انتصبت امام اعيننا علامات الاستفهام ، وتساءلنا : هل حقا ما قاله قائل ان لبنان استقل قبل اي بلد آخر منذ ١٤٠٠ عام ، وانه امتنع عن البيزنطيين وعن كل من جاء بعدهم ؟ ام ان الاصح ما قالته اللجنة التي عهد اليها ، خلال الحرب العالمية الكبرى الاولى ، وضع كتاب تاريخ « لبنان » فقالت في مقدمته : « ان جبل لبنان لم يكن في سالف الاجيال مستقلا في حكمه يتولى اصحابه شؤونه على انفراد • بحيث يستطاع تدوين اخباره بمعزل عما يجاوره من الاقطار » ؟ واذا كان الصحيح هو قول اللجنة المذكورة ان لبنان لم يكن مستقلا في الاجيال الماضية ، فهل كان عهد الانتداب موفقا في اتخاذه من الاميرين فخر الدين المعني وبشير الشهابي شعارا لاستقلال لبنان ؟ والجواب عن هذا السؤال سيأتي في الجزئين التاليين ، وذلك بعد مقدمة تتناول فيها الصراع الطائفي بلبنان نقدمها تمهيدا للموضوع •

العروبة تقضي على غيرها بلبنان

كان لبنان حين الفتح العربي معروفا بتعدد عناصره ، وبالتالي بوفرة الالسن فيه . وذلك نتيجة لتداوله منذ القدم بين ايدي الفاتحين المتعددين ، ولانه بموقفه الجغرافي كان بمثابة رقبة جسر بين الشرق والغرب . لذلك لما تكلم عنه ياقوت الحموي قال : « ان في هذا الجبل سبعين لسانا لا يعرف كل قوم لسان الآخرين الا بترجمان ! »

والواقع فان الدول التي تعاقبت على لبنان قبل العرب قد عجزت عن فرض لغاتها على اهله ، كما عجزت عن صبغه بصبغاتها الخاصة ، ولكنه ما ان دخل في حكم هؤلاء حتى غمرته العروبة تدريجيا باخلاقها وعاداتها وعنعناتها وحتى باحزابها فضلا عن لغتها . فانقسم لبنان الى قيسي والى يمني ، وكان اهم عناصر الحزب القيسي الامراء آل معن ، وآل شهاب ، وآل ابي اللمع . وكان شعارهم العلم الاخضر ، كما كان على رأس الحزب اليمني الامراء آل علم الدين ، وآل ارسلان ، وبنو سيفا التركمان ، والمشائخ آل حماده . وكان شعارهم العلم الابيض .

واكثر من ذلك فان الاصطلاحات العشائرية العربية قد راجت وقتئذ بلبنان ، ومنها عشائر وحمايل ، هذه الاصطلاحات التي كانت معروفة فيه حتى خلال عهد الامير بشير شهاب الكبير اذ كانت المراسيم الرسمية التي تصدر في ايامه توجه الى عشائر وحمايل البلاد على ما تراه في كتاب : « لبنان في عهد الامراء الشهابيين » وهي اصطلاحات لا تزال متداولة حتى الان في فلسطين وشرقي الاردن .

والى ذلك فان العرب استطاعوا ان يجعلوا لغتهم لغة لبنان ، كما

فعلوا في غيره من البلاد الاخرى التي استعصت بلغاتها وبمميزاتها على كل الفاتحين السابقين ، واصبحت اللغة السريانية بلبنان ، وهي التي كانت اوفر اللغات رواجا ، تقتصر على الطقوس الدينية • ثم ظلت اللغة العربية فيه لغة البلد لا يجاريها لسان على الرغم من محاولة آل عثمان ترويج التركية ، وعلى الرغم من محاولات اخرى مماثلة قام بها الاجانب من لاتين وانكلوسكسون وسلاف في العهد العثماني وبعده ، ولا سيما في عهد الانتداب الفرنسي الذي حاول بالدعوة الى اللغة العامية ، ان يقيم للبنان المستقل لسانا مستقلا ايضا عن سائر البلاد العربية •

وهنا تجدر الاشارة الى ما كان للبنانيين انفسهم من الفضل في الحفاظ على لغة الضاد ورواجها ، وعلى رأسهم رجال الدين ، والاشادة بمواقفهم الكثيرة التي كانت تدل على حدبهم على هذه اللغة • ونخص منهم بالتنويه أحبار الطائفة المارونية الذين ساهموا في انتشارها ليس بمدرستهم بروما وبمطبوعاتهم هناك فقط ، بل بمدارسهم بلبنان ، فضلا عن الطقوس الدينية والكتب والمجلات التي اصدروها باللغتين العربية والفرنسية •

وفي هذا الصدد نقل الاستاذ عبد الكريم الدندشي في كتابه العروبة بلبنان (ص ٩١ و ٩٢) قول المطران الدبس في تاريخ سوريا (ج ٨ ص ٥٥٢) وهو « ومما لا شك فيه ان ظهور العلماء في لبنان من الطائفة المارونية بصورة خاصة واهتمامهم بامر اللغة العربية يؤكد اهمية هذه اللغة في لبنان، وانها كانت اللغة الاكثر اهمية والاوسع انتشارا .» ويثبت ذلك ما جاء في عريضة يوسف السمعاني التي رفعها الى البابا كليمنصو الثاني عشر بتاريخ ١٧ ــ ١ ــ ١٧٣٧ عندما ارسل من قبل قداسته لكي يترأس المجمع اللبناني المنعقد في دير مار لويزة • قال « شيعوني من بيروت الى جبل لبنان محفوفا بمظاهر الفرح والاجلال الخارقة العادة بصفة كوني قاصدا من

قبلكم ، وتناولوا بواجب الاحترام المراسيم الحبرية المنفذة اليهم من ذوي النيافة كرادلة الكنيسة المارونية ، وقرئت باللاتينية والعربية » .

وعلق الدندشي على هذه العريضة بقوله : « ويلاحظ هنا انه لم يؤت على ذكر اللغة السريانية بل اللاتينية والعربية . فاللاتينية قرئت بها المراسيم لانها لغة الكنيسة الكاثوليكية الرسمية . وواجب اللياقة يدعو لذلك . اما اللغة العربية فلانها لغة ابناء البلاد . وعدم ذكر اللغة السريانية في هذه الحادثة يدل دلالة واضحة على تضاؤلها يومئذ ، واعتبار اللغة العربية الشائعة الوحيدة في لبنان . »

زد على ذلك انه لما بنى المطران جرجس بنيمين الاهدني مدرسة زغرتا سنة ١٧٣٥ ، وسامها للآباء اليسوعيين ، وعين لها دخلا من ماله الخاص فقد اشترط على اليسوعيين تعليم اللغة العربية . ولا يخفى ما لهذا الشرط من معنى كبير .

كل هذا يشير الى مقدار تأييد اولئك الاحبار الكرام للغة العربية ، كما يشير الى انها اصبحت لغة لبنان الوحيدة . واما النشاط الكبير الذي اظهره ادباء لبنان المسيحيون في حقل رفع راية العروبة عاليا وذلك بالتأليف والصحف والمدارس وبالوساطة الادبية بين الشرق والغرب ، وحتى بين الاقطار العربية ، فهو لا يحتاج الى المزيد من البيان لانه اصبح من المعلومات العامة . وهل يخفى القمر ؟

ولقد تساءلنا بعد هذا : هل يجوز لاحد من ابناء لبنان انكار عروبته بعد ان كان الآباء والاجداد هم حملة اعلامها ؟ او هل يصح لاحدهم ان يقول في ملحق النهار « كانون الثاني ١٩٦٧ » : « كذب من قال ان لبنان عربي ، وكفر من قال انه غير لبناني ... أتتمسكون باللغة ؟ سننفض اللغة ساعة نشاء » لقد تناول الجواب على ذلك الاستاذ عجاج نويهض في كتابه أبو جعفر المنصور ص ٥٣ حيث قال : « اننا اذا جئنا نذكر الموجات

العربية الى لبنان ، وعددنا العرب الذين استقروا هنا اول استقرار بسبب الفتح ، ثم عرب عاملة الجنوب ، ثم عرب الموجات الاربع التي يتكون منها بنو معروف في الوسط على ما بيّنا جاز لنا بعد ذلك ان نقول هذه عروبات لبنان ولا شيء غيرها • ليس هذا هو تاريخ العروبة كله في لبنان فاخواننا الذين من حيث الكنيسة هم الروم الارثوذكس واتخذوا مذهب الكنيسة اليونانية البيزنطية الشرقية فكلهم عرب عروبة من ذكرنا • هم بجملتهم من الغساسنة اليمانية من حوران والشام وسائر بقاع الشام • وفي الاردن اليوم عشائر منها ما دينه الاسلام ومنها ما دينه النصرانية ، ولكنهن في الارومة شيء واحد • وما نقول في عروبة الروم الارثوذكس نقول في الروم الكاثوليك • فهؤلاء يعودون في منبتهم وأرومتهم الى غسان ، وغير غسان من العرب • وكان الفريقان من قبل شيئا واحدا • واخواننا الموارنة فانهم وان عادوا على الجملة الى أرومة أرامية واحدة او متفرقة فأرومتهم بنت عمومة للعروبة • ولا يبعد هذا ولا يقصر ، وكبريات الاسر المارونية التي مارست الوجاهة والتقدم في عهد فخر الدين الى اليوم هي غسانية الاصل • القارىء لم ينس ما ذكرناه في موضع سابق من اشارة الدكتور حتي الى هذا في كتابه لبنان في التاريخ فليراجعه القارىء اذا شاء • وعسى يكون ذلك اليوم قادما الينا في الطريق يوم يشار فيه الى اهالي لبنان بسمات عروباتهم لا بسمات دياناتهم هـ • »

اجل فان بني عاملة في بلاد الشقيف وبشارة ، وآل تنوخ وبحتر ثم آل معن وآل علم الدين وآل شهاب في الاشواف والغرب وحاصبيا وراشيا ، وبني الحمراء في البقاع وبيروت ، وآل تنوخ ايضا في المتن وكسروان ، وامراء رأس نحاش في الكورة ، وآل حمادة في الهرمل وآل حرفوش في البقاع ، والمراعبة في عكار وآل رعد في الضنية هؤلاء بالاضافة الى المقدمين والمشائخ من الاسر المسيحية والاسلامية الذين أتينا على ذكرهم جعلوا لبنان بعشائرهم بلدا عربيا ربما كان اكثر عروبة بالدم من

سائر بلاد الشام لكثرة الذين تقدموا اليه من كل صوب للمرابطة في وجه الاعداء في اوقات متعاقبة • ونحن نرجح هذا على الرغم من ان عبد الكريم الدندشي يقول في كتابه المذكور (ص ٧١) « العروبة في لبنان » « شرق الاردن وفلسطين استوعبتا العدد الاكبر من العنصر العربي ، ومصر العدد الاصغر ، بينما ان سوريا ولبنان والعراق اتخذت طريقا وسطا • » اذ نحن نرى ان هذا الترتيب يحتاج لاعادة نظر •

والواقع ان جاز لاحد ان يجحد عروبة لبنان ، وان يتنكر لهـا فلا يجوز أن يكون ذلك الاحد ابن الدحداح ، وهو من اسرة عربية ، ترجع الى عرب اليمامة ، او ابن الجميل سليـل آل غسان في حوران ، او ابن حبيش من ذرية خالد الصحابي وأمثالهم ذلك بان هذه الاسر قد تكون اعرق في العروبة من آل بيهم ، وآل الداعوق ، وآل سلام •

قد يقول قائل : اذا كانت الاسر التي حكمت لبنان ، واحتلت مراكزه الكبرى عربية فان السواد الاعظم من شعبه كان خليطا من عناصر كثيرة مما يتنافى مع ايراد لبنان في عداد الاقطار العربية • وعلى الرغم من ان هذا القول غير صحيح وان المحققين اثبتوا وبرهنوا على ان العنصر العربي هو اكثر العناصر عددا في لبنان (١) فالجواب عليه : ان العنصرية لا يصح ان تكون اساسا للقومية ، لان اكثر بلاد العالم اصبحت خليطا من عناصر مختلفة بفعل الموجات البشرية التي اكتسحتها منذ تكاثر السكان • لذلك فقد درج الناس في التمدن الحديث علـى اعتبار اللغة السائدة ووحدة

---

(١) تصدى الامير نسيب شهاب بمقـال له صدر في جريـدة الاحرار بتاريخ ١١ تموز ١٩٢٩ لهذا الموضوع فبرهن بالارقام على ان العنصر العربي بلبنان هو اكثر عددا مـن مجموع العناصر الاخرى مجتمعة . ثـم جاء يؤيد ذلـك اكتشـاف المستشرق الفرنسـي سوفاجيه في مدينـة روان المخطوطة العربية المسماة « قواعد الاداب في حفظ الانسـاب » المنقولة سنة ١١١٠ م . وفيها الدليل القاطع على ان معظم العائلات اللبنانية الحاضرة هي مـن اصل عربي صرف (جريدة الحياة في ١٣ اب ١٩٤٨) .

الوطن والامنيات والاماني المشتركة والمصالح اساسا لوحدة الامة •

وقد اشار الــى ذلك الشيخ بيير الجميل رئيس الكتائب اللبنانية بالكتاب المفتوح الذي وجهه الى المجلس النيابي خــلال العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ حيث قال : « ليس بين اللبنانيين من مخلص يرضى التنكر للعروبة وموجباتها ، وليس من يقبل المتاجرة باسمها دون خدمة مصالحها • اذا كانت العروبة هي اللغة المشتركة ، والاهداف المشتركة ، والعاطفة المتبادلة ، والخدمة لتحقيق هدف فبكل اعتزاز أقول ان لبنان اكثر عروبة من سواه • »

وأمامنا ادلة كثيرة على ما اشار اليــه زعيم الكتائب : فشبه جزيرة ايبريا « اسبانيا والبرتغال » كانت عربية حينما صارت تعتمد على اللغة العربية في حضارتها ، وفي دواوينها الرسمية ، وحينما اصبح اللسان العربي هو لسان السواد الاعظم مــن الشعب ، ثم صارت اسبانية وبرتغالية ، اسبانية حيث تعتمد على اللغة الاسبانية ، وبرتغالية حيث تتخاطب باللغة البرتغالية ، بينما ان عناصر هذين البلدين الايباريين تكاد تكون واحدة ، ذلك لانها خليط مــن الرومان والفرنك والغوط والويزيغوط والعرب والبربر • ومثل شبه جزيرة ايبريا في تعــدد العناصر والقوميات الصين ، وجمهورية الاتحاد السوفياتي والهند ، وكذلك اكثر البلاد الاوروبية •

وبعد فاذا كان بعضهم يواخذ الشيخ بيير الجميل ، الذي أقدر له اخلاصه للبنان واحترمه كما كنت ابادل والده الصداقة والاحترام ، يواخذه على تصريحات له اخرى مليئة بالتحفظات بشأن العروبة فاني التمس له العذر لان ذلك يعود الى تقيــده بمقررات الحزب الذي يرئسه ، هذا الحزب المنظم الذي يتألف ، ولا سيما في مستواه العالي ، من خريجي المعاهد الاجنبية الكبرى التي تعلم ان العروبة هي الاسلام ، وان الاسلام هو العروبة ، وهو الخصم فاحذروه ، وهذا الاعتقــاد وان كان خاطئا

فليست تبعة ذلك تقع على الطلاب . وانما تقع على المعلم .

وقد اشار الشيخ بيار الجميل الى تقيد اعضاء حزب الكتائب بمقررات مكتبهم وذلك في حديث له ادلى به في الندوة الصحفية التي عقدها في مكتبه بوزارة الداخلية يوم العاشر من آب سنة ١٩٦٦ حيث قال في مناسبة تأييده الحلف الاسلامي :

« والذي قلته هو ان لبنان لا يمكن ان يكون ضد الاحلاف ، لانه قد يضطر احيانا الى التحالف مع الشيطان من اجل الحفاظ على استقلاله وحريته .

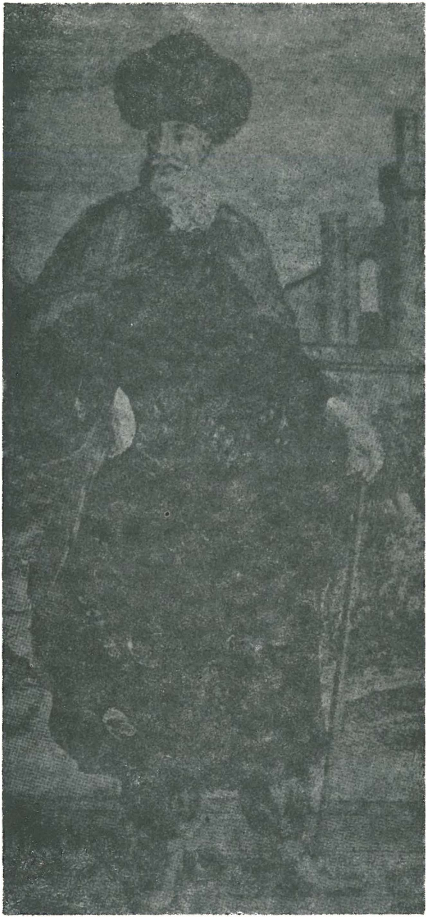
« نحن في حزب الكتائب نمارس الديموقراطية الى ابعد حدودها ، ولكننا في نفس الوقت ديكتاتوريون بمعنى اننا نفتح المجال امام الكتائبي للدفاع عن وجهة نظره حتى ولو اقتضى الامر شهرا كاملا من النقاش ، ولكننا عندما يتخذ المكتب قرارا ما فعلى الكتائبي ان يلتزم به ، والا يفصل من الحزب . »

اما وقد قضت العروبة على كل صبغة اخرى بلبنان على الرغم من كل المحاولات الاجنبية ، واصبح وطنا لاهله جميعا قائما كالطود فعلينا ان نفاخر به ، ونحافظ على استقلاله بالتعاون بيننا دون حاجة للجوء الى التكذيب والتكفير ... فقد صدق من قال ان وطننا العزيز هو عربي ، كما صدق من قال انه لبناني . اما القول الاصح فهو ان هذا الوطن لبناني عربي .

الفصل الرابع

الامير فخر الدين المعني الكبير

هل وفق عهد الانتداب بأتخاذه شعارا للبنانه المعتزل ؟



رسم الامير فخر الدين المعني الثاني الكبير

الغاية من اقامة هذه الشعارات

تمهيد

كان نابليون بونابرت ذا مطامع سياسية لا حد لهـا ، فلما أتيـح له الاستيلاء على مصر شرع يرنو بنظره الى الهند التي كانت عند لندن بمثابة الروح من الجسد • واخذ يفكر في غزوها عبر الجزيـرة العربية ، ويدرس بمعونة بعض المستشرقين الذيـن ساقهم اليها ، اذا كـان عند امرائها استعداد للتعاون معـه ، ولتسهيل مهمته • ولكن هـذا الامل المحبوب ذهب مع الريح اثر اخراج الانكليز له مـن وادي النيل عنوة وقسرا • على ان خلفاءه في الحكم بباريس وان لـم يسترسلوا في تبني مطمعه هذا الا ان النقمة على بريطانيا التي اخرجتهم من مصر ، بالاضافة الى أملهم في العودة الى مصر مرة اخرى ، والى حرصهم على ان تكون بلاد الشام من نصيبهم عند توزيـع تركة الرجل المريض ، على ما كانوا يسمون به تركيا كل ذلك كان حافزا لهم لان يتخذوا بيروت وجبال لبنان قاعدة استراتيجية لتخطيطاتهم بغية ادراك الاماني المنشودة •

وقد وقع اختيارهم على هذه المنطقة الصغيرة دون غيرها ، ليس لانها مجاورة لوادي النيل فقط ، وانما للعلاقات التقليدية القديمة التي تربط بين فرنسا وبين الطائفة المارونية المحترمة هـذه الطائفة التي اصبحت في ولائها لفرنسا تعتبرها الام الحنون • ويرجع ذلك ايضا الى عطف فرنسا عليها لارتباطها منـذ الحروب الصليبية بالكرسي الرسولي الذي اخـذ يرعاها ويدافع عنها •

ولكن بريطانيا ، التي كانت تلقب بالعظمى الـى وقت قريب نظرا لسيادتها على البحار ، لم تخف عليها اسرار التصاميم الفرنسية فانصرفت

الى مكافحة اخطارها ، وفضلا عن العيون والارصاد والمبشرين الذين ساقتهم الى بيروت ولبنان ، وعدا المدارس التي أقامتها في أنحائهما ، والنشرات التي أخذت تصدرها فقد شاءت ان يكون لها انصار فيهما يؤيدونها فوقع اختيارها على الطائفة الدرزية التي وان لم يكن لها كغيرها من كثرة العدد ما يوفر لها الزعامة الا انها كانت تتمتع بالنفوذ الاكبر في لبنان بقوة الاستمرار ، وبما تنعم به من الشجاعة فضلا عن رعاية الباب العالي لها ، مذ امتدت الاصابع الاجنبية الى هذا القطر الصغير ...

وكان من عواقب الصراع الخارجي بين هاتين الدولتين الكبيرتين نشوب صراع داخلي بين الموارنة وبين الدروز منذ اوائل القرن التاسع عشر افضى الى الفرقة بين اهل لبنان ، وانتهى بتبدل معالمه وبقيام كيان له صبغة دولية .

وكانت السلطنة العثمانية في تلك الحقبة قد أشرفت على الانحلال من جراء الحروب المتوالية التي واجهتها ، والثورات التي نشبت في بلادها ، وهي من عمل الاجانب اعدائها ، فارتمت في أحضان انكلترا في القرن التاسع عشر بعد ان كانت مرتمية في أحضان فرنسا من قبل ، لدفع الاخطار التي كانت تحيق بها . فكان هذا ، بالاضافة الى ما كان للدول الاجنبية من امتيازات منحتهم اياها السلطنة مذ كانت في أوج عزها ، سبيلا الى تفاقم نفوذ هذه الدول ليس في العاصمة التركية فحسب ، وانما في داخل بلادها ، ولا سيما في لبنان الذي كان ميدان صراع بين الدول ، وكان في نفس الوقت ، ميدان صراع بين الامراء الشهابيين على كرسي الحكم .

وخلال ذلك اعتنق أبناء الامير ملحم الشهابي النصرانية ايام كان

ابوهم يتولى الحكم في دير القمر ابتداء من سنة ١٧٣٢ (١) ، ثم جرى مجراهم تباعا الامراء الشهابيون بلبنان دون التابعين لولاية دمشق ، فالامراء اللمعيون • فكان ذلك مما افضى الى تبدل معالم التوازن الطائفي لصالح الطائفة المارونية • وحينئذ شرعت هذه الطائفة تعمل لانتزاع الزعامة من الدروز في لبنان الاوسط ، كما انتزعتها قبلا من آل حمادة وغيرهم في لبنان الشمالي • ولكن هذه المحاولة لم يكن من السهل تحقيقها ، وان كانت فرنسا تؤيدها وكان الفاتيكان يباركها ، لان بني معروف الفوا الزعامة على الجبل منذ زمن بعيد ، وهم الى ذلك يتندرون بشجاعتهم ، ويفاخرون ببطولتهم ، هذا فضلا عن أن وراءهم الدولة صاحبة البلاد التي تحرص على انصارها ، وامامهم انكلترا التي تريد التنكيل بانصار غيرها • ولكن الامير بشير الشهابي المسمى بالكبير ، الذي كان يحرص على اخفاء ملته وعلى الظهور بمظهر المسلم بالحفاظ على التقاليد الاسلامية ، ان هذا الامير ما ان تولى الحكم بلبنان حتى انقض على القوى الدرزية ، واخذ يحطمها واحدا بعد واحد • وعلى الرغم من ان الاسر الدرزية لم تهن ولم تستكن حياله الا انها مع ذلك فقدت شيئا كثيرا من نفوذها ومالها في ايامه ، وبالتالي واجهت من بعده صعوبات في سبيل استرداد هذا النفوذ بقوة السلاح طوال المدة التي حفلت بالثورات بينها وبين مواطنيها النصارى (٢) • على ان الدروز وان انتصروا انتصارا باهرا في فتنة ١٨٦٠ الا ان عواقب هذه الفتنة المفتعلة من الاجانب كانت القاضية على زعامتهم • ذلك بان قضية لبنان لم

---

(١) يروي الاب بطرس الطياح في مجلة اوراق لبنانية ص ٣٤٠ « ان اول من تنصر من آل شهاب هي سحر الندى ارملة الامير بشير المتوفي سنة ١٨٠٦ . وذلك بعد انتقالها الى طرابلس مع وصيها يوسف الشماس الماروني ومعها وحيدها الحدث السن وابنتاها عقب موت زوجها . »

(٢) وكان أبرزها ثورات ١٨٤٠ــ١٨٤٥ــ١٨٥٨ ، واعظمها ثورة ١٨٦٠

تجد لها حلولا بعدها لا في لبنـــان ، ولا في استامبول ، وانما حلت في باريس ولندن بموافقة الدول الاوروبية الكبرى الاخـــرى وذلك بعـــد مساومات بينها ، ومداورات حول ايجاد كيان جديد للبنان •

وخلال هذا الكيان اللبناني الجديد ترجحت كفة القلم علـــى كفة السيف فتبدل وجهه اي تبديل ، وأمست فيه دور القناصل الاجنبية كعبة المتنافسين واصحاب المصالح • ثم انتهت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٨ بفوز الحلفاء علـــى المحور ، وانتهت المساومات الدولية بانتداب فرنسا على سوريا ولبنان على انهما بلدين منفصلين احدهما عن الآخر • وبالتالي باعلان الدولة المنتدبة لبنان الكبير ، فأدت هـــذه التطورات الى وضع جديد ذي لون طائفي معين • ولما اصبحت بيروت في هذا الوضع عاصمة لبنان ، أقبل على النزول اليها فريق كبير من اهل الجبل الموالين للانتداب ، واحتلوا مناصب الحكومة الكبرى والشركات • وقد يسرت لهم كفاءاتهم العلمية ، وخبرتهم التجارية ، ونشاطهم الاجتماعي اضفاء هذا اللون ايضا على وجهها • اما المسلمون في بيروت وسائر المدن اللبنانية الذيـــن كانوا وقتئذ يعارضون الوضع الجديد ، ويقاطعون جهازه القائم فانهم لم ينتبهوا الى ذلك الا بعد فوات الاوان• والجدير بالذكر هنا ان الذين تربعوا منهم على كراسي الحكم خلال عهد الانتداب كانوا من الفئة التي تريد لبنان مستقلا عن البلاد العربية لذلك كان عليهم بالاتفاق مع الدولة المنتدبة ان يخلقوا لبنانهم خلقا جديدا علـــى أساس ان اللبنانيين امة استقلت قبل غيرها ، وانها ذات مدنية خاصة لا تمت للعرب بصلة • واكثر من ذلك فقد غالى بعضهم اذ زعم ان اي فاتح لـــم يجرأ علـــى التعرض للبنان الذي تزعموه منذ القدم • وان بقية الملل جاءته بعدهم ، واستظلت رعايتهم •

ولما أرادوا ان يتخذوا للبنانهم المنشود شعارا للاستقلال المزعوم في العصور الخالية وقع اختيارهم على كل مـــن الاميرين فخر الدين المعني

الثاني وبشير الشهابي الثاني ، واخذوا يطوقونهما بهالات من البطولة ، ومن التضحية في سبيل لبنان المستقل •

وفي سياق هــذه السياسة فان الفئة الحاكمة في لبنان خــلال عهد الانتداب شاءت ان تستعين بالكتب التاريخية القديمة اللبنانية لوضع تاريخ للبنان يعود الى الاصول المدونة والوقائع ، فعهدت سنة ١٩٣٢ الى كل من الدكتور اسد رستم احد اساتــذة التاريــخ الشرقي في جامعة بــيروت الاميركية ، والدكتور فؤاد افــرام البستاني الذي كــان استاذا للآداب العربية في كلية القديس يوسف بالجامعة اليسوعية عهدت اليهما التفتيش عن الاصول اللبنانية لتاريخ الاعصر الحديثة ، ونشر المفيد منهــا • وبعد الدرس والتنقيب وفقا الــى النسخة الاصلية لتاريخ الامير حيدر أحمد شهاب المعروف « بالغرر الحسان في اخبار ابناء الزمان » فمثلا ، بالطبع في السنة ١٩٣٣ ــ ١٩٣٤ ما يختص منــه بلبنان في عهد الشهابيين • ثم اصدرا سنة ١٩٣٦ تاريــخ الامير فخر الدين المعني الثانــي لمؤلفه احمد الخالدي الملقب بالصفدي المعاصر لهذا الامير والذي كــان معتمدا له في بعض المهمات • وهو يتناول اخبار الامير في لبنان وسائر الشام ما بــين سنة ١٠٢١ وسنة ١٠٣٤ هـ « ١٦١٢ ــ ١٦٢٤ م » • ولكن هذين الكتابين جاءا على غير هوى اولئك الذين يريدون انتزاع لبنان من احضان العروبة، ويريــدون ، علاوة علــى ذلك ، تكريس استقلاله في التاريــخ القديم ، وانفصاله عن بلاد الشام • وعلى الرغم من ذلك فان المسؤولين مضوا في سبيلهم غــير حافلين بالحقائق التي كشف النقاب عنهــا هذان المؤرخان الكبيران في صدد الاصــول والاوضاع ، وثابروا على اعتبار الاميرين المشار اليهما رمزا للبنان العريق في الاستقلال، البعيد عن العرب والعروبة•

وقد كان هذا التجني حافزا لنا على تصويب هذا الاتجــاه المفتعل استنادا الى مؤلفيْ الامير الشهابي والصفدي المذكورين اللذين نشرتهما مديرية المعارف اللبنانية ، واستنادا الــى غيرهما مــن الكتب التاريخية

اللبنانية وغيرها التـــي صدرت باللغات العربية والاجنبية • ونحن تتناول في هذا الفصل وبالفصول التي تليــه مباشرة موضــوع الاميرين المعني والشهابي ، ولا سيما في صدد اذا كان عهد الانتداب قد توفق في اختيار كل منهما رمزا لذلك الكيان المنشود • وبعد التدقيق تبين لنا ان التوفيق لم يكن حليف ذلك العهد في هذا الاختيار ذلك لان الامير المعني لم يكن يفكر في ملك يسمى لبنان يوم لم يكن في معجم السياسة اسم لهذا البلد ، وانما كانت غايته ادراك الامارة على عربستان، وتحرير قومه من آل عثمان• واما الامير الشهابي فلم يكن الا « تحصيلادار » اي جابيا لعامل استامبول في صيدا • على انه كان في نفس الوقت يستسيغ ظلم اللبنانيين دون مبالاة في سبيل ارضاء هذا العامل او ذاك مما يجعله غير صالح لان يكون رمزا لوطنه ، هذا فضلا عن انــه لم يكن يفكر في لبنان ، ولا في استقــلال لبنان • ناهيك بوجود غيره من الامراء الشهابيين وهم اجدر منه في تمثيل وجه لبنان السابق •

وهذا ما سنحاول التدليل عليه • وما يحدونا الى ذلك الا حبنا لهذا الوطن الذي نعتز به ، ورغبتنا في تصويب تاريخه ، اذ لم يعد من الجائز ، ان يبقى بين ايدي جيلنا الصاعد تاريخ حرر من قبل لاغراض خاصة ، كانت حلقة في سلسلة صاغها الاستعمار قصد التفريق بين اللبنانيين مــن جهة ، وبين لبنان واشقائه العرب من جهة ثانية • بلى فالسكوت على ذلك لم يعد مــن ذهب في عهد الاستقلال : العهد الذي صحح أوضاع الوطن ، واضطلع بأعباء البناء والانشاء على اساس الوحدة الوطنية ، والسياسة العربية •

فنبدأ بهذا الفصل في الكــلام عن الامير المعني ، ثم تتناول منــذ الفصل الخامس الكلام عن الامير الشهابي • ونحن في كل ذلك لا نريد الا ان نخدم التاريخ ، وان نجعل وطننا في نجوى من مآرب الاستعمار •

الامير فخر الدين المعني الكبير
هل كان الامير يريد اقامة دولة لبنانية ؟

كان آل عثمان يطلقـون على عامل الايالة لقب بكلربكي اي امير الأمراء ، وكانوا يفوضون اليه امر تعيين اصحاب الاقطاعات ضمن ايالته • على ان يتولى الاتفاق مع هؤلاء على مقدار بدل الاقطاعات العائدة اليهم ، وكانوا يسمون هذا البدل بالالتزام• وكان على الملتزم ان يؤدي للخزينة، بالاضافة الى المرتب المقرر عن كل عـام ، مبلغا آخر لعامل الايالة نفسه ويسمى خدمة • ولم يكن الامر يقتصر على ذلك فقط بل كان على الملتزم اداء مرتبات اخـرى اضافية كنفقـات الحج ، وخدمة الاستقبال ، وهي الهدايا التي كان يقدمها الملتزم لكل متول جديد على الأيالة مضافا اليها خدمات السلطنة ، وهي الهدايا التي يرفعها عادة الى كـل سلطان يتبوأ العرش • هذا فضلا عن الهدايا التي تقدم لكتخدا الايالة في المناسبات ، وعدا الأموال التي تدفع للجباة وغيرهم التابعين للبكلربكي •

وكان الامير فخرالدين المعني الثاني «المتوفي سنة ١٦٣٥ م» في عداد عمال السلطنة ، وهو يتولى امارة لواء صفد التابع لدمشق • وقد عرف بشدة حرصه على اداء هذه الواجبات ، وباكرامه الزائد لرجـال الدولة الذين يفدون الى مقر امارته ليس بالحفاوة بهم فقط ، بل بالتحف والعطايا التي كان يقدمها لهم •

وبهذا الكرم والمصانعة ، بالاضافة الى الهدايا الثمينة التـي كانت تحملها رسله الى كبار الساسة في استامبول ، استطاع ان يستحصل لابنه الامير علي ، على الرغم من حداثة سنه ، الفرمان السلطاني في الولاية على

« سنجق » صيدا وبـيروت وأغزير « غزير » • فكانت تلك البسطة في الولاية على بلاد تمتد من حدود طرابلس الشام ، اي جسر المعاملتين الى فلسطين ، مشجعا له علـى التوسع في الاقاليم المحيطـة باقطاعه ، وعلى التصرف تصرف الحاكم المستقل وذلك أبان ما كانت هذه الدولة في شغل شاغل عنه ، وعن أمثاله من الاقطاعيين •

فقد كـان علـى عرش السلطنة السلطان احمد الاول « ١٦٠٣ ـ ١٦١٧ م » الذي تبوأ العرش صغـيرا لا يتجاوز عمره الرابعـة عشرة • تصدت له من الشرق دولة فارس بينما هاجمته النمسا والمجر من الغرب • واتحدت اسبانيا مع رهبان مالطة منذ سنة ١٦١١ على مجابهته من البحر بغية تحطيم عمارته • فكان الفشل الذي مني به في هذه الحروب هو وخلفه مغريا العناصر العثمانية الطامعة بالاستقـلال بالخروج علـى متبوعها في الاقاليم الاوروبية والاسيوية علـى السواء • وهذه الحالة السيئة التي وقعت فيها السلطنة العثمانية كانت مشجعة ايضا للامير فخر الدين المشار اليه على التفكير في تحرير بـلاد الشام ، وانشاء دولة عربية فيها • وقد باشر تنفيذ مخططه بالتوسع في الاقطاعات المجاورة فاستولى على كسروان الذي كان من قطـاع آل سيفا ، سنة ١٦٠٥ ، والحق به اراضي الامراء الحرافشة وبيت قريش في البقاع • ثم تحول الى الجنوب فبسط حكمه المباشر على بلاد بشارة وبانياس وعجلون وبهذا التوسع دخلت في نطـاق امارته بيروت وصيدا • وهو فضلا عن تعبئة الجنود ، وتحصين الحدود ، واقامة المعاقل ، اخذ يبني لمستقبل مستقل ناجز تعترف به الدول المعاصرة• وقد استهل ذلك بالاتصال باسرة المديشيس اصحاب توسكانا في شمالي شبه جزيرة ايطاليا • وعقد معهم معاهدة تحالف سنة ١٦٠٨ ، ذات صبغة عسكرية تشمل الدفاع والهجوم ، وقّعت في صيدا مع رسول فرديناند الاول كران دون توسكانا • وفضلا عن ذلك أوفد سرا سنة ١٦١١ المطران

جريس مارون الى اوروبا من اجل الاعتراف به وتأييده • بيد ان محالفته لتوسكانا وان ارتدت الرداء السري الا انهـا لم تخف على الباب العالي باستامبول ، ولا سيما عندما رأى مراكب هذه الدوكية تتردد على مرفأي صيدا وصور ، فهمّ به على الرغم من مشاغله الداخلية والخارجية ، وقد نصب علـى ايالة دمشق سنة ١٦٠٩ وزيرا معروفا بعداوته للامير ، وهو حافظ باشا الحافظ • وعهد اليه بالحد مـن مطامعه ريثما تنتهي الحروب الخارجية • فاخذ هذا يناجزه ويعاجزه الى ان برز المنقذ في تركيا مراد باشا المعروف بالقبوجي « نسبة للقبو » الذي ما ان تولى منصب الصدارة العظمى حتى قاد بنفسه الجيوش ، فبدّل وجه الحرب • ولما عقد الصلح بين آل عثمان وبين دولة فارس حول مراد باشا ثقله نحو الامير المعني ، وامر والي الشام كجك احمد باشا بان يحمل عليه وكانت حملة لا قبل له بها ، واما وقد سدت في وجه الامير فخر الدين سبل الارض فلم يسعه الا ركوب البحر سنة ١٦١٣ شطر فلورنسا عاصمة حليفته توسكانا • وهناك رحب به حاكمها الكران دوك قوزما الثاني Cosme II ، وبالغ في اكرامه، ولكنه لم يلبث ان تغير عليه حينما لم يجد لديه التجاوب المطلوب • فانتقل الامير ، بعد سنتين تقريبا من اقامته في عاصمة توسكانا ، الى مسينا بدعوة من ملك اسبانيا ، فبالرمو قاعدة صقلية ، فنابولي • وكانت هذه المدن وملحقاتها من اعمال اسبانيا •

وكانت اسبانيا لا تزال تحلم في متابعة الحروب الصليبية في أعقاب اجلاء المسلمين عـن الاندلس • وعلى الرغم مما اصابها من الانحدار في عهد ملكها فيليب الثاني منذ سنة ١٥٨٨ فان هذا العـاهل اراد من دعوة الامير المعني للاقامة في البـلاد التابعة له التآمر على سلطنة آل عثمان ، والاستعانة به وبوطنه للاستيلاء على البلاد المقدسة • وقد اشار الى ذلك السفير نجيب الدحداح في كتابه « تطور لبنان في التاريخ » حيث قال في الصفحة ١٩٢ ما ترجمته :

« خـلال اقامـة الامير فخر الدين المعني الثانـي في ايطاليا جرت مفاوضات بينه وبين البابا بطرس الخامس ، والكران دوك قوزما الثاني حاكم توسكانا ، ودوك أوزما Osuma نائب ملك اسبانيا في صقلية ، كان مدارها طرد العثمانيين من البلاد المقدسة ، ومن سوريا ولبنان حين ان الامير كان يحاول التفاهم مع فرنسا دون جدوى نظرا لارتباطها بالصداقة مع الباب العالي . » وهي الصداقة التي ترجع الى يوم استنجد فرانسوا الاول ملك فرنسا بالسلطان سليمان القانوني وهو اسير لدى الامبراطور ، فأشهر السلطان تلك الحرب التي أنقذت فرنسا مـن التهلكة وملكها من الأسر . والواقع فان الاوروبيين وان ارادوا استغلال الامير بمحاولتهم العودة الى بيت المقدس ابان ما كانت السلطنة العثمانية تعاني المصاعب في الحروب التي كانت تواجهها من الشرق والغرب ، وهم وان شاؤا الاستعانة به مكتسبين فرصة وجوده بينهم ناقما على دولته ، ولكنه مع ذلك ، ومع اضطراره لمداراتهم ، استنكر عروضهم ، ولا سيما في تبديل دينه ، وابى ان يتآمر معهم على دولة الخلافة ، وعلى البلاد المقدسة . ولما لم يجدوا لديه تجاوبا عقب هـذه المفاوضات نبذوه وأساؤا معاملته مما اهـاب به للتفكير في العودة الى بلاده . ومذ علم الباب العالي بموقفه هذا السليم الشريف كافأه ليس باصدار العفو عنـه سنة ١٦١٨ فحسب ، بـل كافأه بالسماح له في العودة اميرا على بلاده، ثم منحه سنة «١٠٣٤ هـ = ١٦٢٤ م» وفقا لطلبه لقب امير عربستان وهي البلاد التي تمتد من حلب الى القدس مضافا اليه لقب جده « سلطان البر » على ان يؤدي لخزينة السلطنة مايتي الف ليرة ذهبية كل عام . كما سنبينه بفصل آت .

ومن هذه الخلاصة لسيرة المعني الكبير يتبين لنا انه كان عاملا في عداد عمال سلطنة آل عثمان أغرته ظروفها السياسية فحاول بناء مملكة مستقلة عربية لا تقتصر على حدود لبنان ، وانما ارادها غير اقليمية تشمل بلاد الشام قاطبة . وعلى هذا القصد فان الامير فخر الدين ما ان استتبت

له الامور في بلاده بعد عودته مـن اوروبا ورأى ان الفرصة عادت الى ما كانت عليه في صدد السنوح لتحقيق آماله حتى اخذ يعد العدد لهذه الغاية • فملأ بلاده بالحصون والمعاقل وبعد ان جهز الجيش أحسن تجهيز انطلق الى الاستيلاء على الاقطاعات المجاورة فاستولى على جبيل والبترون سنة ١٦١٩ ، وعلى بلاد بشارة سنة ١٦٢١ ، وعكار والضنية سنة ١٦٢٣ • فضلا عن صيدا وصور • وعقب انتصـاره في موقعة عنجر على الجيش العثماني سنة ١٦٢٥ دخلت طرابلس في حوزته • على انه كـان في نفس الوقت يواصل عرض خضوعه للباب العـالي • ويؤدي للدولة المفروض على هذه الاقطاعات من الضرائب واكثر ، وكان يغدق العطايا والهدايا على رجالات استامبول ويطمئنهم بانه انما يفعل ما يفعل في سبيل توثيق سلطة دولة الخلافة وتأمين الاستقرار لها وهيبتها بالشام • على ان هؤلاء كانوا لا يجهلون هدفـه ، ولكنهم في ظروف السلطنة الحرجة كانوا يفضلون امهاله ويتظاهرون بالرضا عنه • ولا يبخلون عليه في منحه الالقاب التي يريدها على شرط ان يواصلهم بارسال الاموال التـي كانت الخزينة في اشد الحاجة اليها •

وظلوا كذلك حتى اذا استجمعت الدولة قواها في عهد السلطان مراد الرابع انقضت عليه في سنة ١٠٣٤ هـ (١٦٢٤ م) من البحر والبر بقوى لا قبل له بمواجهتها ، وساقته الى عاصمتها اسيرا حيث قتل سنة ١٦٣٥ • على انها مع ذلك لم تتحول عن اسرته آل معن على الرغم من ان اعداءها زعماء الحزب اليمني كانوا ، خـلال ذلك الوقت يواصلون الوشاية بها ويعرضون على الباب العالي خدماتهم • بل ان استامبول نصبت خلفا له ملحم بن يونس المعني المتوفي سنة ١٦٥٨ ، ثم حفيده الامير فخر الدين احمد المتوفي سنة ١٦٩٧ عقيما فانتقلت بذلك الامارة بموته الى الاسرة الشهابية •

تطور فكر الامير المعني باوروبا في نطاق القومية

ليس كالاسفار مدرسة توسع آفاق المعرفة ، ولا سيما اذا كان للمسافر عناية بدراسة ما يشاهد ، ورغبة في التدقيق والمراقبة • وقد خبرت ذلك بنفسي حتى اصبح بوسعي ان اقول انني مدين للاسفار ، في معلوماتي القليلة ، اكثر مماية مرة مما انا مدين للمدارس الوطنية والاجنبية التي تخرجت بها •

وكانت شبه جزيرة ايطاليا حينما لجأ اليها الامير فخر الدين المعني مهدا للتمدن الحديث بفضل الذين لجأوا اليها من العلماء البيزنطيين بعد استيلاء آل عثمان على قسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وكانت كذلك مهدا لمبدأ القوميات أبان ما كان العالم الاوروبي يتحدث عنها ، وينوه بها ، وربما كان استيلاء آل عثمان على بلاد الامبراطورية البيزنطية ، والبلاد التي حولها في شرقي اوروبا هو الذي اثار مبدأ القوميات في الغرب قصد التدليل على عدم شرعية هذا الاستيلاء ، وبغية دفع الاتراك عنها •

فكان من الطبيعي ان يتأثر الامير المعني كل التأثر من البيئة التي عاش فيها طوال خمس سنين وهو يرى خلالها انواع التنظيم الاداري ، واساليب العمران ، فضلا عن النهضة الثقافية ، ويسمع الاحاديث الحماسية عن القوميات وحقوق العناصر • وكان يتمنى عودته الى بلاده ليبني مثلما بنوا ، ويعمل لقوميته مثلما يعملون • خصوصا وقد تسنى للامير هناك ان يرى عناية الايطاليين بطبع وترجمة بعض الكتب العربية على الرغم من ان الطباعة عندهم كانت حديثة العهد •

وقد نوه الصفدي بذلك وبرخص اثمان هذه المطبوعات حيث قال : (صفحة ٢٢١) « حتى ان كتاب قانون ابن سينا في الطب وعظمه في جلد واحد يباع عندهم بسبعة ، او ثمانية غروش • »

والجدير بالذكر انــه بالاضافة الى العرب الذيــن لقيهم الامير في ايطاليا ، واكثرهم من الاندلس وشمالي افريقيــا ولبنان فانــه وجد في باليرمو عاصمة صقلية بعض المتخلفين فيها مــن الاسر العربية ، وثلة من أسرة آل حفص ملوك تونس ، فكان اجتماعه بهؤلاء وهؤلاء ، وتندره معهم في الشؤون العربية ، ماضيها وحاضرها ، وفي الشؤون العثمانية ، ولا سيما ما كان منها يتعلق بالعرب والخلافة ، وذلك في تلك البيئة المشحونة بالفكرة القومية ، مثيرا في نفسه نزعات جديدة ترمي الى الاضطلاع بجزء مما تفرضه العروبة على ابنائها • ولا بدع فهو المحب لقومه الذي وصفه الصفدي المشار اليه بقوله : (صفحة ٣) « ما سمعت عنه الكلمة الفاحشة قط ، ولا لادنى من يكون من اولاد العرب • » •

لذلك فانه لما عاد الى بلاده كان يحمل في رأسه مهمتين : مهمة بناء امارته علــى النمط الحديث ، ومهمة تحرير قومــه مــن الاتراك الذين استبدوا دونهم بالخلافة •

وقد حقق في مهمة البناء ما استطاع اليه سبيلا حتى بلغ دخل امارته ٩٠٠ الف ليرة ذهبية • وهو مبلــغ يعتبر كثيرا بالنسبة لزمنه ، وبالنسبة لغلاء النقد وقتئذ • ولكــن اكثر من ثلث هذا المبلــغ كان يذهب الى صندوق السلطنة باستامبول •

واما في المهمة الثانية فكان هدف الامير القومي انشاء دولة عربية لان لبنان لم يكن له في معجم السياسة وجود وقتئذ بدليل ان كتاب الصفدي الذي عني بنشر سيرة الامير المشار اليه ، لم يرد فيــه على الاطلاق اسم لبنان • وتمهيدا لغايته هذه فان الامير « وكل كتخداه الحاج درويش في

قسطنطينية (على ما روى الصفدي) ان يجهد ويبذل قصد ادراكه الفرمان السلطاني في التوليــة علــى عربستان ، فأتته البشارة بذلك سنة ١٦٢٤ والفرمان السلطاني ، على ان يكون متوليا على ديرة عربستان مــن حد القدس ، ومعطى لقب جده المرحوم المغفور له الامير فخر الدين (الاول) : سلطان البر علــى المقاطعات المذكورة بحيث تؤدي ميرتهم الــى الخزينة العامرة لقاء مايتي الف ذهب خدمة الى خزينة مولانا السلطان . » ولكن ليس للسياسة دين ، على ما يقول المثل الشائــع ، ذلك لان الدولة التي استجابت لطلبه سنة ١٠٢٧ هـ (١٦١٧ م) ، ومنحته هذه الولاية مصانعة لم تلبث ان انقضت عليه حينما استجمعت قواها ، واسرته وانتزعت منه الامارة كلها .

والجدير بالذكر ان بلاد الشام ، وفي عدادها لبنان كانت عهد الامراء المعنيين تعرف بعربستان عند الباب العالي ، وظلت كذلك الى عهد الامراء الشهابيين . ولما نصب الباب العالي محمد باشا واليا على حلب ، خــلال الحملة المصرية على سوريا لقبه بنظــام عربستان ، هذا الى ان ابراهيم باشا المصري قائد هذه الحملة كان يوقع بعــد فتحه عكا « والي جده وساري عسكر عكا . » ثم لما استكمل فتح بلاد الشام ، ودخلت حلب في نطاق حكمه سنة ١٨٣٢ اصبح يوقــع علــى المراسيم : « والي جده وساري عسكر عربستان . »

وعلى هذا الاعتبار فان الامير فخر الديــن المعني اصبح منذ سنة ١٦٢٤ متوليا على كثير من بلاد الشام ساحلها وداخلها (١) ولكنه مع ذلك لم يجد في هذه الولاية كفاية للحد من امنيته العربية فعاد سيرته الاولى .

---

(١) وعلى رواية الدكتور عادل اسماعيل في كتابه تاريخ شعب ص ٩٦ فان نفوذ الامير امتــد رواقه الى انطاكية في الشمــال ، وصفد في الجنوب وتدمر في الشرق .

وقد اشار الى ذلك الصفدي : فبعد ان نوه بما صار للامير من الشأن العظيم والمال الكثير حين عين متوليا على ديرة عربستان قال : (صفحة ٢٤٤) « وراودته نفسه على السلطنة ، وصار يعمر في بيروت حارة للوحوش (اي حديقة للحيوانات) غير أن ظروف السلطنة ما ان تبدلت حتى ساقت عليه كجك احمد باشا (كجك اي الصغير) والي دمشق ، وأمرت اسطولها بان يبحر لمعاونته ، فلم يستطع الامير ان يصمد في وجههما ، بل لم يلبث الا قليلا حتى استسلم سنة ١٦٣٥ ، فسيق الى استامبول حيث لقي حتفه مقتولا في نفس العام ، فكان اول شهيد في سبيل العروبة خلال التمدن الحديث .

وبعد فهذه خلاصة سيرة الامير فخر الدين المعني الكبير . فهي بالجملة وبما ورد فيها من ان لبنان وقتئذ لم يكن له وجود في معجم السياسة ، وان مطامع هذا الامير لم تكن تقف عند حدود لبنان الجغرافية، بل كانت تتعدى ذلك الى انشاء دولة عربية تمتد من البحر المتوسط الى بادية الشام والعراق ، كل ذلك يبرر تساؤلنا عما اذا كان عهد الانتداب توفق في اختيار هذا الامير شعارا للبنان الذي أسماه الكبير .

ومهما كان الجواب على هذا التساؤل فمما لا شك فيه ان هذا الامير المعني كان مفخرة للبلد الذي أنبته ، ومفخرة للامة التي أنجبته . واذا كان لا يصلح ان يكون رمزا للبنان الماضي ، ذاك الذي اراده المستعمر ان يكون في عزلة عن العروبة ، فانه ولا شك جدير بان يكون شعارا للبنان العربي : لبناننا الحاضر .

---

(١) وعلى رواية الدكتور عادل اسماعيل في كتابه تاريخ شعب صفحة ٩٦ فان نفوذ الامير امتد رواقه الى انطاكية في الشمال ، وصفد في الجنوب وتدمر في الشرق .

عاصر الامير فخر الديـن المعني السلطان مراد الثالث « ١٥٧٤ ـ ١٥٩٦ م » الذي بدأ في عهده انحدار السلطنة العثمانية من الذروة التي أدركهـا السلطان سليمان القانوني ، ثـم عـاصر السلطان احمد الاول « ١٦٠٣ ـ ١٦١٢ م » الذي ظهرت في ايامه علامات الانحدار مذ اضطرت تركيا لتوقيع معاهدة الصلح مـع النمسا المعروفة بمعاهـدة ستيفاتورك سنة ١٦١٦ تلك المعاهدة التي تنازلت فيها عما كان لها من قبل من علامات السيادة في المعاملات الدولية . وقد اشار الـى ذلك هامر Hammer المؤرخ الالماني في كتابه تاريخ الامبراطورية العثمانية ، وقال :

« ان صلح ستيفاتورك الذي لم يسترع الانظار ، والذي اسدلت عليه معاهدة كارلوفتز « ١٦٩٩ » من بعد ستار النسيان . ان هذا الصلح كان ، في الواقع ، مهما جدا في ناحية الحقـوق السياسية المتبادلة بـين السلطنة العثمانية والدول الاخرى . وليس مرد ذلك الى ان هذا الصلح وضع حدا للفتح العثماني فحسب ، وانما لانـه قضى القضاء المبرم على التقاليد التي كانت مرعية قبله ، تلك التقاليد التـي كانت تقرر تفوق آل عثمان . فقد نصت هذه المعاهدة على الغاء الجعل الذي كان على السفراء تقديمه للسلاطين كل عام باسم هدايا ، كما قررت المساواة بـين السلطنة وبين سائر الدول في العلاقـات المتبادلة . يضاف الـى ذلك ما احرزته ترتسلفانيا في هذه المعاهدة مـن التحرر الجريء ، وما أدركته المجر من الغاء الجزية التي كانت تؤديها للسلطنة كل عام وهي صاغرة . هذا فضلا عن انه اصبح من حق النمسا التدقيق في كل معاهدة قبـل التوقيع عليها

بينما كانت العادة الجارية من قبل توقيعها على المعاهدات ، التي لا تكتب الا باللغة التركية ، دون ان يكون لها حق في التدقيق بمضمونها . »

وكانت اسبانيا في عهد آل معن تعتبر اكبر دولة غربية ليس لامتداد مملكتها في اوروبا حتى شملت جزءا كبيرا من ايطاليا ، وهولندا ، وصقلية وكثيرا غيرها من جزر البحر الابيض المتوسط ، وانما لتدفق الاموال عليها من مستعمراتها في العالم الجديد في أعقاب اكتشاف امريكا تدفقا مكنها من انشاء عمارة قوية كانت تعتبر في مقدمة العمارات الاوروبية .

وكانت اسبانيا في صراعها مع السلطنة العثمانية في تلك الحروب الصليبية ترى في عمارة هذه السلطنة عقبة كأداء في وجه توسعها في اقطار شمالي افريقيا . لذلك كان همها تدمير هذا الاسطول بالاتفاق مع البندقية التي كانت زعيمة البحر المتوسط في التجارة عبر البحار وغيرها . وبعد محاولات عديدة فاشلة استطاعت اخيرا ، بادراكها الانتصار في معركة ليبانتيه البحرية ، ان تنتزع من الدولة التركية علم السيادة على البحر المتوسط . وكان من عواقب ذلك ان اسبانيا ما ان اطمأن بالها من الخطر العثماني حتى بادرت الى اجلاء المسلمين واليهود من بلادها في عام ١٠١٧ هـ = ١٦٠٨ م الا من تظاهر منهم بالارتداد عن دينه .

وفي ذلك الحين كان للفاتيكان نفوذ عظيم ، وله جهاز دولي فضلا عن عمارة بحرية كانت تساهم في الحرب المقدسة في محاولات تدمير الاسطول العثماني . وكان هذا الصرح الديني الكبير ، الى جانب اهتمامه بالسياسة الدولية ، يضطلع بمهمات اخرى يوليها جد اهتمامه ، وعلى رأسها قضية النصارى العثمانيين ، وقضية الحج الى بيت المقدس من حيث تأمين سلامة الحجاج وراحتهم فضلا عن التفكير في استعادة البلاد المقدسة .

فلما برز الامير فخر الدين كزعيم قومي كبير يريد التخلص من دولة الخلافة استرعى انظار الفاتيكان واسبانيا وسائر الدول الغربية على امل ان

تجد فيه العنصر الفعال في اضعاف شوكة آل عثمان ، واهتمت به على الاكثر ، لانه كان حاكما على جزء من فلسطين البلاد المقدسة التي كانت انظارهم لا تزال ترنو اليها •

وهذا ما حمل دوكية توسكانا ، في شمالي شبه جزيرة ايطاليا ، على الاتصال به ، وعلى عقد معاهدة معه سنة ١٦٠٨ ، وعلى امداده من بعد بالمال والاعتدة الحربية ، ثم لما اضطر الى الفرار لبلادها رحبت به ، في اول الامر ، كل الترحيب ، وربما كان كل ذلك بالاتفاق مع الفاتيكان ، او بايعاز منه ، على امل ان يجدوا في الامير الناقم على دولته مطية لهم لتنفيذ مآربهم • وبناء على وساطة فردنان الاول كران دوك تسكانا اصدر البابا بولس الخامس منشورا موجها الى مسيحيي لبنان وفلسطين يدعوهم فيه الى تأييد الامير فخر الدين ، والى اطاعة اوامره •

وقد شاءت اسبانيا وقتئذ الاستفادة من الامير الناقم على دولته للنيل من هذه الدولة ، وذلك بالاتفاق معه على مهاجمتها برا مثلما كانت تهاجمها هي بحرا فأوعزت الى نائب ملكها في صقلية ان يدعوه اليه ويفاوضه في الامر ، خصوصا وقد بلغها ان الاسطول العثماني يتأهب للتعرض لجزيرة صقلية • فأرادت بهذه المؤامرة مع الامير فخر الدين ان تحول انظار السلطنة عن هذه الجزيرة الى شواطىء سوريا • وقد لبى الامير دعوة نائب الملك الاسباني في آب ١٦١٧ ، وأقام في ضيافته هناك نحو سنتين ، ثم انتقل الى نابولي ، وهي أيضا كانت من اعمال اسبانيا ، فمكث فيها نحو ثلاث سنين • فقضى خمس سنين تقريبا في الغربة عرضة لاتصالات خارجية يريدون بها تحويله عن دينه والافادة منه للنيل من دولته • واذ كان قنصل فرنسا في صيدا يرافقه في هذه الرحلات متخذا لنفسه صفة الترجمان فقد كان وسيلة لتسهيل هذه الاتصالات ، ولا سيما

مع ساسة بلاده بالمراسلات (١) ، كما ان رجـال الدين الموارنة المقيمين بروما كانوا صلة الوصل بين الامير والفاتيكان .

ولكن هذه الرحلة لم تنته باية فائدة سياسية للامير مـن جهة ، ولا لتوسكانا واسبانيا وغيرهما من جهة ثانية ، لانه كان في واد ، وهم كانوا في واد آخر . فهو كـان لاجئا لا يتوخى منهم التوسط له للعودة الى امارته ، وهم كانـوا يريدون التآمر معـه لاستغلاله في الكيد لدولتـه باستامبول .

وقد اعرب الامير عن وجهة نظره للدوق دسونا نائب ملك اسبانيا في صقلية حينما وعد هذا باسم مليكه الامير بمساعدته على عودته لبلاده ، وعلى الرجوع الى منصبه ، ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد فيما بعد لانهم اخذوا يفاوضونه في التعاون علـى مهاجمة السلطنة ليتخذوا مـن شواطىء الشام مركزا استراتيجيا للاستيلاء على فلسطين . ولما لم يوافقهم على هذه المؤامرة قلبوا له ظهر المجن ، وتغيروا في معاملته ، وتخلوا عن مساعدته .

ولنترك الكلام هنا الى الخالدي الصفدي فقد جاء في الصفحة ٢٣٤ من الملحق رقم ١ ما يلي :

---

(١) وقد قال الصفدي (ص ٢٣٥) في هذا الصدد : « وفي ذلك الوقت جاء الى عنده القنصل الذي يسمى كردانا الذي جاء معه من بـلاده ، وعلى يده مكاتيب من سلطان فرنسا يطلب منه توجه الامير لعنده ، وارسل يقول له سمعنا ان مرادكم ترجعوا لبلادكم مرادنا نتعارف بكـم ، ونرسل معكم مكاتيب شفاعة فيكم الى سلطانكم لاننا نحن واياه صلح واصدقاء من قديم مثل الاخوان . وما اراد الامير يتوجه لعندهم ، بل ارسل له مكتوب ماطف يعتذر له بسبب قلـة توجهه لعندهم لان وهو عنـد القراندوكا في اليقورنا ارسل الحاج كيوان مكاتيب حتى يتوجه الى عند سلطان فرنسا فما اعطاه رضا بذلك فبهذا الوجه ما عاد حضرة الامير توجه لعنده . »

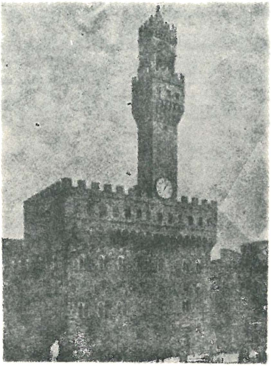
« وفي بعض ايام جاؤا اكابر لعند الامير فخر الدين ارسلهم الدوكا الصمو نا في التنها وكلموه وقالوا « ان رحنا الى بلادكم قدر أيش ييجوا أناس معنا من أهلكم وبلادكم ؟» فقال لهم الامير هذا امر دين ما اقدر اكفل احد لا اخي ولا ولدي ، ولا اهل بلادي ، بل انا عندكم وقدامكم . فقالوا اذا ما جاؤا معنا ما يبيعونا ذخيرة ؟ فقال لهم انتم تعرفوا قوة دين الاسلام وقوة آل عثمان ، بل الذي مراده يقهر القوتين ما يتكل على مشترى ذخيرة من الناس . فأحكوا بلسان بعضهم بعضا بلسانهم وهزوا رؤوسهم من هذا الجواب . فقالوا له كم كنت تجمع عسكري في بلادك ؟ فقال لهم يوم كان المنصب علينا والحكم والحكومة في ايدينا جمعنا اكثر من عشرة آلاف رجل من غير الذي يتأخروا في البلاد . واما اليوم مالي حكم الا على نفسي » .

ومضى الخالدي يقول : « فتعجبوا من جوابه لذلك، وتركوا الكلام معه . ومن ذلك اليوم وهذه الجوابات ما عادوا داروا بالهم منه مثل عادتهم ، ولا عادوا أعطوه العلوفة المعتادة وبقا الامير يبيع صيغه وحوائج ويخرج على نفسه وعياله الذي معه . وبقي على هذا الحال مدة في نابل.»

وهذه عادة الاجانب التي درجوا عليها من قبل ومن بعد . فهم يقربون اليهم الذين يتوسمون فيهم المنفعة ، ولكنهم ما ان يشعروا بان الفائدة من احدهم معدومة حتى يقذفوا به قذف النواة . لذلك فان الامير المعني ما ان خاب ظنه في الاجانب ، وتبخرت أحلامه حتى امسى كالقاعد على الجمر ، فاخذ يتوسل بشتى الوسائل لادراك جواز السفر . ولما ترددوا في اعطائه اياه ، وكانت عياله تنتظر في المركب انذر مضيفيه بانهم « اذا لا يعطونه الجواز فسيحرق المركب ومن فيه ويحرق نفسه . »

بيد ان الامير المعني وان لم يجن اية ثمرة سياسية من اقامته في اوروبا الا ان هذه الاقامة الطويلة علمته ما لم يكن يعلم عن السياسة

الداخلية ، فضلا عن كونها ايقظت مشاعره القومية • وهو وان عاد من أوروبا حاملا في ذاكرته ذلك التعصب الديني الزميم الذي لاقاه في غربته الا ان هذا التعصب اثار في نفسه ردة فعل جعلته حينما عاد لامارته لا يحسن معاملة الاجانب فحسب ، على ما تدعو اليه الشهامة العربية ، وانما يمنح ارسالياتهم الدينية حمايته ورعايته ، فضلا عن جميع الطوائف المسيحية • وبضدها تتميز الاشياء •



القصر القديم في فلورنسا حيث اقام فخر الدين المعني الكبير
خلال وجوده فيها

تأثير رحلة الامير فخر الدين على سياسته الداخلية

حقا ان رحلة الامير الى اوروبا لـم تدرك في الناحية السياسية اية فائدة لتباين المقاصد بينه وبين عواهل البلاد التي نزل فيها ، ولكنها كانت مفيدة جدا له في الناحية القومية والعمرانية ، كما قدمنا ، وذات تأثير كبير على تحوله الى ادارة بلاده على منهاج جديد يقوم على اساس المساواة بين الطوائف ، واطلاق الحرية الدينية وتشجيع التجارة الخارجية •

وقد ساعد على ذلك نشأة الامير في صباه : فهو لم يكن قد تجاوز الثانية عشرة مـن عمره حينما ارسلته والدته نسب واخـاه الى كسروان فأقاما في بيت ابراهيم بن سركيس من مشائخ آل الخازن في بلونه قرب عجلتون ، وذلك أثر مـا طاردت الدولة ابـاه الامير قرقماز ، ثم قتلتـه سنة ١٥٨٤ ، في مغارة تيرون على مقربة من جزين •

وقد ظل هذان الصغيران مختبئين هنـاك ست سنوات ، وهي مدة كافية للتأثر بالمحيط الذي انقذ حيـاته واكرمه ، وجعله يضمر وجـوب الاحسان ليس للذين خبؤوه فقط وانما لابناء ملتهم كافة ، وذلك بالمساواة بين الطوائف ، وبالاعتماد على الاكفاء دون الالتفات الى مثلـهم ، وربما لو انه تربى وترعرع في بيت الامارة المغلق لنشأ نشأة اخرى ارستقراطية تنظر الى الناس بعيون متفاوتة ، وتعتبر كل لفئة منها الى أي منهم تنازلا او منحة •

لذلك ما ان واتته الظروف ، وعـاد الى الحكم ، ثـم ما ان سمت نفسه الى الاستقلال التام ، واخذ يبني حتى القى اعتماده على اكتاف بعض هؤلاء ، وكـان في طليعتهم مشائخ آل الخازن الذيـن خبؤوه واحسنوا

ضيافته ، وعلى رأسهم الشيخ خاطر الذي كان قد لحق به الى توسكانا • وكان بين الذين اعتمد عليهم الامير المطران جرجس بن مارون الذي ارسله من قبل سرا الى توسكانا سنة ١٦٠٨ لعقد معاهدة مع عاهلها الكران دوك قوزما الثاني • وهو في سياق المساواة بين الطوائف ، واطلاقه الحرية الدينية للجميع ساعد على بناء كنيستي بكفيا والعربانية ، كما بنى جامع القاع في البقاع ، والجامع البراني في صيدا ، وشجع على ايفاد عدد من التلاميذ الموارنة الى روما لتعلم اللغات الاجنبية ولتلقي العلوم العالية على امل ان يعودوا للبلاد ويخدموا العلم والدولة التي كان يحلم بها • كما شجع على انشاء المدارس الاولى المارونية •

وفضلا عن ذلك فقد سمح للاجانب بانشاء قنصليات في صيدا ، وسمح لهم ايضا بايفاد بعثاتهم للتعليم في بلاده ، وهو اذ أذن للفرنسيين بأن يبنوا فيها خانا خاصا بتجارتهم كان يشجع أيضا سواهم من الاجانب على التعامل مع بلاده وذلك بحمايتهم من أي عدوان وبحماية مراكبهم من القرصان •

فكان الامير فخر الدين بذلك أسبق من دولة آل عثمان في ميدان الاصلاح نتيجة لاحتكاكه شخصيا بالتمدن الاوروبي ، وأعدل من معاصره يوسف باشا سيفا الذي كان يتولى ايالة صيدا من قبلهم • بل كان أوفر سماحة من ملك اسبانيا في نطاق الدين ذاك الذي ارسل اليه، ابان وجوده في نابولي كتابا يساومه فيه على دينه ، ويعده لقاء تخليه عنه بان يعطيه ملكا أوفر اتساعا من الملك الذي أضاعه ، واعظم شأنا • وكان الامير كذلك أرحب صدرا من أكابر نابولي ورهبانها الذين جاؤا اليه يحاسبونه على اقامة الصلاة جماعة في داره على ما سنذكره • هذا ويقول الاستاذ جورج عارج سعاده في جريدة الزمان (٦١/٤/٣) :

« وفي ايام البطريرك يوحنا مخلوف أنشئت مدرسة حدقة لتكون

مرحلة اعدادية لمدرسة الموارنة برومية • وبعد مدة أمر البابا بولس الخامس بان تطبع بعض الكتب الطقسية المارونية في رومية علـى نفقة الكرسي الرسولي • وكان هذا البطريرك صلة وصل بين الامير فخر الدين الثاني الكبير والباباوات الثلاثة الذين تولوا في ايامه ، وهم كليمانصو الثامن وبولس الخامس ، واوريانوس الثامـن ، فعلا مقـامه ، ونالت الطائفة (المارونية) بسبب ذلك كثيرا من الوجاهة والاعتزاز • »

كل ذلك كان يدل على ان الامير سبق غيره من الشرقيين في انتهاج سياسة جديدة تقيم علـى قواعد متينة المساواة بـين الطوائف ، وحرية الاديان ايام لم تكن هذه المساواة وتلك الحرية رائجتين في اكثر البـلاد الاوروبية والاميركية فضلا عن الشرقية• ولا شك في ان الوسط الذي نشأ فيه الامير في صباه ، وهواء التمدن الحديث الذي تنشق نسيمه في غربته خلال خمس سنين كان لهما اكبر الاثر على هذا التجدد • ولا بدع فالناس اعداء ما جهلوا ، وليس كالاختلاط يؤدي الى التعارف والتآلف ، ومن ثم الى التناصف •

هل كان الامير فخـر الدين الثاني غيـر مسلم ؟

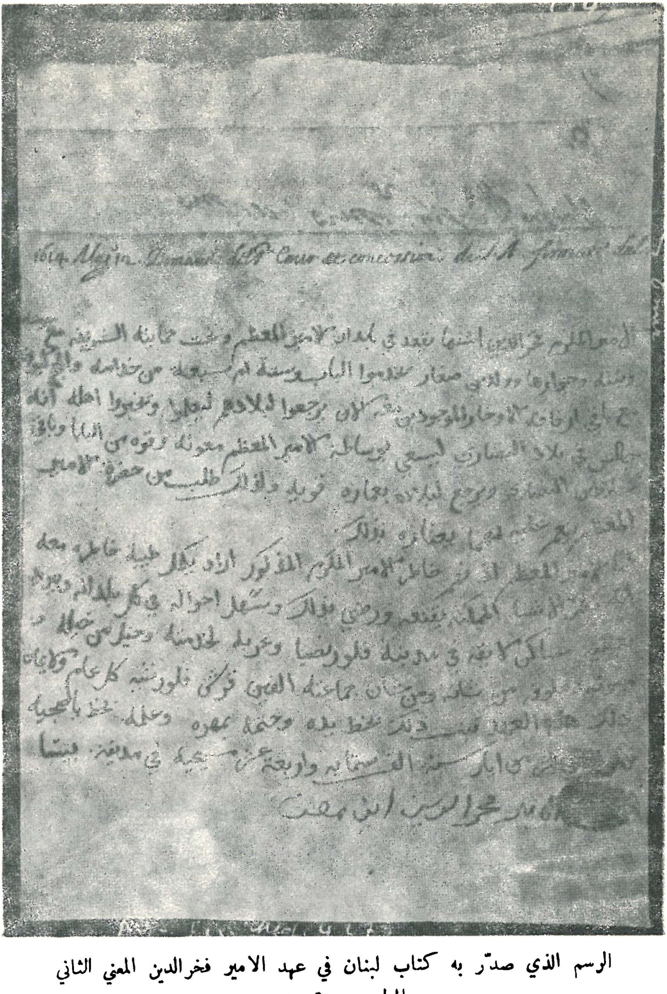
سؤال يبدو غريبا لان احدا مـن معاصريه المؤرخين لـم يشك في اسلامه • ولكن الغرابة تزول اذا علمنا ان فئة من المغرضين الذيـن هم طلائع الاستعمار حاولت التشكيك في اسلامه بمدارسها ومنشوراتها في سياق حرصها على اضفاء لون خاص على لبنان• وقد استعان بعضهم للتدليل على ذلك باتهام معاصري الامير المعني اياه بالكفر والزندقة بسبب ما قام به من الاصلاحات بعد عودته من اوروبا ، تلك الاصلاحات الحديثة التي كانت تعد من قبيل البدع ، وبسبب رعايته الاجانب ، والتزامه المساواة بين الطوائف حين كانت جميـع الدول الاوروبية والاسيوية لا تعترف بمثل هذه المساواة بين ابناء دينها وبين غيرهم من رعاياها (١) •

وقد تعرض الاستاذان اسد رستم وفؤاد افرام البستاني ناشرا كتاب الامير فخر الدين المعني في ترجمة مؤلف هذا الكتاب الشيخ احمد بن محمد الخالدي ، تعرضا لهذا الموضوع فقالا :

« ومن الغريب ان لا يكون احد من مترجمي الخالدي قد ذكر المؤلف في تعداد الكتب التي وضعها • ولعل السبب في ذلك يرجع الى الخالدي نفسه • فاما ان يكون قد توفي قبل انهاء مؤلفه هذا ، او ان يكـون قد اخفى امر هذا الكتاب لما اورده فيه من عبارات المدح والاحترام للامير

---

(١) اطلق بعض المؤرخين الافرنج عـلى الامير فخر الدين المعني الكبير لقب امير الدروز ويعود ذلك الى ان جبل لبنان الذي كان قاعدة الامارة كان معروفا باسم جبل الدروز خلال عهد الامراء المعنيين والشهابيين .



الوسم الذي صدّر به كتاب لبنان في عهد الامير فخرالدين المعني الثاني
المطبوع سنة ١٩٣٦

اللبناني فخر الدين المعني الذي اتهمه علماء ذلك العصر بالزندقة ، والخروج عن قواعد السنة • وقد يكون المحبي نفسه (١) أهمل ذكر هذا المؤلف ضنا بكرامة الخالدي ، ومحافظة على مكانته الدينية • ولا يخفى ما كانت عليه الناس في ذلك العصر مـن التعصب الطائفي ، وقصر النظر من هذا القبيل • »

وهذا الافتراض بالاضافة الى الصورة الفوتغرافية التي صدّر بها الناشران المشار اليهما كتاب الخالدي المذكور القى المزيد من الريبة والشك عند المرتابين في اسلام الامير • وهـاكم نص العبارة التي وردت في ذيل الصورة :

« الامير المكرم فخر الدين اشتها يقعد في بلدان الامير المعظم (٢) وتحت حمايته الشريفة مع حرمته وبنته وجوارها وولدين صغار يخدموا الباب وستة أم سبعة من خدامه والحج كيوان مـع باقي رفاقه الاوخار الموجودين معه الآن • يرجعوا لبلادهم ليعلموا ويخبروا أهله انه جالس في بلاد النصارى ليستعين بواسطة الامير المعظم معونة وقوة مـن البابا وباقي سلاطين النصارى ويرجع لبلاده بعمارة قوية • ولذلك طلب مـن حضرة الامير المعظم ينعم عليه بمهما يعتازه بذلك •

« اما الامير المعظم اذ فهم خاطر الامير المكرم المذكور اراد يكمل طيبة خاطره معه انه بكل الاشياء الممكنة يقنعه ورضي بذلك يسهل احواله في كل بلدانه ويريد ان يعطيه مساكن لائقة في مدينة فلورنصيا وعربة لخدمته وخيل من خيله ومونة وعلوفة مـن شأنه ومن شأن جماعته الفين قرش

---

(١) محمد المحبي صاحب كتاب « خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر » •

(٢) اي قوزما الثاني كران دوك توسكانا .

فلورنسية كل عام ولأيمان ذلك العهد ثبت ذلك بخط يده وختمه بمهره وعلّمه بخط باصبعيه في اليوم الثاني عشر من ايــار سنة الف وستماية واربعة عشر مسيحية في مدينة بيتسا (١) • »

وهنا تساءلنا عن القصد من تصدير كتاب الخالدي المذكور « الامير فخر الدين بن معن » بهذا الرسم الفوتوغرافي وهو غريب عن مخطوطته ؟

وفي تساؤلنا هذا ساورتنا الشكوك في صحة هذه الوثيقة لاسباب عديدة اهمها انها تتنافى مع الامثلة الكثيرة التي اوردناها والتي تدل على تعصب الامير المشار اليه لدينه ، وعلى رفضه التآمر على دولته • زد على ذلك ان توقيــع الامير فخر الدين هكذا « الامير فخر الدين ابن معن » يشدد ايماننا بان هذه الوثيقة غير صحيحة ، وانها من وضع المصدر الذي اخذت عنه • اذ ليس مــن المألوف عنــد الامراء وامثالهم ان يصدروا تواقيعهم بذكر الامير الا ان جاء مضافا الــى ذكر بلادهم في المناسبات الرسمية ، كما انه ليس من المعقول ان يصف الامير نفسه بالامير المكرم في رسالة يكتبها ويوقعها • فقد جاء في ذيل الصورة الفوتوغرافية المذكورة ما يلي :

« مثال من خط الامير فخر الدين وامضائه » فهل مــن المقبول ان يخط احد وثيقة او رسالة ما جاء اسمه فيها الا وكان موصوفا بالمكرم • وبعد هذا وذاك فاني اشك في ان الامير كان يكتب ، او في انه اذا كتب يحسن الخط ولو بمقدار الخط الضعيف الذي حررت بــه تلك الوثيقة وذلك ابان ما كان الشيخ احمد الخالدي وامثاله من بعض العلماء اذا كتب احدهم جاءت كتابته اقرب للعامية منها للفصحى • زد على ذلك ان الانباء التي دونها معاصرو الامير من المؤرخين ، وعلى رأسهم الصفدي الخالدي

---

(١) بيتسا اي بيزا .

كانت تتعارض مع ما جاء في هذا الرسم الفوتوغرافي ٠

فقد اتى معنا ان الامير فخر الدين جاءه نفر من قبل الدوكا الصونة في التنها يسألونه عن مقدار ما سيجدونه منه ، ومن بلاده من المعونات اذا هاجموا بلاد الشام وان الامير ، وقد ثارت ثائرته لهذا السؤال الغريب ، اخذ يثبط عزمهم حتى قال لهم « واما اليوم مالي حكم على نفسي » وحتى شرع ينوه لهم بقوة الاسلام وبقوة آل عثمان ٠ ثم لما عرضوا عليه التنصر ، وجربوا أغراءه ان استجاب لهم بشتى المساعدات أبى واستنكر ، وقال لهم « جينا لهذه البلاد لا كرامة دين ولا كرامة حكم ولا حكومة » ٠

كل هذا لا يتفق مع ما ورد في هذه الوثيقة ٠ بل يدل على ان الامير فخر الدين كان على الرغم من نقمته على دولته التي طاردت أباه واماتته شر ميتة ، ثم انتزعت منه زمام الحكم وجعلته يلجأ الى أوروبا هربا من شرها ، كان بالاضافة الى حرصه الشديد على دينه ، لا يريد شرا بهذه الدولة ، ولا يرضى التآمر مع أعدائها عليها اولئك الذين كانوا يريدون اتخاذه مطية لمآربهم ، واتخاذ بلاده رقبة جسر يجتازونه الى البلاد المقدسة ٠

وهناك دليل آخر على ان هذه الوثيقة موضوعة أسوة بكثير غيرها من الوثائق المنسوبة الى محفوظات أوروبا ، لما جاء فيها من ان الامير المعني « جاء يطلب عمارة قوية من البابا وباقي سلاطين النصارى للعودة الى بلاده في حين ان أسبانيا كانت تترقب مثل هذه الفرصة في حروبها وقتئذ المتصلة مع عدوتها دولة الخلافة ٠ فلماذا لم تبادر هي وحلفاؤها للعمل ، وتفيد من الامير ومن انصاره الكثر في بلاده ؟٠ ذلك لان الامير ، كان خلافا لما ورد في هذه الوثيقة ، كان غير متجاوب معها في هذا الامر ٠ وانما كانت هجرته الى أوروبا تعود الى الحملة القوية التي فاجأته بها السلطنة العثمانية على ما صرح به ، بغية النجاة من القتل الذي اصاب أباه ٠

وأما اتهام الامير بالزندقة والعزوف عن السنة اللذين نوه بهما ناشرا كتاب الصفدي بالمقدمة فمرده الى قيامه بالاصلاح والتجديد ايام كان هذا العمل ، ولا سيما اذا كان مقتبسا من اوروبا ، يعتبر بدعة وخروجا عن الدين على ان هذا الاتهام المجرد لا يعني ارتداده عن الاسلام •



السلطان ياوز سليم الذي فتح بلاد الشام ومصر وانتذع الخلافة من العرب

كان الامير فخر الدين مسلما ومتعبدا أيضا ؟

لقد برز تعصب الأمير للاسلام ليس في حلّه فقط ، حيث كان متهما بالزندقة من قبل المحافظين على التقاليد القديمة ، وانما في ترحاله أيضا في بلاد الاجانب الذين يريدونه غير متعصب حيث لا رقيب عليه سواهم الا ربه • وحسبنا ان نقرأ كتاب الخالدي المذكور في الملحق رقم ١ « رحلة الامير فخر الدين الى أوروبة » لنرى الامثلة الكثيرة ليس على تمسك هذا الامير بالاسلام فحسب ، بل على مواظبته في غربته على العبادة والقيام بالفرائض الدينية وأكثر ، مع علمه وقتئذ ان تعصبه لدينه وملته لا يسر مضيفيه الذين لجأ الى ديارهم • فهناك أبى واستكبر التواطؤ معهم على دولة الخلافة على الرغم من أنه كان مغاضبا عليها ، وهناك رد بألم مراودتهم له على تبديل دينه ، ورفض كل المغريات التي عرضوها عليه ان فعل وهو غير آبه لما سيكون لهذا الرد من عواقب • وفضلا عن ذلك فان استمراره في غضون وجوده لاجئا عندهم ، على القيام بالفروض الدينية ، وبممارسة الشعائر الاسلامية هو حجة قاطعة على انه كان مسلما ، ومتدينا أيضا •

لا جرم في أن كتاب الخالدي حجة في وصف الامير فخر الدين وأسرته ودليلنا على ذلك ثناء ناشري كتابه المحققين اللامعين عليه أحسن ثناء • اذن فلنسمع لما جاء في فاتحة هذا الكتاب من الاشادة بتدين الامير فخر الدين حيث قال :

« الى ان منّ الله عليهم بدولة مؤبدة ، ونعمة مخلدة ، الا وهي الدولة المعنية التي هي بامتثال الشرع معنية ، وولى عليها من هو فخر

للدين ، وعماد للمساكين وكهف للمرتجين ومدد للملتجين الامير الجليل بلا الباس ، المعظم قدره عند الله وعند الناس : الامير فخر الدين ابن الامير الكبير الاجل الامير قرقماس في أثناء سنة احدى عشرة وألف الهجرية • » الخ (١)

على ان هذا الوصف للامير فخر الدين واسرته الذي ينوه بتمسكهما بالاسلام ليس هو حجتنا على ما نقول لان كثيرا من المؤرخين يذهبون مع الاغراض الى المدح والثناء ، وانما حجتنا ما ورد في كتاب الخالدي من أعمال قام بها الامير المعني المشار اليه خلال رحلته في أوروبا تبرهن على انه كان ، بالاضافة الى حرصه على دينه ، لا يترك شيئا من فرائض هذا الدين ونوافله ، وهو الى ذلك يغالي في اتباع أوامره واجتناب نواهيه على ما سنذكره فيما يلي •

١ ـ الامير في توسكانا ضيفا على الكران دوك

لما وصل الامير الى فلورنسا عاصمة توسكانا أبى أن يأكل من ذبيحة غير المسلمين ذاهبا في ذلك مذهب المغالين لان الشرع الاسلامي أحلّ طعام أهل الكتاب ، وانما حرم الذبائح التي ذكر أسم غير الله عليها • قال الخالدي صفحة (٢١٢) :

« ولما نزل حضرة الامير في البلاص (أي القصر) القديم عينوا لهم

(١) ونقل عيسى اسكندر المعلوف في كتابه « تاريخ الامير فخر الدين الثاني » عن الخالدي فصلا جعل عنوانه « اخلاق فخر الدين وولده علي » وختمه بقوله : « نور الهدى وسلالة الامراء ادامه الله كلا منهما ببركة النبي (ص) ومتع المسلمين بطول حياتهما » . كما انشأ فصلا (ص ٢٢ وما بعدها) عن اسرتهما آل معن وانسابهم واسلوبهم ليس ذلك بالاستناد الى اصلهم فقط وانما استنادا الى مآتيهم ومظاهراتهم وجوامعهم وغير ذلك .

طباخين ووكلا يقومون لهم مأكلة مفتخرة بكرة وعشية ان كان في السفر والاقامة شيء بزيادة • ولما علموا ان الامير ما مراده يأكل الا من ذبيحة المسلمين بقوا يطلبوا رجال من جماعته حتى يذبحوا • وعين في هذا الخصوص من جماعته الحاج محمد قواس باشي • ولما ما يكون حاضر يذبح ناصيف أصله سكماني وصار يسير في مالطة واستفكّه الامير في ذلك الوقت • »

ويبدو ان ما أظهره الامير من تمسكه بدينه خلال وجوده في فلورنسا ضيفا على حاكمها غيّر قلب هذا الحاكم عليه : فبعد ان كان هذا الكران دوك قد أجزل الاكرام له والحفاوة به عند قدومه أخذ يقتّر عليه من بعد على ما ورد في كتاب الخالدي (صفحة ٢١٦) حيث قال :

« وعين لهم دار في فلورنسا وتوجهوا من اليقورنا الى دار المذكورة سكنوها قرب سنتين وبقا الدوكا يعطيهم الالفين شكوت كل ثلاثة شهور مرة وقت برضة خاطر ووقت بتكدير • »

٢ ـ الامير في نابولي ضيفا على ملك اسبانيا

ولكن من الانصاف القول ان قوزما الثاني كران دوك توسكانا ظل يتجنب التحرش بالامير في شؤونه الدينية طوال اقامته في ضيافته • ولكن الامير ما أن انتقل الى البلاد الاخرى التابعة لملك اسبانيا مستجيبا دعوة عاهلها وذلك سنة ١٦١٦ حتى أصبح عرضة لمساومات سياسية ودينية على التوالي • وقد أشار الخالدي الى هذه المساومات والمضايقات حيث قال في (صفحة ٢٣٤) ما يلي ، وذلك في أحداث سنة ١٦١٥ م• :

« وفي بعض أيام جاؤا أكابر لعند الامير فخر الدين أرسلهم الدوكا الصونا في التنها وكلموه وقالوا ان رحنا الى بلادكم قدر أيش يجو أناس معنا من أهلكم وبلادكم فقال لهم الامير هذا أمر دين ما أقدر أكفل أحد

لا أخي ولا ولدي ولا أهـل بلادي • بل أنا عندكم وقدامكم • فقالوا اذا ما جاؤا معنا ما يبيعونا ذخيرة فقال لهم أنتم تعرفوا قوة دين الاسلام وقوة آل عثمان بل الذي مراده يقهر القوتين ما يتكل على مشترى ذخيرة من الناس • فاحكوا في لسان بعضهم بعضا بلسانهم • وهزوا رؤوسهم من هذا الجواب • فقالوا له كم كنت تجمع عسكري في بلادك ؟ فقال لهم يوم كان المنصب علينا والحكم والحكومة في أيدينا جمعنا أزيد مـن عشرة آلاف رجل من غير الذين يتأخروا في البلاد • وأما اليوم ما لي حكم الا على نفسي • فتعجبوا من جوابه لذلك وتركوا الكلام معه • ومن ذلك اليوم وهذه الجوابات ما عادوا داروا بالهم منه مثل عادتهم ولا عادوا أعطوا العلوفة المعتادة وبقا الامير يبيع صيغه وحوايج ويخرج على نفسه وعياله الذي معه وبقي على هذه الحال مدة في نابل • »

وهكذا فلما رفض الامير رفضا باتا ان يتآمر مع عمال ملك اسبانيا على دولته على الرغم من أنه كان غاضبا عليها ، وشعر هؤلاء بأن أيـة فائدة لا ترتجى منه في الناحية السياسية تحولوا الى محاولة الافادة منه في الناحية الدينية مستهلين ذلك بالتضييق عليه في عبـادته بالاضافة الـى التضييق عليه في صرف المرتبات المعينة له • وقد تحدث الخالدي عن ذلك في الصفحة « ٢٣٥ » حيث قال : وفي قوله اشارة الى مقدار حرص الامير على العبادة والتقوى •

« وبعد ذلك كان عند الامير يسير معتوق للشيخ نـاصر المذكور ، وكان رجل متصوف بقا يصلي في الامير جماعة في رمضان وأحمد صبايا من بيروت بقا يؤذن فحين سمعوا راحوا أحكوا للدوكا وأكابر دينهم • وكذلك الامير كان عنده في الدار سلم بلولب وكمل السلم وعلاه حتـى بقا يشرف على البحر والاسكلة وعمل قرب رأس السلم بيت حط فيـه حمام فقال الاسير للشيخ سمعنا انه جايه لعندكم ناس مـن أكابر دينهم

يسايلوكم عن ذلك • فتاني يوم جاؤا رهبان وبعض أكابر وسايلوهم عن ذلك • وقالوا أنتم تصلوا جماعة وعملتم مأذنة فكان جواب الامير صحيح منصلي فقالوا له نحن ما نمنعكم عن صلاتكم فقال لهم جايز كل من يصلي وحده فقال الرهبان سمعنا أنكم عملتم مأذنة فقال لهم رأينا دورة سلم في الدار مدورة كتلناها حتى نبقا نكشف على الاسكلة والمراكب • فقالوا عملتم بجنبه بيت جامع فقال عملنا بيت لاجل الحمام • فقالوا مرادنا ننظره فقال لهم جايز • وطلع قدامهم أرواهم الموضع ، فلما نظروا بيوت الحمـام موجودة مقطعة وما فيه موضع محراب للصلاة نزلوا وتركوا ذلك الكلام • وبعد ذلك كان عند الامير ذلك اليسير والشيخ ناصر الدين من صفد وجاء اليسير الى الشيخ وقال له فيه رجل مراده يجتمع فيك في جنينة الدوكـا فقال له جايز فراح قدامه الاسير وراح معه فلما وصل الى الجنينة قعـد يتفرج الا والدوكا باشة نابل طالع لعنده وأتاخذ منه الشيخ ناصر فطيب خاطره وقال له مرادنا نرسل معك كلام الى الامير فدخل معه الى مشلح الحمام وقال له أنت من أين وكم لك سنة في خدمة الامير ؟ فقال له أنا من صيدا « وهو من صفد من أيالة صيدا » ولي في خدمة الامير مـن صغري ، فشال له الدوكا مكتوب وقال له هذا من سلطان اسبانيا مضمونه أنكان الامير فخر الدين يدخل في ديننا نعطيه حكم على قدر ما كان عاطيه سلطان المسلمين في بلاده ، وأزيد ، وانكان ما يرضا بذلك ان أراد يقعد وان أراد يروح لبلاده • فقال له نعرض الكلام على الامير ونجيب لـك الجواب فجاء الشيخ ناصر الدين أحكا للامير ذلك فقال الامير : روح رد الجواب على الدوكا وتشكر من سلطان اسبانيا ومنه وقول له الامير قال : « ما جينا الى هذه البلاد لا كرامة دين ، ولا كرامة حكم ولا حكومة بل لما جاء علينا عسكر ثقيل جينا أحتمينا عندكم وأحميتوا رأسه وراعيتوه ولكم بذلك الفضل والجميل والمنة • ان أردتم هو قاعد عندكم بتوابعه على حاله وان أرسلتوه الى بلاده فهو المراد لان له أهل وتوابع وبلاد • »

وكان جواب الامير فيصلا بينه وبين مضيفيه على انه كان ، في نفس الوقت، حافزا له على التفكير في العودة الى بلاده ، وفي الحرص الشديد على هذه العودة سريعا . وقد تابع الخالدي في صفحة « ٢٣٧ » الحديث عما أعترى الامير من الالم بعد ذلك من هذا الوضع ، وما ساوره من الرغبة في العودة الى بلاده ، وتحدث عن فرحه وفرح عيلته عندما وعده الدوكا باعطائه جواز السفر حتى انهم هو وعيلته « لم يرقدوا تلك الليلة من شدة الفرح والانشراح » ، ثم أشار الى تردد نائب الملك في نابولي في اعطائه جواز السفر على الرغم من أن عيلته كانت تقيم في المركب الذي أعده للرحيل ومعها جثمان ابنته التي توفيت وأبى أن يدفنها هناك . الى أن قال في سياق التعبير عن ما اعترى الامير من الآلام وذلك في أحداث ١٦١٥ م ما يلي : صفحة ٢٣٧ :

« وكان الامير شاري صندوق بارود شاله من جوف المركب وحطه تحت الاعيال وقال ان ألزمنا الدوكا في النزول من المركب نعرف ان ما بقا من أيديهم خلاص ومعنا أعيال وأولاد . وانه اذا آيس من الدوكا يعطي البارود النار ويحرق له والى الاعيال والاولاد ، ونزل من المركب على هذه النية فراح لعند الدوكا حتى يعطيه فصل الكلام الذي لا بد عنه وقال الى الدوكا نحن ما نزلنا الى المركب الأعيال والأسباب الا بأجازتك ورضاك ولهم ثمان أيام في هذا الشوب وعليهم صيام رمضان . مرادنا منك ورقة الاجازة في السفر . فقالت له امرأته ما دامك اعطيته قول وأقرار في التوجه الى بلاده أعطيه ورقة الأجازة وخليهم يتوجهوا الأن أعياله وصاروا في المركب . فقال جايز حتى يجي عندي عشية حتى أكتب له ورقة الأجازة . ولما عاود لعنده ثاني ليلة حط له كرسي وقعده قباله وقال له الى أين تروح فقال الى صيدا . فقال له من حاكم صيدا فقال له ولدي . فقال أيش عمره . فقال عشرين سنة . فقال له ما تفزع من ولدك

وأهلك وأهل بلادك • فقال أنا ما فارقتهم على بغض ولا على عداوة • فقال أذا ما فزعت منهم ما تفزع من السلطان • فقال أنا أيش أريد من السلطان أنا راضي باللقمة وشربة الماء وأنظر والدتي وأهلي • وأن ما رضوا مني بذلك والا الجبال واسعة • وان كان ما تسعنا الجبال والا" الدنيا واسعة • ونكون نفدنا كلام والدتنا « وكانت قد كاتبته طالبة منه العودة » فقال له الدوكا تروح الى أسلامبول فقال له لو كنت أروح الى أسلامبول ما جيت الى عندكم • كأنهم ظنوا أن الأمير يروح الى أسلامبول ويحكي عن بلادهم وأحوالهم • فلما قال لهم هذا الجواب طاب خاطرهم فقال غدا أرسل لنا قارلو الترجمان حتى نكتب لك ورقة الأجازة • وجابها الترجمان المذكور الى الأمير فشال الأمير الكيس من جيبه أعطاه أياه بما فيه بشارته وقال له روح ودي الورقة الى عيالنا الذي في المركب حتى يطيب خاطرهم • وطلع للمركب وأعطاهم الورقة فشالوا صوار ذهب من يدهم وأعطوه اياه بشارة • وتوجه الامير لعند الدوكا يودعه ويستكثر خيره • ثم أستقل المركب عائدا الى بلاده ولسان حاله يقول :

بلادي وأن جارت علي عزيزة   وأهلي وأن ضنوا علي كرام

وفي غضون عودته كان يستعرض الأحداث التي مر بها ومرت عليه في ديار الغربة ، ويقابل ما بين بلاده وبين غيرها على صعيد السماحة الدينية وما راء كمن سمع •

وبعد هذا الاستعراض الذي ظهر فيه جليا رفض الامير فخر الدين التآمر على دولته التي طاردته ، وأستنكاره مساومة مضيفيه له على دينه ، واستمراره على ممارسة شعائر هذا الدين ، والمواظبة على القيام بفروضه وسننه ونوافله برز امام عيني هذا السؤال :

« أيجوز لي أن أتساءل مرة أخرى مع المغرضين اذا كان هذا الأمير غير مسلم ، أو أن أذهب مذهب القائلين بأنه من الزنادقة ؟

لماذا اتهم الامير في دينه ؟

كان الشرق جميعه أيام الأمير فخر الدين المعني الثاني « ١٥٧٢ — ١٦٣٥ » قد انحدر الى هاوية من الجمود والانحطاط لا اسوء منها بينما كانت أوروبا تنهض من كبوتها ، وتشرع ببناء تمدنها الحديث على وجه السرعة مستفيدة من الأموال الوافرة التي كانت تتدفق عليها من امريكا في اعقاب اكتشافها •

وكان الشرق في ذلك الحين ، وهو مصدر المدنيات ، لا يعتز بماضيه فقط ، وانما كان لا يزال يفاخر بحاضره، على الرغم مما أتتابه من الأنحطاط وكان الى ذلك لا يعترف لأحد بالتقدم عليه ، ويأنف من أقتباس أي شيء جديد من الغرب ، على اعتبار ان هذا الجديد هو مناف للدين ، وهو بدعة « وكل بدعة في النار • »

وكانت السلطنة العثمانية وقتئذ التي هي دولة الأمير المعني المتبوعة لا تزال تعتبر أعظم دول الشرق الأوسط على الرغم من أن حروبها المتواصلة مع أوروبا ، ولا سيما مع النمسا وروسيا ، جعلتها تتحول الى الأنحدار ، وتفقد تدريجيا كثيرا من بلادها ، وكثيرا من مميزاتها الدولية • بيد أنها كانت مع ذلك ، على الرغم من قربها من مهد التمدن الحديث ، أشد الدول حذرا من أصحاب هذا التمدن ، وأشدهن زهدا بالتشبه بهم ، والأخذ عنهم حتى في الشؤون العسكرية التي كانت تفرضها حاجات المجابهة • واذا حاول أحد السلاطين ان يتزحزح عن هذا الموقف كان مصيره التكفير والقتل • وهذا كان مصير السلطان مصطفى الثالث « ١٧٥٧ — ١٧٧٤ » والسلطان سليم الثالث « ١٧٨٩ — ١٨٠٧ » وغيرهما وذلك بعد مرور عصر

وعصرين على زمن الأمير المعني •

واذا شئت ان تتندر معنا بالأمثلة على ما كانت عليه السلطنة من الجمود والحذر من كل شيء أوروبي فأقرأ تاريخ جودت باشا الوزير التركي ، وأسمعه يروي مثالا على ذلك وقع في عهد السلطان مصطفى الثالث حيث قال :

« لما عاد رسمي أفندي من أوروبا ، وأخذ يشرح ليوسف آفندي أحد المقربين من السلطان ما شاهد فيها من العمران والتقدم ، تطرق الى ذكر المحاجر الصحية وفوائدها في دفع غوائل الأوبئة التي كانت بلاد السلطنة عرضة لها ، وأقترح اقامة مثل هذه المحاجر للوقاية ، فأنتفض يوسف أفندي أنتفاضة النمر ، وقال له : « كنت أظنك ذكيا عاقلا تفكر في العواقب فاذا بي أراك على خلاف ما ظننت • أنت تعلم ان مصدر تجنب الأوروبيين الأقبال على بلادنا يعود الى خوفهم من هذه الامراض السارية فيها • فاذا أقمنا المحاجر الصحية ، فلسوف يكون ذلك سببا لتهافتهم على السلطنة المحروسة فكيف يتسنى لنا من بعد ان نسوسهم ، ونأمن بالتالي شرهم ؟ »

ثم جاء ، بعد السلطان مصطفى ، السلطان سليم المشار اليه ، ولما حاول في مطلع القرن التاسع عشر تنظيم الجيش على النمط الأوروبي الحديث كانت هذه المحاولة السبب في خلعه أستنادا الى فتوى أصدرها المفتي مفادها « أن كل سلطان يدخل الى البلاد أنظمة الأفرنج وعوائدهم ، ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحا للملك» • ثم قتلوه بتهمة الكفر •

وعلى الرغم من ان السلطان محمود الثاني « ١٨٠٨ ــ ١٨٣٩ » أتى بما لم تستطعه الأوائل في تحقيق بعض الاصلاحات وذلك بعد ان تم له القضاء على فرقة الانكشارية العسكرية المعارضة لكل اصلاح ، فلم يسلم مع ذلك من التهم توجه اليه من كل صوب ، ولم يسلم من المصاعب •

وكذلك كان شأن خلفه السلطان عبد المجيد « ١٨٣٩ ـ ١٨٦١ » ، فما أن أعلن ما أسموه بالتنظيمات في السنة الأولى من ولايته ، ثم خط شريف سنة ١٨٥٦ ، وذلك على أساس المساواة بين الرعية في الحقوق والواجبات ، حتى فوجيء بأنتفاضات الرجعيين ، وكان أشدها في البانيا . على ان هذا التعصب المقرون بالحذر وأن أخذ يخف تدريجيا بمرور الزمان ولكنه ظل كامنا في النفوس الى زمن قريب نتيجة للخوف من الخطر الأوروبي . فلما شاء الصدر الأعظم فؤاد باشا في عهد السلطان عبد العزيز « ١٨٦١ ـ ١٨٧٦ » أن يمنح شركة أجنبية أمتيازا لمد خط حديدي في أحدى الولايات ، وكان أول أمتياز من نوعه ، قوبل عمله بالسخط من الرأي العام بحجة ان النفوذ الاجنبي سيمتد مع امتداد خطوط هذه الشركة .

وقد روى فامبرى Vambery ، في سياق هذا الموضوع ، أنه « شاهد أمرأة يغمى عليها في تركيا حينما تناولت من أبنها المقيم في أوروبا رسمه وهو يتزيا بالزي الأفرنجي . » . كل ذلك كان ناتجا عن خوف العثمانيين حكومة وشعبا من الأجانب المتألبين عليهم الذين كانوا يتربصون بهم الدوائر ويثيرون عليهم غير الاتراك من رعاياهم .

لذلك كان من الطبيعي أن يتهم الأمير فخر الدين بدينه أسوة بغيره من العثمانيين الذين تصدوا مثله للأصلاح ، وذلك حينما شرع باكرا أثر عودته من أوروبا يبني وطنه الجديد على غرار ما رآه فيها وخصوصا أن هذا البناء لم يكن يقتصر على العمران ، وتنظيم الجيش ، بل تعدى ذلك الى نطاق المساواة بين الرعية على أختلاف طوائفها ، والى الترحيب بالتجار الأجانب وحمايتهم في البر والبحر ، والى الترخيص للارساليات الدينية في الانتشار ببلاده فضلا عن رعايته لها . وذلك على نقيض التعصب الديني الذي كان عرضة له أبان وجوده في بلاد الأجانب على الرغم مما احرزته تلك البلاد من التمدن والحضارة .

واذا أخذنا بعين الاعتبار ، ان الامير قـام بهذا التجدد في اوائل القرن السابع عشر حين لم يكن أحد من عواهل الشرق كافة يفكر في مثل ذلك ، فضلا عن أن أحدا غيره لم يكن قام بمثل ما قام به ، وأنه بالأضافة الى ذلك أعلن المساواة بين رعيته قبل أكثر من قرنين من اصدار السلطان عبد المجيد كلا من «التنظيمات» و «خط شريف» . اذا اخذنا بعين الاعتبار هذا السبق في الخروج من نطاق الجمود ، وفي الخروج من التقاليد البالية التي كان الجاهلون يحسبونها من الدين أدركنا العظمة التي كان يتحلى بها ابن لبنان العربي ، وأدركنا سبب أتهامه بالخروج عن قواعد السنة ، وسبب نقمة معاصريه عليه الى حد أن هذه النقمة كانت تشمل الذيـن تعرضوا للثناء عليه كالخالدي المشار اليه .

والجدير بالذكر هنا ان عظمة هذا الامير تتجلى أكثر فأكثر حينما نعلم أنه لم يقم بهذا التجدد عن تهاون في دينه ، وأنما قام به وفقا لحقيقـة الشرع ، وطبقا للقاعدة الشرعية الأسلامية التي تقول « تتبدل الأحكام بتبدل الأزمان » . خصوصا وانه قام بذلك وهو يحافظ على شعائر الدين ، ويوالي صلواته وصيامه وزكاته وذلك في حله ، كما كان في ترحاله . والغربة محك الرجال .

الفصل الخامس

الامير بشير شهاب المعروف بالكبير

هل وفق عهد الانتداب بأتخاذه شعاراً للبنان واستقلاله ؟



الامير بشير الشهابي الكبير وقصره في بيت الدين
بريشة الرسام الاستاذ خليل الغريب

الامير بشير شــهاب الثانــي هل كــان مستقلا وكبيرا ، وهل كان احق من سواه بهــذا اللقب ؟

أطلق المؤرخون المتأخرون لقب الكبير على الأمير بشير عمر قاسم شهاب تمييزا له عن سمييه الأمير بشير الذي سبقه ، والأمير بشير الذي خلفه ، وتقديرا له من قبلهم على الاعمــال البناءة التي قام بهــا ، ولا سيما عندما أتيح له أن يتمتع بأستقرار نسبي في عهدي متسلم عكا سليمان باشا ، والحملة المصرية ، ونظراً للأحداث الكبيرة التي عاصرته وعاصرها خلال مدة حكمة الطويل المتقطع من سنة ١٧٨٨ الى سنة ١٨٤٠ ٠

وقد وصفوه بأنه منع المغارم ، وضبط الضرائب ، ونشر لواء العدل ، ونظم الجيش فبلغ عدده في عهده خمسة عشر الف مقاتل ، وأجرى ماء نبع الفوار من قرية زحلته الى بتدين ، وبنى جسر نهر الكلب ، وأصلح الدرج المجاور له ، ورمم رصيف المعاملتين ، واهتم بالأمور الصحية ، والشؤون التجارية هذا فضلا عن مساهمته في الاحداث السياسية المعاصرة ٠

ثم لما أراد بعض هؤلاء المؤرخين في عهد الأنتداب الفرنسي أن يتخذوا من هذا الأمير ومن الامير فخر الدين شعارا للبنان المستقل في عهد كل من الأمراء آل معن ، وآل شهاب أضفوا عليه صفات أخرى تؤهله لأن يحمل لقب الكبير ، فزعموا أنه باعث أمجاد لبنان ، ومحيي تراثه المجيد ، وأنه كان صنوا لمن عاصرهم وعاصروه من الوزراء والباشوات ٠ ناهيك بأنه كان على مستوى الأمير فخر الدين الكبير ٠

فهل كان الامير حقا كذلك ؟ وهل كان جديرا بأن يلقب بالكبير ؟

ربما كان الخوض في هذا الموضوع شائكا ، ولا يجوز التعرض له

خشية الأساءة الى الذين أصبحوا ، بقوة الأستمرار ، يؤمنون بما زعم هؤلاء المؤرخون ، ويقدسون الشعار الذي نصبه لهم بناة الكيان اللبناني في عهد الأنتداب وأحرقوا حوله البخور ، ولكن الحقيقة يجب ان تقال في غضون بناء لبناننا الجديد • وليس ذلك حرصا على سلامة التاريخ من التزييف فقط ، وانما بغية توحيد معلومات الجيل الطالع توحيدا فكريا يؤمن الوحدة الوطنية على وجه صحيح • وقد شجعني على خوض هذا الموضوع أيماني بأن اللبنانيين أصبحوا اذا فاخروا فأنما يفاخرون قبل كل شيء بكيانهم الجديد ، وبما لديهم من حرية الرأي في هذا الكيان ، وأنهم أدركوا مرتبة من التعقل جعلتهم لا يتهمون أحدا بالمروق من الوطنية اذا كشف النقاب عن رأي معارض •

وعلى هذا الاعتقاد فاني لا أتورع من القول بصراحة ان الامير بشير الملقب بالكبير لم يكن هو الذي يستحق هذا اللقب من الاسرة الشهابية ، والذي يستحق بالتالي ان يكون شعارا للبنان • وربما كان الأستاذ يوسف يزبك مصيبا في ترجيحه الامير يوسف ملحم شهاب على غيره لهذا الشعار ، ذاك الذي حكم لبنان ثماني عشرة سنة « ١٧٧٠ ــ ١٧٨٨ » • وقد نوه به الأستاذ يزبك في الجزء الأول من مجلته ((أوراق لبنانية)) ومضى يقول : « وكان عظيما أهمل المؤرخون معظم تاريخه ولم ينصفوه خوفا من خلفه وعدوه بشير الثاني • »

والواقع فان الأمير حيدر موسى الحاصباني ، وهو أول من تولى الحكم من الشهابيين بعد الأميربشير حسن الريشاني « ١٧٠٦ ــ ١٧٣٢ » م كان أجدر من الاثنين بحمل لقب الكبير : فعدا أنه عرف منذ ابتداء امارته بطيب الأخلاق ، ومضاء العزيمة فان اياديه البيضاء في تنظيم ادارته الداخلية ، وأصلاح شؤون لبنان ، وتحسين أحوال الرعية لا تذكر الا وتشكر ، كما ان تصرفاته الحكيمة جعلت امراء ومشائخ بلاد بشارة

ومرجعيون وحاصبيا وراشيا والبقاع والضنية يظاهرونه ويأتمرون بأمره . وهي أقطاعات تشمل معظم ولاية الأمير فخر الدين المعني الكبير الواسعة الأطراف. وهو الذي سحق الحزب اليمني في معركة عين داره سنة ١٧١١ م فانقذ البلاد من شر التنازع التي كانت عرضة له ، ومن المصائب التي كانت تلازمه . ولعل الاستاذ يزبك رجح عليه الأمير يوسف المشار اليه لأنه أستطاع بمعونة الدولة البطش بالمشائخ آل حمادة، الجعفريين في كسروان ، وأستطاع بالتالي ان يكون الرائد الأول في أعطاء لبنان لونه الجديد .

أقول قولي هذا دون مراعاة لما كان للامير بشير المالطي من عطف على أسرتنا وتقدير لها . من ذلك ان أهل قرية عينعنوب التي لجأت اليها الاسرة في عهده فرارا من الطاعون الذي انتشر في بيروت سنة ١٧٩٧ ، ان أهل هذه القرية أيقظتهم في صباح يوم أجراس قافلة تدخل بلدتهم وتسأل عن منزل آل بيهم . فاذا بهم يعلمون بأن هذه القافلة المحملة بشتى انواع المؤنة آتية من قبل الامير بشير هدية منه لاسرتنا تأمينا لحاجاتها في الجبل . وهي بادرة وان كانت تذكر فتشكر ولكن التاريخ أقدس من العواطف .

والذي أريد أن أصرح به هو أن الأمير بشير عمر قاسم المشار اليه البسه المؤرخون ثوبا فضفاضا حينما جعلوه الكبير دون سواه من أسرته ، وحين أدرجوا أسمه بين باعثي أمجاد لبنان ، وأخذوا ينوهون به، وبالأعمال المجيدة التي قام بها ، وهي لو صحت لما كانت شيئا مذكورا بالنسبة للمدة الطويلة التي قضاها في الحكم : فقد بالغوا حينما زعموا ان عدد جيشه النظامي بلغ خمسة عشر الف مقاتل ، ذلك لأن الفقر الذي انتشر بلبنان في عهد أمارته لم يكن يساعده على تنظيم هذا العدد في الجيش الذي يزيد نحو الثلث عن عدد جنود الامير المعني الكبير ولان خزينة مال الامارة التي كانت فارغة على الدوام من جراء تطلبات باشوات صيدا أو عكا ما كانت مؤهبة لتأمين نفقات مثل هذا العدد . زد على ذلك أنهم عدوا في جملة مفاخر

الأمير قناة نهر الصفا التي أجرى الماء فيها من زحلته الى بتدين بينما أن هذه القناة لم يكن القصد منها الاصلاح الزراعي ، وانما كان القصد منها تأمين المياه الوافرة الى قصره الخاص في بتدين ، وبالتالي الى هذه القرية التي اختارها مقاما له ولحاشيته . وفضلا عن ذلك زعموا ان الامير بشير شيد جسر نهر الكلب الأول في حين أن هذا الجسر أقدم من عهده ، ولكن الأمير انما رممه وأصلحه .

والجدير بالذكر هنا أن الأمير بشير لم يكن معروفا في عهده بالكبير ، وأنما كان هذا اللقب هو لقب الأمير حيدر موسى الحاصباني الذي سبقه بنحو قرن على الامارة ، وآية ذلك صك وقف قصر بيت الدين الذي أوقفه الأمير بشير سنة ١٢٥٥ هـ على زوجته حسن جهان . وسيأتي ذكره في الفصل الثامن من هذا الكتاب .

ففي هذا الصك المنظم في محكمة بيروت الشرعية ، الذي كان جدي الحاج مصطفى بيهم في عداد الشهود الموقعين عليه ، ورد اسم الامير حيدر المومى اليه مع لقب الكبير ، بينما أن صفة الواقف في الصك كانت ، بعد عبارات التمجيد المتعارف عليها في ذلك العصر ، هكذا : « الحاكم يومئذ بجبل الشوف من أعمال مدينة صيدا المحروسة » دون أي ذكر لكلمة الكبير مضافة الى اسم الأمير بشير .

والواقع فأن الأمير بشير ، فضلا عن أنه لم يكن معروفا بالكبير في عصره ، ولا في الأيام التي جاءت مباشرة بعده ، فقد كان تاريخه حافلا بالمآخذ سواء أكان ذلك في الشؤون الداخلية ، أم الخارجية مما يجعله غير جدير بأن ينتزع هذا اللقب من سواه من أسرته . وقد دون هذه المآخذ معاصروه من المؤرخين ، ثم الذين أتوا بعدهم . وكان مدارها ما يلي:

ـ مواقفه من أصحاب المناصب اللبنانيين موقف الأسد

ـ مواقفه تجاه أولي الأمر الاتراك موقف النعامة

ـ مواقفه ازاء متسلمي صيدا موقف التحصيلدار (الجابي)

ـ تقلبه وراء مصلحته الشخصية في السياسة

ـ أثارته النقمة عليه في الداخل والخارج •

ـ اضاعته على نفسه، وعلى اسرته، وعلى قومه الفرص التي سنحت لاستقلال جبال لبنان •

وهذا ما سنتحدث عنه في هذا الفصل معتمدين ، على الأكثر ، على كتاب الامير حيدر احمد شهاب « الغرر الحسان في اخبار ابناء الزمان » الذي اراد به مؤلفه التنويه بأسر الامراء الشهابيين ، ذلك الكتاب الذي نشرت مديرية المعارف والفنون الجميلة بلبنان الجزئين الثاني والثالث منه وذلك فيعهد الأتتداب الفرنسي بعنوان ((لبنان في عهد الأمراء الشهابيين)) وذلك بغية أحياء التراث اللبناني • وهو على ثلاثة اقسام •

وانا سنحيط بهلالين العبارات التي سنستشهد بها من هذا الكتاب مع ذكر ارقام صفحاتها ، وسننقلها حرفيا دون تصحيح شيء منها • وأما الذي سننقله عن غيره من التواريخ فانا سنذكر اسم مصدره تاركين للقارىء الكريم الحكم فيما اذا كان الأمير بشير هو أحق من سواه من آل شهاب في أن يمثل وجه لبنان في التاريخ • أم أن غيره كان أحق منه في ذلك • على أنا وأن نقلنا عن المؤرخين مآخذهم الكثيرة على الأمير بشير الكبير فانا لا نستطيع ان ننسى شخصية اخرى مشكورة كانت له في نطاق توطيد الامن، وانصاف المظلومين، وفي المحافظة على الاخلاق العربية الحميدة• ناهيك بتنشيطه الادب ورعاية الادباء ، وأهتمامه بالناحية العسكرية • والواقع فان هذه الحسنات لم تكن كافية للطمس على السيئات التي عددها المؤرخون ولذلك فانها لم تؤهله لان يكون ذلك الرجل المثالي الذي يصلح لأن يعد مفخرة للبنان ، وشعارا له في عهده الجديد عهد النور والأشعاع •

مواقف الامير تجـاه اصحاب المناصب اللبنانيين (١)

ولد الأمير بشير قاسم شهاب في قرية غزير سنة ١٧٦٧ م• وعندمـا بلغ السادسة عشرة من عمره التحق بالأمير يوسف ملحم شهاب في ديـر القمر الذي كان متوليا على الشوف والمتن وكسروان من قبل أحمد باشا الجزار عامل السلطنة العثمانية على صيدا • وقد رحب به الأمير يوسف ورعاه ، وألقى أعتماده عليه في بعض المهمات •

ولكن الأمير بشير كان شديد المطامع ، لا يثنيه عن مطامعه قرابة أو أي شيء آخر ، فأخذ يتقرب الى الجزار سرا بشتى الوسائل حتى كسب عطفه ، « وكانت له معه الدسايس والرسايل بهذا الشأن » (ص ١٤٧) حتى اذا تعكر صفو خاطر الجزار على الامير يوسف من جراء عجزه عن اداء الضريبة المترتبة عليه برز الأمير بشير الى الميدان ، وأستعان بالشيخ بشير جنبلاط ، فأقنع الجزار بأن يوليه مكان الامير يوسف ، وذلك في ٢٥ كانون الثاني ١٧٨٨ ، وقد عززه الجزار بنحو ألف مقاتل ، واوصاه باجلاء الأمير يوسف عن البلاد •

ثم لم يكتف الامير بشير بانتزاع الحكم لنفسه من ابن عمه الذي رعاه وأحسن اليه ، بل أنه لم يلبث ان أمره بمغادرة الشوف ، ثم أخـذ يطارده حتى أضطره في النهاية الى الألتجاء للجزار مسترحما : « فدخل عليه ذليلا وفي عنقه منديل الأمان » يرافقه الشيخ غندور الخوري ، فألقاهما في غياهب السجن « صفحة ١٥٩ » • « ولما أوجس الشيخ محمد

---

(١) نكرر القول ان العبارات التي وردت في هذا الجزء بين هلالين هي للامير حيدر شهاب من كتاب اسماه ناشروه «لبنان في عهد الامراء الشهابيين»

القاضي خيفه على الأمير يوسف سار الى عكا لأستعطاف الجزار عليه، وكان هو الضحية الاولى . ((فقد بادر الامير بشير للوشاية به فأمر الجزار بقتلة (صفحة ١٤٩) . ثم ما زال الأمير بشير يتابع الوشاية بالأمير يوسف حتى قتله الجزار شنقا في حزيران سنة ١٧٩٠ .

الى هنا يقتصر البحث عن ايراد الامثلة التي استهل بها الامير بشير حكمه في سبيل أرواء شهوته المشتعلة للحكم . واما الامثلة الاخرى على تحطيمه اصحاب المناصب واحدا واحدا في سبيل هذه الشهوة ، ابتداء بخصومه وانتهاء بمؤيديه ، فستأتي معنا فيما يلي :

١ ـ في عهد احمد باشا الجـزار ١٧٧٥ ـ ١٨٠٤ م

كان للأمير يوسف ملحم شهاب أنصار كثيرون بلبنان كبر عليهم ما فعل الأمير بشير ضده من مزايدة عليه أفضت الى عزله ، ووشاية به أدت الى شنقه . وقد تزايد عددهم لما أستهل الأمير بشير حكمه بأطلاق أيدي الجند من الارناؤط والمغاربة الذيـن أنجده بهم الجزار ، وانفض عنه مؤيدوه فأتفقت كلمة هؤلاء وهؤلاء على الثورة منذ سنة ١٧٩٠ ((كانوا الجميع يحبونه لما ولي سنة ١٧٨٨ أصبح سنة ١٧٩٠ وليس له صديق في البلاد غير الشيخ قاسم جنبلاط)) (ص ١٦٠) . وما زالوا يناصبونـه العداء حتى أضطروه للهرب الى مدينة صيدا ومعه عياله ، والسكنى فيها على انتظار الفرصة الملائمة .

« وأما أهالي البلاد أرسلوا الى الجزار ان ما ابتدأوا في تلك العصاوة الا من زود الظلم الذي جرى عليهم ، وأنهم يلتمسوا من مراحم الوزيـر بأرسال خلع الالتزام على حكم البلاد الى الأمير حيدر ملحم شهاب والامير قعدان وجعلوا لهخدمة أربع الاف كيس على سنتين ووضعوا جميع مناصب البلاد ختومهم على ذلك العرضحال (ص ١٦٨) وطلب الجزار ان يوجهوا الأمير حيدر والأمير قعدان التقادم وخمسين الف قرش ليرسل لهم خلـع

الالتزام لان كان أدركه المسير الى الحاج •••• فحضرت لهم الخلـع وحكموا في البلاد في أول شهر حزيران ١٧٨١ (ص ١٦٨) •

ولكن الجزار لم يلبث أن غضب على الأميرين المشار اليهما في ٨ شباط ١٧٩٢ « فأرسل برد (١) الى البلاد انه أنعم على الامير بشير دعا فيها أصحاب الاقطاعات ومشايخ العقل الى التزام الطاعة له » وقد جاء في هذا المرسوم ، بعد مقدمة طويلة أشار فيها الى أنحراف اصحاب الاقطاعـات الاشادة بقوة السلطنة ، ما يلي :

« فأعلموا وأعرفوا وتحققوا أن سلكتم في قدم الاطاعة ، وكنتـم مطيعين وخاضعين الى ولدنا الأمير بشير المشار اليه فعليكم من طرفنا أمان الله وأمان رسوله ثم أماننا ولم تشاهدوا منا الا المسرة • وأن بقيتم وثبتم على حالكم وسوء أعمالكم فبعناية الملك القاهر أنني بكم الظافر ولأجعلنكم كأمس الدابر ولأدمرنكم بكل دامر سلموا تسلموا وان عاندتم تندموا » (ص ١٦٩ — ١٧١) •

« وردت أكابر البلاد الجواب الى الوزير أن لم يمكن يقبلوا حكم الأمير بشير وكتبوا عروضات يترجوا صفاوة خاطره على الأميرحيدر والامير قعدان فوافق الجزار (ص ١٧٣) • ولكن هذين الاميرين عجزوا عن أستيفاء أموال الميرة فخافوا أن الباشا يعطي الأمير بشير البلاد فالتزموا أنهم أرسلوا الى جرجس باز كاخية الامراء أولاد يوسف ان يدفع ويسلم لاولاد الامير يوسف الحكم برضاهم فقبل الجزار بذلك وأرسل الخلع الى أولاد الأمير يوسف سنة ١٧٩٣ (ص ١٧٣) • « وأستقاموا أولاد الأمير يوسف حكام في البلاد الامير حسين بدير القمر والامير سعد الدين في جبيل » (ص ١٧٤) •

ولكن الجزار الذي كان يرى في الأمير بشير ذلك الرجل الفذ القدير

---

(١) البرد جمع بيلوردي بمعنى مرسوم •

على أشباع نهمه لم يلبث أن عدل عن مسايرة أصحاب المناصب وقرر اسناد الامارة اليه تاركا له ان يستعمل العنف بمساندة جنود الدولة لارغام المعارضين • « وفي هذه السنة (١٧٩٣) في شهر ايلول توجه الامير بشير وأخيه الى ملاقاة الوزير لما رجع من الحاج فأنعم على الأمير بشير ورجعه حاكما على جبل الدروز » (ص ١٧٤) فانقض الامير بعسكر الدولة على خصومه طوال نحو سنتين حتى أشبعهم مصادرة وتشريدا وقتلا • وعلى الرغم من أنه كان يسوق الأموال تباعا الى الجزار فان هذا لم يعد باستطاعته الاحتفاظ به عندما ضجت البلاد منه • « ثم حضر برد من الجزار الى أولاد الأمير يوسف ان يحضروا الى البلاد في ١٥ أذار ١٧٩٤ حضروا الى ساحل بيروت ولاقتهم الخلع الى الحدث وتوجهوا الى دير القمر ورجع الأمير سعد الدين الى جبيل حاكما (ص ١٧٧) وفي وصول الأمير حسين الى دير القمر وجه حوالية على بيت جنبلاط وبيت عماد وكلمن هو من غرض الامير بشير وزاد عليهم الظلم والبلص » (ص ١٧٧) « واما الامير بشير وأخوه والشيخ بشير جنبلاط وفارس ناصيف في وصولهم الى عكا وضعهم الباشا تحت التيسيق » « ثم أمر أن يضعوهم هو وأخيه في الحبس الكبير ويضعوا لهم الجنازير » (ص ١٧٧) • وقد مكث الامير بشير في سجنه مدة عشرين شهرا تقريبا يلتمس الفرج تعلم خلالها دروسا جديدة في صدد أسترضاء هذا الطاغية ليبقيه على كرسي دير القمر اذا عاد اليه • « حتى اذا رجع الجزار من الحج سنة ١٧٩٥ الى عكا صفى خاطره على الامير بشير وأخرجه من الحبس ، وأنعم عليه بحكم جبل الدروز » (ص ١٧٩) فراح يطارد خصومه ويفتك بهم ويصادر أموالهم وعلى رأسهم أولاد الأمير يوسف مستعينا على ذلك بجند الدولة من فصيلة الهوارة وسواها • ثم غدر الامير بشير بالمشايخ آل نكد بالتواطؤ مع الشيخ بشير جنبلاط وبيت عماد وورد ما توجب عليه الى الجزار وأرضا خاطره وأحبته الرعايا لاجل صدقه وصفاوة نيته » (ص ١٨٥) •

بيد أن الجزار كان يحب ترويض الأمير بشير بعزله تارة ، وبأعادته الى أمارته تارة أخرى لذلك ما أن شعر بان هذا الأمير أخذ ينعم بالاستقرار ويسترد ثقة الناس به حتى فاجاءه سنة ١٧٩٧ بأصدار مرسوم الى أولاد الأمير يوسف يشعرهم به بأنه أرجعهم الى حكم جبل الدروز (ص ١٨٦) ولكن حملة نابليون بونابرت على مصر ، وتقدمه نحو عكا صرف الجزار عن الامير بشير ، بل بدلت سياسته حياله •

والذي يتلخص لنا من هذا ان الأمير بشير أستهل القسم الأول من أمارته بعراك شديد بينه وبين خصومه من أصحاب المناصب دام بضع سنين ، صفى خلالها أكثرهم ، وذلك أما بالقتل أو بالتشريد وأستولى على أرزاق كثيرين منهم • وهو خلال ذلك كان يحكّم جند الجزار في رقاب الرعية ، وفي أموالها حتى أفقر لبنان بالرجال والأموال •

٢ ـ ايام حملة نابليون بونابرت (١٧٩٨ ـ ١٧٩٩)

لما احتل نابليون بونابرت مصر ، واستتب له الامر في شمال وادي النيل شاء أن يجعل من بر الشام الخطوة الأولى نحو جزيرة العرب في برنامج مطامعه الواسعة • فزحف باتجاه عكا وشدد الحصار عليها برا وبحرا •

وحينئذ برزت في مخيلة الامير بشير شهاب حاكم دير القمر الامال الباسمة ، اذ قدر بان الفرصة اصبحت قاب قوسين او ادنى من اجل التملص من سلطة آل عثمان ، والتخلص من جور الجزار الذي كان يلعب به كالكرة ، يلقيه تارة في غيابة السجن مكبلا بالسلاسل ، ويرفعه تارة أخرى الى كرسي الحكم ويدعوه بولدي •

ولكن الأمير لم يكن عجولا في الجواب حينما تساءل : هل يقبل على الثورة ونابليون أصبح على مقربة منه يحاصر عكا عاصمة الأيالة ؟ أم يحجم عنها والدولة العثمانية ومن ورائها بريطانيا العظمى تجيش الجيوش

ليس لدفع الفرنسيين عن شواطىء فلسطين فحسب ، وانما لأجلائهم عن وادي النيل أيضا ؟

وفي حيطته هذه للمصير اختار الموقف المتحفظ : وفيما هو اخذ يتصل بنابليون سرا ويعده بالتأييد ، ويتغاضى عن بعض التجار من رعيته الذين كانوا يذهبون الى عكا ، ويبيعون الجيش الفرنسي المآكل والمشارب والحاجات الأخرى ، شرع يتظاهر بأنه يستعد لقتال الفرنسيين ، ويتأهب للانضمام الى جيش السلطنة الزاحف لفك الحصار عن عكا . وقد رد الجواب الى الجزار حينما طلب منه الاسعاف والعسكر سنة ١٧٩٨ « لا يقدر على ذلك لان البلاد ما هي في يده » (ص ١٩٢) . وقد روت مجلة أوراق لبنانية في الجزء الثالث « ان نابليون أهدى الامير بشير بندقية ثمينة أرسلها اليه سرا من عكا مع رسول افرنسي . »

وهذا الأمر يدل على أن الأتصال بينهما أتصالا سريا كان حقيقة لا وهما . غير أن الجزار الداهية لم تكن تخفى عليه خافية . فما أن أضطر نابليون الى التراجع عن عكا سنة ١٧٩٩ حتى رفع يد الأمير عن الحكم غير حافل بتوسلاته ووساطاته وأغراءاته .

وقد اعتبر العثمانيون حكومة وشعبا موقف الأمير بشير حيال نابليون خيانة. ولكنا اذا اخذنا بعين الاعتبار ذلك الجور الذي كان الامير عرضة له على استمرار من قبل عاملهم أحمد باشا الجزار نجد لعمل الأمير الشهابي مبررا فالجزار أحرجه فأخرجه حتى جعله يريد المنقذ حتى ولو كان الشيطان .

٣ ــ في عهد سليمان باشا (١٨٠٤ ــ ١٨١٩)

في سنة ١٨٠٤ ولى الباب العالي سليمان باشا خلفا للجزار ، وكان هذا العامل مخلصا لدولته ومتزنا في معاملة أتباعه . ولما وقع أختياره على

الأمير بشير الثاني المشار اليه وأعاده الى الحكم أطلق يده ، ورفع مستوى معاملته له ، وظل يعتمد عليه حتى وافاه الأجل سنة ١٨١٩ •

وخلال هذه المدة ، التي أستمرت خمس عشرة سنة ، كان سليمان باشا يقنع باستيفاء الاموال المقررة لخزينة الدولة بالحكمة والانصاف دون أي مطمع له خاص ، ويترك للأمير حرية التصرف في شؤون أمارته •

وكانت السلطنة العثمانية قد تحولت في ذلك الحين عن الجمود المستمر وأقبلت على الأصلاح وفقا للتمدن الحديث ، ولا سيما بعد ان أستطاع السلطان محمود الثاني ((١٨٠٨ — ١٨٣٩)) القيام بما لم يستطعه بعض أسلافه ، وهو القضاء على الأنكشارية الذين كانوا يفتكون بكل سلطان او وزير يتوخى الاصلاح • وهذا التحول كان له اثره على سليمان باشا والي عكا في معاملة الامير بشير ، كما ان الحرب التي شنتها روسيا على السلطنة عندما بدأت بالأصلاح صرفتها عن الامير بشير ، وأدت بالتالي الى أدراكه ما لم يدركه من قبل وذلك في التصرف تصرف المطمئن ، والتمتع بتمام الاستقرار • فكان من المترقب منه أبان ما كانت الدولة منشغلة عنه بشؤونها الداخلية والخارجية ، ان يخف لبناء وطن مستقل بالاتفاق مع أصحاب المناصب ، كما فعل قبله الأمير فخر الدين ، وكما فعل معاصره محمد علي باشا بمصر ، وكما حاول ان يفعل من بعد والي سوريا مدحت باشا علي حين أن كلا من خديو مصر ووالي سوريا المذكورين كان غريبا عن الوطن الذي أراد أنشاءه • ولكن الأمير بشير وان قام في ذلك الحين ببعض الاصلاحات التي نوهنا بها فقد اتخذ من الاستقرار الذي تمتع به مدة طويلة فرصة للثأر من خصومه القدماء من دروز ومسيحيين على السواء ، وفرصة للتنكيل بهم • ثم لم يقف عند هذا الحد ، بل تحول بعد ذلك الى

---

(١) لابراهيم العورا البيروتي كتاب بعنوان « ولاية سليمان العادل » نوه به بهذا الوزير وبولايته التي تميزت بالعدل والاستقامة .

التنكيل بالزعماء من أنصاره القدماء فضلا عن أهله الذين كانوا ينكرون عليه تصرفاته الملتوية •

وكان كل ذلك حبا بالتفرد بالسلطة في منطقته الصغيرة دون ان يكون له هدف في تحرير بلاده ، وقد أورد المؤرخون أمثلة كثيرة على قسوة الأمير في غضون حكمه ، وهاك أهمها :

اعتقاله الشيخين جرجس وعبد الاحد باز معاقبة لهما على وفائهما لابناء الامير يوسف سلفه •

سمله عيني كلا من الامراء سعد الدين وحسين وسليم اولاد الامير يوسف المشار اليه ، واعدام بعض انصارهم وخدمهم • ومصادرة اموالهم جميعا •

« جرم البعض من نصارى دير القمر الذين كان بدى منهم مشاهرة حين قتل جرجس باز ، واخذ منهم ثمانين كيسا » « ص ٥١٥ » •

« فرض على المشائخ اهل الخازن ماية كيس وصادر اموال غيرهم بتهمة انهم من ميل جرجس باز » ثم ضبط املاك هؤلاء المشائخ •

قتله المطران يوسف اسطفان بالسم • وقد وضعه له في القهوة بتهمة اشتراكه في ثورة اهالي انطلياس ولحفد وهم انما ثاروا بسبب ظلمه وارهاقه لهم بالمغارم •

سمه ايضا اخاه الامير حسن لانه كان صريحا في انتقاد اعماله ، ومنكرا لتصرفاته • ويقول الدكتور مخائيل مشاقة في كتابه مشهد عيان من حوادث مصر ولبنان : « وبعد قتل البازين ونكد ضعفت شوكة انيمانيين (اي الحزب اليمني) فجند عليهم الامير حملة طاردتهم الى خارج البلاد فلجأوا الى مصر » ولجأ بعضهم الى غيرها •

يضاف الى ذلك ان الامير بشير كان قد رفع يد المشائخ آل

عبد الملك عن التصرف في الجرد « بتاتر وما حولها » فتآمروا عليه مع الشيخ شرف الدين القاضي بالاتفاق مع مشائخ آخرين من آل عماد ، وآل تلحوق وآل نكد ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يقفوا في وجهه ، فاضطروا الى الهرب فاخذ الامير يطاردهم حتى لم يروا لهم بدا من ترك البلاد والالتجاء الى دمشق فعكا • وحينئذ وقد افلتوا من يده انقض على ذويهم وانصارهم واخذ يقتص منهم •

وهكذا قضى الامير بشير وقته ، ولا سيما طوال عهد الاستقرار الذي تمتع به خلال ولاية سليمان باشا على عكا ، يقتل زعماء البلاد ، ويمعن بمصادرة اموالهم بينما كان يتقاضى من الشعب الضرائب المرهقة ويتقاضاها احيانا اضعافا مضاعفة (١) ، ويمعن في اعمال السخرة ، وذلك بدلا من الاهتمام بانشاء وطن مستقل استقلالا حقيقيا بالاتفاق مع اهل المناصب ابان ما كانت الفرصة سانحة • فهل هو بعد ذلك جدير بان يلقب بالكبير ؟

واذا التمسنا له عذرا في عهد كل من احمد باشا الجزار وعبد الله باشا الخزندار ، اللذين كانا يسلطان سيف ديموقليس فوق رأسه فماذا نفسر استمراره على التنكيل باهل المناصب وضغطه على الشعب بعد ان رفع سليمان باشا هذا السيف عن رأسه ، وتركه حرا في التصرف بمقاطعته ؟

٤ ــ في عهد عبد الله باشا الخزندار (١٨١٩ ــ ١٨٣٠)

لما ولي عبد الله باشا الخزندار على أيالة عكا خلفا لسليمان باشا

---

(١) كانت الضرائب على قسمين : الميري والفردة . الاولى عقارية والاخرى شخصية ، وهي التي كانت تعرف بمال العنق ، وتؤخذ من كل مكلف يبلغ سنا معينة حسب درجته .

كان امامه طريقان في معاملة الملتزمين : طريق احمد باشا الجزار ، وطريق سليمان باشا • ولكنه رأى في غضون انشغال الدولة عنه بمشاغلها الداخلية والخارجية ان الطريق الاول اجدى لجيبه واربح ، فراح يعاجز الامير بشير ، ويساومه على منصبه • وترويضا له من اجل ادراك مطامعه نصب مكانه الاميرين حسن وسلمان سنة ١٨٢٠ اللذين كان الامير بشير يطاردهما رافضا توسلاته ، وحتى السماح له بمقابلته • ولكنه اي الخزندار سرعان ما ادرك ان احدا من الامراء لا يستطيع ان يؤمن له الاموال التي يتطلبها وذلك عندما عجز هذان الاميران عن تأدية بقية الالتزام الذي تعهدا به ، فعطف على الامير بشير « وأعاد الحكم اليه على ان يكون اميرا على جبل الشوف وكسروان وتوابعها طوال حياته » • والواقع فان التلزيم مدة الحياة لم يكن يعني في نظره الا التغرير للحصول على اكثر ما يمكن الحصول عليه من الاموال • وكان وعدا لا يلتزم به ولاة عكا •

وفي ذلك الحين وقعت الواقعة بين عبد الله باشا المشار اليه ، وبين درويش باشا والي دمشق ، ونشب القتال بينهما • وكثيرا ما كانت الحرب تقع بين ولاة السلطنة العثمانية في عهد انحطاطها حتى يبدو هؤلاء وكأنهم مستقلون • فانحاز الامير بشير في هذا القتال الى ولي امره بعكا ، وزحف مع جيشه للاستيلاء على دمشق بينما ان المشائخ آل جنبلاط انحازوا الى خصمه درويش باشا فادى هذا الاختلاف في التحزيب الى الافتراق بين الامير بشير وبين مؤيديه القدماء آل جنبلاط وعلى رأسهم الشيخ بشير • ولما حكما السيف بينهما كاد الجنبلاطيون

ينتصرون علـــى الامير لولا ان رجح آل حمادة في بعقلين كفته (١) على غير ما كان متوقعا •

اما الباب العــالي فلم يكن راضيا عــن غزو متسلم عكا لدمشق التي اسمتها استامبول باب الكعبة ، ولم يكن بالتالي راضيا عن الامير بشير الا انه لــم يلبث ان غض الطرف عنه وعن عبد الله باشا مراعــاة لمحمد علي باشا عزيز مصر الذي توسط له بالعفو ، فأبقاه الباب العالي في منصبه علــى ان يؤدي لخزينة السلطنة نصف مليــون ليرة غرامــة حربية • وقــد فرض عبد الله باشا على الامير بشير خمس هذا المبلغ ، ووجه اليــه في سنة ١٨٢٣ الاوامر المشددة في تحصيلــه سريعا ، وان يرسله له •

وكان هــذا المبلــغ كثيرا جدا ، في ذلك الوقت ، بالنسبة للجبال القاحلة التابعة للامير بشير • ولكنه ماذا يفعل وهو عبد مطيــع ؟ ان مولاه يقول له « انه اذا امتثل يحصل على الصفاوة القلبية » • وهذا كل ما يتمناه •

لذلك اتجه الى الشيخ بشير جنبلاط وطلب منه اسعافه بالف كيس قائلا له بدوره : « اذا فعلت ستحصل علــى (الصفاوة القلبية) • فلم يسع الشيخ بشير الا الامتثال « وبعــده بدأ يتطلب مطاليب لــم يكن

(١) كانت اسرة الاعور في المتن الاعلى في عداد الاسر الدرزية التي قاتلت في صف الشيخ بشير جنبلاط ، ولما انتصر الامير بشير عليه امر بان تساق اليه زعماء الاسر التي انحازت للجنبلاطيين . واخذ يعاقبهم ، فكان كل واحد منهم يلتمس المعازير فيكيل له الامير ما شاء من اللوم والتأنيب . ولما وصل الدور في النهاية الى الشيخ ابي علي نجم زعيم اسرة الاعور وقتئذ لم يتورع عن القول له : نعم نعم حتى صارحه القول لو استطعنا الى ذلك سبيلا لما وفرناك ، فنهض الامير وربت على كتفه مظهرا له التقدير على صراحته .

طلبها في بدء ارسالياته وابتدأت الوشاة تخوف (الشيخ بشير) وتوعظ له ان القيام من البـلاد الى بـلاد الشام اوفـق له فسمع كلامهـم » صفحة (٧٤٧) •

« ورحل معـه الى حوران الامراء آل ارسلان ومقدمـو حمانا آل مزهر ، ثم فريق من آل عماد وغيرهم ، ولكن والي الشام لم يحسن حمايتهم ، بل أسلمهم الى عبد الله باشا فألقاهم في غيابة السجن ، ثـم اعدم سنة ١٨٢٤ الشيخ بشير جنبلاط والشيخ امين عماد شنقا • »

بيد ان السلطنة لم تلبث الا قليلا حتى تغيرت على عبد الله باشا بعـد ان كانت سامحته من قبل علـى غزو دمشق فنحته عن منصبه • وبسقوطه سقط الامير بشير ، واصبح من المغضوب عليهم • فما وسعه الا ان يتجه الى القاهـرة يتوسل الى عزيز مصر بان يتوسط لعبد الله باشا في الحصول على رضى الباب العالي •

وهو في ذلك انما كان يرجو العودة للحكم اذا عاد هذا الى منصبه• والجدير بالذكر ان سفر الامير الى مصر كـان بامر من عبد الله باشا نفسه اذ لم يجد خيرا منه رسولا الى عزيز مصر • وهنـاك وجد الامير بشير محمد علي باشا على غـير ما كان ينتظر منه : وجده يستعد لغزو السلطنة العثمانية عبر سوريا • وبذلك تبدل موقف الامير من مسترحم للتوسط الـى مطلوب يدعى الـى الاشتراك في مؤامرة ، فكان جوابه سمعا وطاعة افندم • وكانت عاقبة ذلك النفي ، ثم الموت بعيدا عن الديار في اعقاب انسحاب الحملة المصرية من بر الشام •

٥ ــ في غضون الحملة المصرية على سوريا (١٨٣٠ ــ ١٨٤٠)

كان محمد علي باشا المتولي على مصر من قبل السلطنة العثمانية يرى ان الفرصة سانحة للاستقلال بوادي النيـل ، والتوسع في البلاد

العثمانية المجاورة • وذلك بالاعتمـاد على فرنسا ، ولكنه في انتظـار الوقت المناسب للخروج على متبوعه كان يتظاهر بالاخلاص له، ويأتمر بأمره في ارسال قوى مصر البرية والبحرية لاخماد الثورات التي كانت تتوالى في انحاء المملكة باوروبا وآسيا • فلما جاءه الامير بشير شهاب مستنجدا رأى في مجيئه فرصة مناسبة للتآمر معـه على ما كـان يضمر ، فأكرم وفادته ، وجامله اكثر مما كان ينتظر • ويقـول المؤرخون اللبنانيون في هذه المناسبة :

« ولما وصل الامير الـى مصر قدم معروضا لمحمد علي يرجو فيه قبوله،والتشرف بين يديه ولما أذن له بذلك دخل مع اولاده وقبلوا اتكه•»

« وعندما اختلى محمد علي بالامير اسرّ اليه بجميـع ما يرغبه منه في جبل لبنان من الخدمة عند الحاجة لانه كـان عازما على تملك بلاد الشام بحد السيف • »

« ان الامير بشير ارتمى علـى اقـدام مفاوضه ، واقسم له انه يخدمه ، ويكون مطيعا له الى آخر نسمة من حياته ، ومن بعده اولاده •»

« ولما ودع الامير بشير محمـد علي أعرب له عـن اخلاصـه وعبوديته • »

« ظـل الامير بشير يراسل محمد علي بعـد عودته مـن مصر : مظهرا انه قيّد نفسه بالاطاعة والانقياد لما به ارادة عنايتكم الواسعة • »

كل ذلك حمل محمد علي باشا الى العودة لمفاوضة الباب العالي بشأن عبد الله باشا ، وكانت كلمته نافـذة في استامبول نظرا لحاجتها اليه ، ولما كان يقـدم لها مـن الخدمات ، ولا سيما في حرب اليونان وآل سعود • فلم يسع السلطنة باستامبول الا قبول شفاعته المتكررة ، فأعادت عبد الله باشا الى منصبه ، وبعودته رجع ايضا الامير بشير الى دير القمر مقر الامارة •

ولما زحف الجيش المصري سنة ١٨٣١ على سورية ، وبلغ صحراء عكا • كتب ابراهيم باشا قائد هــذه الحملة الى الامير بشير الشهابي ليوافيه ، غير ان هذا خاف العاقبة فتباطأ واعتذر زاعما انه مريض ، وانه يواجه فتنة قامت عليه في لبنان الشمالي • ووعد بارسال ابنه خليل عوضا عنه • فكان هــذا الجواب ، الذي نقل الى محمد علي باشا بالقاهرة ، مثيرا لغضبه على الامير بشير ، فكتب اليــه يتهدده على انه « ان تأخر عن الحضور الى ولده ابراهيم باشا يخرب مساكنه ، ويغرس موضعها تينا • » فلم يسع الامير بعــد هذا الانذار الا الخروج عن تردده فسار على رأس مائة فارس الى المعسكر المصري •

وقد شدد ابراهيم باشا الحصــار على عكا • ولما استولى عليها سنة ١٨٣٢ قبض على عبد الله باشا الخزندار وأرسله الى الاسكندرية • ثم نهض بالجيش وزحف على دمشق يريــد فتحها مستصحبا معه الامير بشير لانه لم يكن يثق به علــى الرغم من ان الامير كان لا يفتأ يعرب عن اخلاصه ، وعن استعداده لخدمة الحملة المصرية • ولكنه لما كسب ثقة ابراهيم باشا بعد ذلك عهد اليه معاطاة الاحكام في ايالة صيدا فراح يجبي الضرائب المقررة على هواه مشفوعة باخرى لنفسه حتى اثار الشعب عليه وعلى متبوعه المصري • ويقــول ندرة مطران في كتابه « سورية الغد » « فنصب المسيحيون على رأسهم فرنسيا هو الفيكونت اوفروا واستنجدوا بمناولة بعلبك وزعيمهم الامير خنجر الحرفوش » • على أن الامير وان استطاع ان يخمد هذه الثورة بالتفريق بين النصارى والدروز الا ان حساب الحقل لــم يتفق مــع حساب البيدر ، فعندما اضطرت الحملة المصرية على الانسحاب عن سوريا سنة ١٨٤٠ وذلك اثر ادراك لندن النصر على باريس في الحرب السياسية الباردة التــي كانت دائرة بينهما حول المسألة الشرقية ، عبس الحظ في وجه الامير بشير نهائيا ،

ونفي الى مالطة ، ثــم سمح له بالانتقــال الــى استامبول حيث مات سنة ١٨٥١ ٠

ونحن لا نعلق شيئا علــى ما قدمنا مــن تقلب الامير بشير وراء المصلحة الشخصية وانما نترك الكــلام هنا للدكتور مشاقة في التعليق على سيرته ٠ قال : « ولكنه لم يخــدم وطنه خدمة تذكر ٠ ولو صرف قواه في منفعة وطنه ، وتعزيز مقامه لحفظ له الاستقلال » ومضى يقول : « لو فعل كل ذلك لكنا شاهدنا له من سلالته حاكما على ربوع سوريا ولبنان ، كما نرى أحفاد محمد علي باشا يتمتعون بالسلطة على وادي النيل ٠ اذ كانت له ذات الفرصة التي كانت لمحمد علي باشا لاشهــار استقلال سوريا ومحاربة الاتراك ٠ ولكنه لم يقبل على مثل ذلك ، واطلق قواه في ديجور الخلافات الاهلية ٠ وقبل أن يكــون مستقلا بحكومة لبنان ضمنا فضل الاستعباد لعــدو وطنه لينتقم مــن اخيه بالوطنية ، ومزاحمته على الامارة ٠ » اهـ

مواقف الامير من اولي الامر الاتراك

صور المؤرخون المتأخرون الامير بشير الثاني ، في سياق وضع التاريخ اللبناني ، على صورة الامير المستقل صاحب الحول والطول ، وذي الشخصية الفذة التي كان لها ما كان من العزة والسلطان . والواقع فان مواقف الامير تجاه اولي الامر ، ولا سيما عامل آل عثمان على ايالة عكا ، كانت تتعارض مع هذا الوصف اذ هي تشير الى انه كان قد استساغ لنفسه ان يكون عبدا لهؤلاء الحكام ، وان يكون الشعب الذي يحكمه مثله في العبودية لهم .

ونحن لا نلقي التبعات كلها على الامير بشير وحده ، وانما نشرك فيها اصحاب المناصب ايضا سواء منهم الذين سبقوه ، او عاصروه ، فهم جروا مجراه ، بتنافسهم وتشاحنهم حول الكراسي في الاستكانة لاولي الامر . على انا وان كنا نجد لهم شيئا من المبررات على سلوكهم هذا المسلك حيال حكامهم بالنسبة لاوضاع الزمان والمكان الا انا لا نجد لهم عذرا على تنافس افضى بهم جميعا الى السقوط في هاوية العبودية من اجل كرسي كان المتربع عليه جابيا للباشا متسلم عكا . فقد شاهد هذا الامير بعينيه ، مذ كان في كنف ابن عمه الامير يوسف ، مغبة تقصير هذا في اشباع نهم احمد باشا الجزار ، وذكر كيف انه ذهب بنفسه الى عكا ، وكيف انه شرع يتذلل امام هذا الجبار ، ويبذل له الوعود من اجل ان يخلع عليه كرسي دير القمر مكان الامير يوسف المشار اليه . وذكر كيف انه لما ادرك ما يريد والتفت حوله فاذا به يصطدم باولاد الامير يوسف وانصارهم ، وبفئة من الحزب اليزبكي

يتآمرون عليه ويأتون الى عكا متسكعين متذللين لاسترداد الحكم .
وذكر ايضا نهم الجزار على صعيد ادراك اكثر ما يتمنى ادراكه من المال أبان مدة ولايته ، وكيف انه اعطاه باكرا درسا قاصيا بسبب تقصيره في اشباع هذا النهم اذ استرد المنصب منه سنة ١٧٩٤ ، وألقاه عشرين شهرا في غيابة سجن عكا ثم لم يطلق سراحه الا بعد ان تعهد له بما تعهد من الاموال .

فكانت هذه الذكريات القاسية قواعد للمخطط الذي وضعه من بعد لنفسه ، خصوصا وان الجزار رفع فوق رأسه سيف ديموقليس فكان ينقض عليه كلما اتهمه بالتباطؤ والقصور فيضطره مرة اخرى للعودة الى التملق وبذل المال وماء الوجه في سبيل استعادة المنصب . واذا ما رضي عليه الجزار زوده بالجند العثماني ، ودفع به لتحصيل الاموال ولاخماد الفتن ، ولارتكاب انواع المغارم .

ـ فما هو مخطط الامير الذي وضعه لنفسه في سبيل كسب رضى الجزار ؟

ـ كان مخططه يقوم على قواعد ذات هدف واحد : الحفاظ على منصبه بالحفاظ على رضاء سواه أرضي الله والناس أم لم يرضوا ، ويكفيه ان يكتب له هذا الوالي الظالم (١) مثل الكتاب الذي وجهه

---

(١) اقول انه ظالم على الرغم من ان اهل بيروت في عصره كانوا يعتبرونه الحاكم الذي وطد الامن واشاع الاستقرار بدليل انهم عند وفاته تبارى شعراؤهم في رثائه ، والتنويه به . وفي مقدمتهم المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله ، والقاضي الشيخ احمد الاغر ، والعالم الاديب الشيخ احمد البربير « راجع ترجمة هؤلاء في مجلة الشرق » . وما كان ذلك الا لان البيروتيين في اخلاصهم لآل عثمان ، كانوا يعتبرون الجزار من حيث اخماده الثورات واعادة المنشقين الى الحظيرة كالحجاج بالنسبة للامويين .

له سنة ١٨٠٣ في بشري (طيبان الخاطر) وهاكم هو نقلا عـن كتاب الامير حيدر شهاب :

« بعد التحية والسلام بمزيد العز والاكرام • انه قد وصل الينا عرض حالك وتراميك لنيـل صفو خاطرنا • فلاجل صداقتك ، وحسن خدماتك السابقة لدينا قد صفحنا عـن خطائك وعفونا عنك • فالمراد تكون طيب الخاطر ، ومقر النظر ، وان تبت في صدق الخدامة • انشاء الله تشاهد منا كلما يسرك• تعلّم ذلك واعتمده غاية الاعتماد والسلام•»

وعلى الرغم من ان شأن الامير ارتفع عن هذا المستوى عهد ولاية سليمان باشا علـى ايالة عكا لان هذا الباشا كـان ارفع اخلاقا مـن سلفه ، ولان الدولة وقد باشرت الاصلاح كانت تريد من عمالها التزام العدل والرفق بالرعية فان الامير ظل في هذا العهد ، الذي يعتبر عهده الذهبي يعامل كالمأمور التابع : فاذا نصبه سليمان باشا على الجبل كان يعتبر هذا العمل خلعة عليه وبمثابة الانعام ، واذا حاز منه في المراسلات على الثناء فلانه « يؤدي الاموال الاميرية والاعشار الشرعية والرسومات العرفية » (٥٥٢) واذا سمح له بتقبيل يده عد هذا من قبيل الاكرام • بلى ، ولما قصد الامير بشير الـى عكا سنة ١٨١٤ لرفـع التعزية الـى سليمان باشا بوفاة كتخداه « امين السر » كان مـن علامات اكرامه انه لما اراد « ان يقبل الاتك حسب عوايد الوزير لم يمكنه سليمان باشا من ذلك ، بل اعطاه يده وأجلسه بالقرب منه » (ص ٦٠٦) •

وبموت سليمان باشا سنة ١٨١٩ اصيب الامير بشير بنكسة كبيرة ، ذلك بان خلفه عبد الله باشا الخزندار عاد الى سنة الجزار في معاجزته حتى اضطره لمغادرة البلاد « فارسل عرضحال الى عبد الله باشا يستعطف خاطره كاتبا له : « انه ترك بلاده وعياله خوفا من وقوع حادث يحدث يوجب اغبرار خاطره عليه • ولاجل ذلك ابتعد لاطـراف بلاد حوران

ينتظر صفاوة الخاطر ، وانه عبـد رق له ، ويستحلفه بتربة ابيه » الى آخره صفحة « ص ٦٦٥ » • وكان جواب عبد الله باشا منسجما مـع عرض حال الامير اذ جاء فيه « اذا الخادم ابتعـد عن خدامة مخدومه فالمخدوم يستخدم غيره ••• والان حيث انـك طالب استعطاف الخاطر منا ، وتراميك على بسط مراحمنا ، لك منا الامان » (ص ٦٦٥) •

ولكن الامير لم يطمئن لهذا الجواب ، فأرسل رسالة أخرى ذكر فيها : « انه رجل عاش مدة حياته في انعام اسلافه (اي الولاة) ، وانه يود فقد حياته ولا يقال عنه بدا منه ادنى زلل في خدامته ، ويستحلفه بتربة ابيه ان يدعه يقضي حياته في رضاه وخدامته حيث انه صار كهلا يرغب الممات في خدامته • » (٦٦٦) •

ثم ما اكتفى بكل هذا الخضوع في سبيل العودة الى الحكم ، بل اوفد المعلم بطرس كرامة سنة ١٨٢٠ الى درويش باشا في حماه ، وهو في طريقه الى مقر ولايته دمشق ، يستعطفه مـن اجل التوسط لـه عنـد عبد الله باشا للعودة الى الحكم ، هذا الحكم الذي كان ماثلا أمامه اناء الليل واطراف النهار ، فرد عليـه والي دمشق الجديد بجواب يتضمن التطمين جاء فيه « فهكذا احوال اولياء الامور يزعلون على خدمهم ثم يرضون عليهم » (ص ٦٦٧) •

ولما لـم تجد هـذه العرضحالات والوساطات نفعا اعتزم الامـير بشير ان يتقدم بنفسه الى المثول بـين يدي متسلم عكا ليعرض عليـه استعداده للجهاد في الحرب التي نشبت وقتئذ بين العثمانيين والروس • « وبعد وصوله الى شفاعمرو (بفلسطين) وجه تابعه جدعون الباحوط يلتمس مـن عبد الله باشا الدخـول الى عكا ، وان يحظى بلثم اتكه الشريف ، فاعتذر الوزير من ذلك ، وانه من حيث توجه الخلع الى الامراء

المذكورين (الاميرين حسن وسلمان) لا يمكنه الانتقاض معهم • »
(ص ٦٧٠) •

ثم كان ما كان حينما غضب عليه عبد الله باشا من ترامي الامير بشير على اقدام محمد علي باشا خديو مصر ، حيث اقسم له انه يخدمه ويكون مطيعا له الى آخر نسمة من حياته ، ومن بعده لاولاده • ثم ودعه مظهرا له عبوديته على ما روى الدكتور اسد رستم في كتابه « بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤ – ١٨٤٠ » •

هكذا قضى الامير بشير طوال حياته السياسية : عبودية ، وبذل كرامة ليس في محاولة لتحرير بلاده ، وليس في سبيل انقاذ حياة مهددة بالقتل ، وانما بغية التربع على كرسي دير القمر التي لم تكن مهمتها في الواقع سوى جباية الاموال لاولياء امره المتربعين على كرسي ايالة صيدا ، او ايالة عكا •

موقف الامير بين الولاة وبين الشعب موقف التحصيلدار

كان كرسي دير القمر في عهد الامير بشير الثاني يدرك طالبه بالالتزام ، وهو من قبيل الحراج في التعبير الدارج : على أونا ، على دو[3] ، على تريه • وكان هذا المنصب بالتالي يخلعه متسلم عكا ، وهو الملتزم الاكبر من استامبول ، علـى من يتعهد له بان يؤدي اكثر مـن سواه من الاموال والهدايا ، علـى ان التقادير والتقاليد المرعية عندئذ جعلت هذا المنصب من حق الاسرة الشهابية الكريمة التي خلفت الاسرة المعنية •

ولما كـان الامير بشير يرى في نفسه القدرة علـى تحصيل هذه الاموال اكثر من سواه فقد كان الحراج يرسو عليه في معظم الاوقات • وكان ولاة عكا يعلمون انه اكفأ من كـل منافسيه في فرض ارادته على الشعب المسكـين ، لذلك كانـوا يعتمـدون عليـه ، واذا عاجزوه او استبدلوه بغيره فانما كانـوا يفعلون ذلك مـن اجل اثارة همته للتعهد لهم بالمزيد من الاموال والهدايا • وما بـين هذا وذاك بلغ بدل الالتزام حدا لا قبـل للشعب المسكين بان يتحمله • ومـع ذلك فكان الشعب يضطر الى دفع ما يؤمر به ويفرض عليه مـن الضرائب والمغارم ، واذا تململ أو تمرد فكـان يسام سوء العذاب ، ولا سيما من الجند الذي كان متسلمو عكا يزودون به الملتزم مـن اجل تأمين ما تعهد به لهـم ، واخضاع الذين تسول لهم النفس التمرد •

وعلى سبيل المثال لا علـى سبيل الحصر نترك الكلام هنا للامير حيدر الشهابي مؤرخ الامراء الشهابيين • فقد ضرب لنا مثلا على ذلك

بمناسبة عودة الامير بشير من عكا سنة ١٧٩٠ وعليه خلعة الالتزام ، وذلك في مستهل عهده بالحكم • وقال : « وصل الامير بشير الى الدير (اي قرية دير القمر) ، واراد القبض على أناس كثير من البلاد ، وفرق الحوالات في كل مكان حتى ان البعض نزحوا من مطارحهم • وكانت الحوالية عند بيت شهاب ، ومناصب البلاد والرعايا ، ولز عليهم في الطلب والاستعجالات ، وأرما الرعب في قلوب مناصب البلاد وجميع الناس • ولم كان أحد يخلو من حوالية (أي الجباة) لا كبير ولا صغير غير الذين كانوا تابعينه • وصارت الارزاق في البلاش وبلغ قنطار الزيت الى ثلاثين غرش • وكان هذا الظلم من كواخية فارس ناصيف وجدعون آغا • وأرد الى الجزار ما جمعه من المال ، كما تعهد له وأرضا خاطره ، صفحة (ص ١٦٠) •

ومضى الامير حيدر يقول : « ثم لما اتصل به (اي الامير بشير) ان اهل المتن تعاصوا على جباته قاد بنفسه عسكر الدولة لتأديبهم فوقعت بينه وبينهم قتالات دامية فلم يسع اهالي البلاد ان ارسلوا عرضحال الى الجزار ان ما ابتدوا في تلك العصاوة الا من زود الظلم الذي جرى عليهم ، وانهم يلتمسوا من مراحم الامير « اي الجزار » بارسال خلع الالتزام على حكم البلاد الى الامير حيدر والامير قعدان ، وجعلوا له خدامة اربع آلاف كيس على سنة سنين • ووضعوا جميع مناصب البلاد ختومهم في ذلك العرضحال » (ص ١٦٨) •

وهنا برزت لاحمد باشا الجزار الفرص المؤاتية لوضع المنصب في المزاد فقبل طلبهم وخلع الامير بشير منه ، ثم لم يلبث ان خلع الامير حيدر والامير قعدان شهاب عندما ورد اليه التماس آخر ، رأى فيه اكثر فائدة لجيبه ، ومنح الالتزام للاميرين حسين وسعد الدين شهاب ، حتى اذا روض الامير بشير ، على ما اراد ، وجعله يؤدي المبلغ المطلوب اعاد

اليه ، سنة ١٧٩٢ ، خلعة الالتزام • فراح الامير يدفع الجباة كما من قبل لتحصيل الاموال دون شفقة ولا رحمة مبتدأ بالمختارة مقر المشائخ الجنبلاطيين اصدقائه القدماء ومؤيديه • ثم تحول الى المتن الى مقاطعة اللمعيين ، « وهجم بمعسكر الدولة على المتن ، ونهبوا قرية العبادية وكان موجود بها ودايع من جميع البلاد • وقيل انه ينوف على العشرة آلاف كيس من قرش ومصاغ واثاث وغيره » (ص ١٧٥) وعند الصباح عمل العسكر سوق حراج (في بحمدون) على تلك الاشياء التي انتهبت بالعبادية • وبعد يومين توجه الامير بشير الى رأس المتن بالعسكر • وهربت اهالي المتن ، وخرجت اكثر القرايا ولم يكون في الزمان اتتكبت المتن من حين نصوح باشا حتى كبس (الامير) الرأس (رأس المتن) ونهبها » (ص ١٧٦) •

على ان الجزار كان لا يشبع ولا يقنع • لذلك لم يلبث ان القى الامير بشير في السجن سنة ١٧٩٤ بغية الاستزادة من نشاطه في سلب الاموال ، ثم لما اطلق سراحه في العام التالي لم يجد هذا بدا من الاسترسال في الظلم على مدى اوسع « فضبط ارزاق بيت ابو نكد وعبد الله القاضي ، وهدم عمارهم ، وصادر اموال انصارهم ، وأجبا الميري ودفع الى الجزار وأرضا خاطره (ص ١٨١) » • والواقع فان الجزار لم يرتض بذلك « فحضر بيلورديات منه ان صفى خاطره على اولاد الامير يوسف ورجعهم الى حكم جبل الدروز ولكن الانباء التي وردت بغزو نابليون مصر اوقف توجيههم لاستلام مناصبهم (ص ١٨٦)•

ففي سنة ١٧٩٩ تقدم نابليون بونابرت لفتح عكا فساقت السلطنة العثمانية قوة الى بلاد الشام لدفعه عنها كان يقودها الصدر الاعظم • وحينئذ فكر الامير في استعطاف كبير الوزراء المشار اليه فساق اليه احمالا من المؤن تقدر قيمتها بماية الف غرش ادركته في حماة • ولما وصل الصدر الاعظم الى دمشق « ارسل الى الامير (طيبان خاطر) وان

يرسل له الف غرارة مخل (غلة) من البقاع فأرسل الامير بشير حالا مباشرين جمعوا الغلال وأردوها للشام • » (ص ١٩٥) •

وعلى الرغم من ان الصدر الاعظم اصدر مرسوما باعادة الامير بشير الى الحكم فان متسلم عكا لم يعبأ بهذا المرسوم ، وظل لا يعترف بغير ولدي الامير يوسف بحجة ان الامير بشيرا متهما باخلاصه للعدو ، وباتصالاته السرية مع الحملة الفرنسية • وكان يدعمه في هذا الموقف الاميرال سميث قائد الاسطول الانكليزي الذي لم تكن تخفاه خافية من اتصالات الفرنسيين اعداء دولته بالامير بشير •

واما عاقبة هذا الاختلاف بين الامراء فكانت شرا وبيلا على اهل البلاد ذلك لان ولدي الامير يوسف خفا الى جمع اموال الميرة ثلاثة اضعاف بالقوة والعنف في سبيل الحفاظ على تأييد متبوعهم بعكا • ومع ذلك فان الزمن لم يصف لهما • بل جاء من يزيد عليهما سنة ١٨٠١ ، ووقع الالتزام على الامير عباس بن الامير اسعد شهاب • واما الامير بشير ، الذي كان وقتئذ في عزلته يعاني اشد الآلام النفسية ، فقد ظل يرفع الالتماسات واحدا بعد واحد الى الجزار بغية نيل رضاه حتى ادرك (طيبان الخاطر) منه سنة ١٨٠٣ » والجدير بالذكر ان الجزار لم يصغ الى توسلات الامير الا بغية الافادة منه وذلك بعد زوال الخطر الفرنسي •

وفي سنة ١٨٠٥ خلف احمد باشا الجزار سليمان باشا على ايالة عكا ، « فاستدان الامير بشير الحرير الذي طلع الى عيلته بيت شهاب والبعض من أكابر البلاد ووجه بعض القرش الذي تم عليه الاتفاق مع سليمان باشا لاجل استخلاص الامارة » (ص ٤٣٣) « ثم حضر تعريف من سليمان باشا (١٨٠٧) الى الامير بشير ان الدولة العلية بلغها عمار جبل معن وان الاموال الميرية قد صارت قليلة ، فأمرت ان يجري

خراج على جميع الاماكن • وبعد مراجعات كثيرة بين الامير بشير وسليمان باشا تعهد الامير بايراد ستماية كيس على ثمان سنين وان لا يقع خراج • » (ص ٥١٣) •

حقا لقد كان سليمان باشا يحاول ان يلتزم القانون في معاملة الامير بشير ، ولكنه كان مع ذلك مضطرا الى المطالبة بالمزيد من الضرائب نظرا لحاجة دولته للمال ، ولكن لما توفي هذا سنة ١٨١٩ ، وخلفه على ايالة عكا عبد الله باشا الخزندار ، الذي نهج نهج احمد باشا الجزار في ارهاق كل من الامير ورعيته ، استأنف الضغط على الامير بشير ، وعاد الى مساومته • « ورجع بطرس كرامي الى عكا وبيده سند تعهد من الامير بشير في ايراد الفين كيس في ضمن ستين يوم • وفي وصوله انشرح خاطر عبد الله باشا على الامير بشير ، وأكرم المعلم بطرس بخلعة سنية • وأرسل أوامر الى المدن باطلاق المسجونين ورجوع العساكر لمحلاتهم » (٦٥٧) •

ومضى الامير حيدر يقول : « وابتدى الامير يهتم في تدبير الالفين كيس التي تعهد بها فاقترض من بازركان (تجار) البلاد وغيرهم كلمن هو على قدر امكانه ••• وطلب من النصارى ما هو متوجب عليهم من الميري والخراج حسب عادتهم ، وانما يكون في المعاجلة ••• واقترض من الشيخ بشير جنبلاط خمس مئة كيس • » (ص ٦٥٩) •

« وقد كان عندما طلب الأمير من النصارى الخراج والاموال الميرية بغير وقته آبوا عن الايراد واجتمعوا على نهر انطلياس (بجوار بيروت) وتحالفوا جميعا ان لا يوردوا في كل عام غير خراج واحد وميري واحد في وقته كما كان في قديم الزمان وجهروا النصارى من جميع البلاد وبلاد جبيل وارسلوا عرض حال لعبد الله باشا وان الامير ظلمهم دون غيرهم فرجع لهم طيبان خاطر • وانهم لا يوردوا غير مال واحد حسب

عاداتهم القديمة « (ص ٦٥٩) • والواقع فان هذا الانصاف الذي بدا منه لم يكن صادرا عن طبيعته وانما يعود الى علمه برغبة الدولة في مراعاة شعور الدول الغربية في تلك الظروف الحرجة •

« ثم بعد ذلك حضر كتابات ايضا من عبد الله باشا الى الامير بارسال خمسين الف ربعية ذهب فندقلي (نسبة للبندقية) لاجل خرجية الجيب • » (ص ٦٥٨) • وظل عبد الله باشا يحرج الامير بالمطالبات حتى اضطره للفرار تخليا عن كرسي دير القمر للاميرين حسن وسلمان اللذين تعهدا سنة ١٨٢٠ للباشا بدفع الفين ومايتين كيس تدفع فورا • ولما لم يستطيعا الوفاء بتعهدهما ، تقدم الامير من الباشا آخذا على عاتقه اداء هذا المبلغ فأعاده الى منصبه ، وامره بالتعجيل في دفع ما طلب•

وكان اول عمل قام به تجزئة المطلوب منه وتوزيعه على الاقطاعات وارسال الجباة لتحصيله • ولما بدرت بوادر التزمر من اهل كسروان سار بنفسه على رأس العسكر لتأديبهم ، والتأديب في مفهومه كان يعني هدم البيوت ومطاردة السكان ومصادرة الاموال والاقتصاص من المحرضين ، ويا ويل من يتولى الامير تأديبه « ولما سار الامير بالعسكر الى كسروان تعاهد شيعيهم ونصرانيهم على العصيان ولكنهم لم يستطيعوا الصمود بوجه عسكر الدولة فحصل الامير منهم على الاموال عنوة » صفحة (ص ٦٩٥) • ورجع الى بتدين سنة ١٨٢١ •

وبينما كانت هذه الاقطاعات ترزح تحت اثقال الفقر نتيجة لاستنزاف الامير اموالها نشبت الحرب سنة ١٨٢٥ بين السلطنة وبين روسيا على ما ذكرنا قبلا حينما كانت خزينتها خالية الوفاض ، فاضطرت للتشديد على متولي ايالاتها من اجل الاسراع في امدادها بالاموال ، فاذا بعبد الله باشا المشار اليه يطلب من الامير « اربعماية كيس بنوع قرضة ، وان يحاسبه بها من اصل ميرة البلاد ، واين للامير ان يرفض ؟

وقد فرعها على البلاد ووجهها له • » (ص ٧٨٤) • وبينما كان الناس في ضيقهم الشديد يقاسون الامرين ، ويحسبون انهم اصبحوا في منجاة من مطالب جديدة بعد ان ادوا قسطهم لتلك الحرب اذا بعبدالله باشا يكرر الطلب ، ويأمر بتأمين « الف كيس قرضة ، وفي الحال وزع الامير ذلك على المقاطعات • وفي اقرب وقت جمعها واوردها » صفحة (٧٩٥)•

ثم تنفس الناس الصعداء حينما دخلت سوريا في الحكم المصري ابتداء من سنتي ١٨٣١ و ١٨٣٢ ظانين ان الحملة المصرية ستنقذهم من البلص والمصادرة واستنزاف الاموال ، ولكنهم لم يلبثوا الا قليلا حتى خاب فألهم اذ ان ابراهيم باشا رفع الخراج عن الجبل من ٢٣٠٠ كيس الى ٦٣٠٠ كيسا ، وعهد الى الامير بشير المشار اليه بامر جبايتها ، كما عهد اليه جباية الاموال الاميرية ، والاغلال من القدس الى صيدا اعتمادا على انه افضل تحصيلدار لأولي الامر • فما خيب الامير ظن ابراهيم باشا فيه ، كما انه لم يسبق له ان خيب ظن الوزراء في ايالة عكا ، ذلك لانه لم يكن يقيم اي وزن لرعيته ، وانما كان حسبه ادراك رضاء اولي الامر باية وسيلة ، فكانت العاقبة وقوع لبنان في البؤس والافلاس (١) •

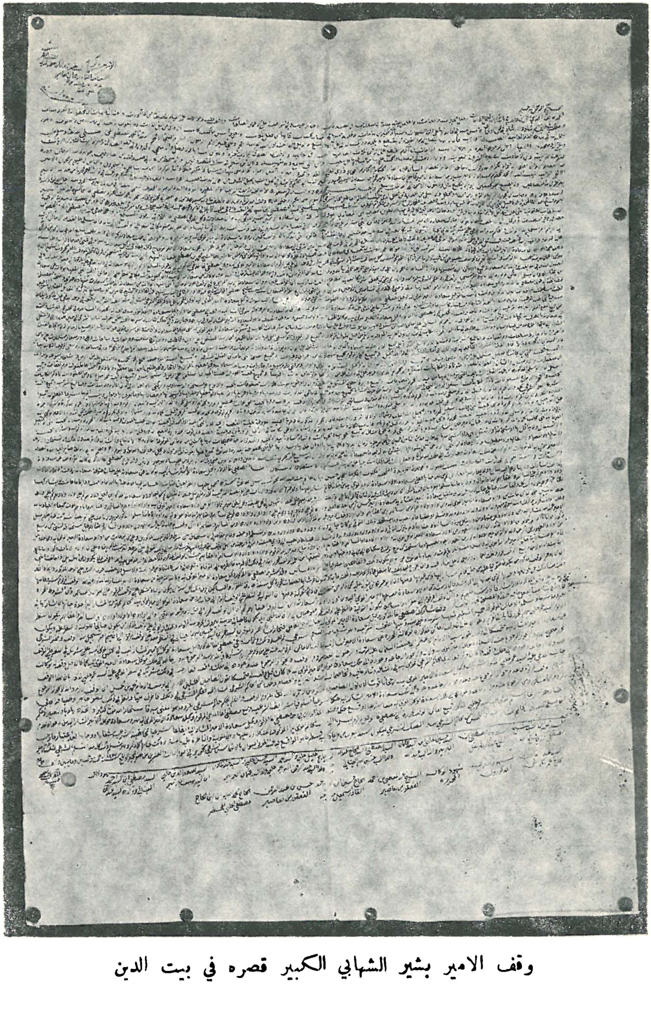
ثم ذهب الامير بذهاب المصريين سنة ١٨٤٠ ، وسيق الى مالطة منفيا ، فهلل الناس وكبروا ، من شدة الفرح ، وتناسوا احزانهم على ضحاياه ، وتناسوا اموالهم التي سلبت ، ودورهم التي خربت •

---

(١) نشرت مجلة « اوراق لبنانية » في الصفحة ٤٨٩ تقريرا لترجمان قنصلية فرنسا في بيروت سنة ١٨٤٠. استعرض فيه البؤس الشديد الذي كان يخيم على لبنان ايام الحملة المصرية (١٨٣٠ – ١٨٤٠) والامير بشير ، فاشار الى ما كان لهذا البؤس ، في ذلك العهد ، بالاضافة الى الاخلاف بالوعود الفرنسية من العون لانكلترا على القائها الفتور بين اللبنانيين وبين فرنسا صديقتهم القديمة .

الفصل السادس

سياسة الامير بشير شهاب الكبير وعواقبها



وقف الامير بشير الشهابي الكبير قصره في بيت الدين

تقلب الامير بشير وراء مصلحته

كان الامير بشير سياسيا محترفا ، وحاكما مهابا ، وهو وان استطاع ان يحقق الامن في بــلاده ، ويحافظ على الاخــلاق بين رعيته ، ويقيم العدل بين افرادها المسالمين ، لكنه كان على صعيــد السياسة من نوع الساسة المكيفاليين الذيــن لا يهمهم الا الوصــول ، واذا استووا على كرسي الحكم المحبوب لا يقيمون وزنا لما يتندر به الناس حول الوسائل التي اتخذوها لادراك الغاية ، ولا يبالون بالقــول المأثــور (كل راع مسؤول عــن رعيته) وهو في ذلك نقيض نابليون بونابرت الذي كان يقول « لو اتيح لي الاستيلاء على قــوم يعبدون البقر لانحدرت الى صفهم ، وقطعت الحشيش لاطعام معبودهم . »

وكان الامير الى هذا لا يعبأ بالمستقبل البعيد : مستقبله ومستقبل اسرته وامته ، وانما كان انتهازيا يعتقد ان عصفورا واحدا في اليد خير من عشرة على الشجرة . ولذلك كان يلبس لكــل حالة لبوسها لقنص هذا العصفور ولو افلت التسعة من حوزته . فهو عبد طائع لآل عثمان ، ولعاملهم على ايالة عكا ما دام احد لا ينازعهما على السلطنة ، وهو عبد طائع كذلك لغيرهم اذا قدر ان الفوز سيكون من نصيبه . اما الوفاء لهذا السيد أو ذاك ، والوفاء لهذه الفئة من رعيته أو تلك فما كان لهما في معجمه السياسي اي معنى عند المقدرة . واذا التمسنا له عذرا على ارتكابه ما يوصف بالخيانة للدولة التي كــان ينتسب اليهــا نظرا لان الوزيرين الجزار والخزندار قد احرجاه حتى اخرجاه ، واصبح يترقب الفرج ولو من الشيطان ، فاي عذر نلتمسه له على تصفيته زعماء بلاده

واحدا بعد واحد ، وعلى انقلابه علــى مؤيديه بعد تصفية الخصوم ، ومطاردتهم ، ومصادرة املاكهم وارزاقهم ؟

ــ في السياسة الداخلية

ــ ألم يستهل الامير حياتــه السياسية في التآمر على سلفه حاكم دير القمر الامير يوسف على ما بينهما من القرابة والحقوق ؟• بلى وظل يوشي به ، وهو في سجن عكا ، حتى قتله الجزار •

الم يواصل مطاردة اولاد الامير يوسف وانصارهم ؟ بلى وامعن في الفتك بهم وفي تشريد من شرد منهم •

الم ينقلب على مؤيده الاكبر الشيخ بشير جنبلاط ، وينكل بــه وباسرته ؟ بلى وصادر املاكهم وارزاقهم بعد ان استعان بالشيخ المشار اليه وباموالـه للوصول الى الحكم ، واستعان بآل جنبلاط للقضاء على خصومه •

الم ينقلب على آل عماد انصاره الذين كانوا سيفه القاطع في القضاء على اعدائه آل نكد وآل القاضي وسواهم من زعماء البلاد ؟ بلى وقد كان نصيبهم نصيب آل جنبلاط في التنكيل والمصادرة والمطاردة • ثم الم يدر ظهر المجن للنصارى الذيــن ظاهروه ، في اول الامر ، وعاونوه ، ولا سيما مشائخ آل الخازن الذين احتضنوه ؟ بلى لقد قتل من قتل منهم مــن رجال الدين ، ومن رجــال الدنيا الذيــن اشتهروا مــن قبل في اخلاصهم له ؟

واخيرا وليس آخرا ألم يتهمه النصارى بانه يعاملهم معاملة شاذة لا يعامل بها غيرهم ؟ بلى وقد جعل بطريرك الموارنة يتحول الى عدو له ، ويفرح عند نكبته ، ثم يقف موقف المعارض في وجه بطرس كرامي حينما جاء لاستامبول يلتمس توجيه المنصب الى ابن الامير بشير • اجل كل ذلك قد حصل ، وكان من عواقبه ان البلاد بأسرها أمست مجمعة على

معاداته على الرغم من سعيه الدائم لتفريق الصفوف بين الدروز والنصارى تلك السياسة التي كان يستوحيها من احد القناصل على ما ذكر بعض المؤرخين . اما العاقبة فكانت تصفية زعماء جبل لبنان ، وافقار شعبها حتى اذا فتحت ابواب الهجرة الى الاميركيتين اسرع شبانها الى العالم الجديد آلافا مؤلفة .

ـ في السياسة الخارجية

ـ وعلى هذا النمط في التقلب الدائم كان الامير بشير بهلوانا في السياسة الخارجية ايضا ، وحتى في السياسة التي لا تتعدى نطاق السلطنة العثمانية . فهو الذي كان اذا خاطب الباب العالي او اي احد من الوزراء باستامبول يخاطبهم مخاطبة العبد لسيده كان سرعان ما يخرج على متبوعه الاكبر ، ويمشي في ركاب متبوعه الاصغر عندما يظن ان هذا الخروج اجدى له : أجل فما ان تمرد عبد الله باشا في عكا على أوامر سلطانه حتى ظاهره على العصيان ومشى في ركابه للاستيلاء على دمشق . ثم كان من تزييف التاريخ اتخاذ بعض المتأخرين تعرض الامير بشير الى دمشق دليلا على عظمته واستقلاله بينما انه كان في هذا التعرض يأتمر بامر متسلم عكا ، ويمشي وراءه دون ان يكون لوطنه اية فائدة من هذا التحيز .

واما في الحقل الخارجي فقد اتهم بالخيانة لدولته المتبوعة عندما همّ نابليون بونابرت ببلاد الشام ، وزحف من مصر وشدد الحصار على عكا . ولو اتيح لهذا الفاتح الفرنسي فتحها والمضي في تقدمه لمشى الامير في طليعة جيشه . والى هذا فقد اتهم بالتقلب عندما نحي من منصبه على اثر فشل نابليون الذي كانت تحاربه انكلترا من وراء الستار اذ تحول الى الجانب الانكليزي واخذ يتودد له على رجاء ان يتوسط له عند حليفه الباب العالي من اجل استعادة هذا المنصب .

ثم لما نشبت الحرب بين روسيا وتركيا سنة ١٨٢٥ ، وتقدمت الجيوش الروسية نحو واستامبول اتهم مرة اخرى بانه كان على اتصال مع سن بترسبورج • يؤيد ذلك ما جاء في مجلة اوراق لبنانية في جزئها الثاني « ان قيصر روسيا امر سفيره في العاصمة العثمانية بتهريب الامير بشير » •

وفضلا عن هذا وذاك فلما نجحت الحملة المصرية في الاستيلاء على بلاد الشام (١٨٣٠ ــ ١٨٤٠) كان الامير المساعد الايمن لقائدها ابراهيم باشا في توطيد اركان الحكم لها في الساحل السوري وذلك من عكا عبر حدود القدس الى ما وراء بيروت •

وهذا التقلب في السياستين الداخلية والخارجية كانت له عواقب وخيمة فهو علاوة على انه افقده ثقة اهل المناصب من مواطنيه ، فقد أخسره ثقة دولته وثقة الدول الاخرى ، واثار النقمة عليه في الداخل والخارج • ولما اضطر الجيش المصري للانسحاب بناء على اتفاق الدول الاوروبية باستثناء فرنسا خف الامير بشير الى صيدا مع امرأته واولاده الثلاثة وترامى على اقدام خليل باشا قائد الجيش العثماني طالبا السماح والمغفرة ، وقد اجيب طلبه على ان يغادر البلاد ، فاختار جزيرة مالطة منفى له ، ولذلك لقب بالمالطي • ولكنه لم يلق هناك القبول الذي كان يتوقعه • يشير الى ذلك مرافقه في المنفى رستم باز حيث يقول في مذكراته : « ان حاكم مالطة من نظرة واحدة عرف ما هو هذا الانسان ، وانه لقبه بالوحش » فسمح له بالانتقال الى دار السعادة حيث لم يذق طعم السعادة اذ عدا انه كان يعتبر فيها خائنا لمتبوعه فقد كان عرضة لتوبيخ الضمير على ما قدم وأخر لنفسه ولوطنه • وظل كذلك حتى جاءه الاجل سنة ١٨٥١ •

النقمة العامة على الامير بشير في الداخل والخارج

استخلف ابو بكر الصديق عمر بن الخطاب فكره الانصار تبوأه الحكم من بعده ، كما كره ذلك اكثر الناس غيرهـم ، وخصوصا آل هاشم الذين يرون انفسهم أحق منه بالخلافة ، ولكـن عمر ، الذي ظل خليفة عشرين سنة ، ما ان فارق الحياة حتى أجمع الناس على حب ولايته وفي مقدمتهم من كان قـد كرهها ، وأجمعوا ايضا على تعظيمه ، وعلى تلقيبه بالفاروق اشارة الى عدله وتفريقه بين الحق والباطل •

واما الامير بشير الثاني فكان على عكس ذلك : كان حينما تولى الحكم يتمتع بحب الناس ، وما عدا عيلة سلفه الامير يوسف ملحم شهاب وانصارها كان الجميع يتوسمون فيه الخير ، ثم حكم حكما متقطعا خلال نحو خمسين سنة ، ولما نفي تنفس النـاس الصعداء ، وهللوا وكبروا فرحا بالخلاص منه • اجل لقد خلع عليه الجزار التزام الحكم سنة ١٧٨٨ ولكن لم تدخل سنة ١٧٩٠ حتى لم يبـق له صديق غـير الشيخ قاسم جنبلاط على رواية ابن عمه المؤرخ الامير حيدر الشهابي فهو يقول في مناسبة ثورة المتن التي وقعت في ذلك العام ما يلي :

« حضروا لعنده مناصب البلاد خوفا منه ، وكانوا الجميـع لهم ونس في تلك الحركة » (ص ١٦١) ويقول ايضا في تنحيته عن الحكم في اعقـاب ذلك « ورجع الامير حيدر والامير قعدان مـن عكا الى دير القمر ، وحكموا مكـان الامير بشير ، واجتمعت أكابر البـلاد ، وصاروا حال واحد ، وأجروا عهود ان لم يقبلوا حكم الامير بشير • » (ص ١٦٣) • والواقع فان أكابر البلاد ذهبوا الى ابعد من ذلك حينما بلغهم ان الجزار رضي عن الامير بشير ، وأعاده الى الحكم سنة ١٧٩٢

اذ ردّت أكابر البلاد جواباً الى الوزير « ان لم يمكن يقبلوا حكم الامير شبير » (ص ١٧١) • واذا علمنا ان موقفا كهذا في وجه الجزار يعتبر جرأة كالارتماء في النار قدرنا مقدار نقمة الناس على الامير التي بلغت حد عدم المبالاة بالاخطار •

ذلك ما حدث في مطلع حكم الامير بشير حينما لم يكن قد استفحل خطره اما بعد ذلك وقد نكب الجميع حتى لم يسلم منه صديق ولا محايد فالى اي مدى بلغت نقمة الناس عليه ؟

نترك الجواب على هذا السؤال لرستم باز مرافقه في الحل والترحال ، فهو أعلم الناس به فقد عزا اسباب تلك النقمة عليه في مذكراته بقول موجز : « لما قتل من الناس ظلما ، ولما سلب من اموالهم ، ولحرمانه كثيرين من نور الشمس وضوء القمر • » تلك الامور التي اشرنا اليها مفصلة ، والتي زادت عليها مجلة الميثاق اللبنانية (حزيران ١٩٦٦) امثلة جديدة نقلا عن ثقات المؤرخين ، وقالت :

ــ من فظائعه المتكررة انه دفن حسن بن ناصيف الغريب من كفرمتى حيا •

ــ وقتل اولاد باز جرس وعبد الاحد بعد ان كان أمنهم ، وتوسط البطريرك يوسف التيان بينهم على ان يحلف جرس باز على جسد المسيح ، وان يحلف له الامير بشير كذلك • وبعد حلف اليمين في كنيسة التلة قتل جرس في دير القمر ، وعبد الاحد في جبيل •

ــ سمل العيون ، وقطع الالسنة ، ومنع بعضهم من الزواج ليخلو له الجو ، ولينقيه من الانداد •

ــ « كان يجري امور في بتدين من اولاده واحفاده وعبيده ومماليكه لم تجر في سدوم وعمورة • وكانوا يوزعوا السعات ، ويأتوهم بالنساء الى جبل بتدين ، وهم بانتظارهم ، والذي يرجع فارغ لا يعطى

حائزة • » على ما روى رستم باز •

كل ذلك بالاضافة الى تقلب الامير بشير في السياستين الداخلية والخارجية ادى الـى انتزاع الثقة منه ، واحـلال النقمة عليه مكانها ، فضلا عن انه افضى الى شيوع الاستكانة والخضوع ، تجـاه الاتراك بين قوم اشتهروا بالانفة وعزة النفس • ولكن شدته في العقاب وبطشه كانا يجعلان هؤلاء الاباة ينامون على ضيم كاظمين الغيظ منتظرين الفرج يأتيهم من الخارج • ولما سقط ، في اعقـاب انسحاب الحملة المصرية ، قوبل سقوطه بالشماتة والارتياح على الرغم مـن ان اميرا مثلـه كان جديرا بان تعقد عليه الآمال لو استقام • ولقد خسرت اسرة آل شهاب منـذ ذلك كرسي الحكم في دير القمر حـين ان الفرص كانت سانحة للامير بشير ان يبني لها بعكا ، او بدمشق عرشا كعرش محمد على باشا بالقاهرة • وهي اسرة جديرة بكل خير ليس لانهـا ذات حسب ونسب فقط ، وانما لما عرفت به من قبل ومن بعد من الشمائل التي يتحلى بها الاصلاء من الناس •

ولنترك الكلام هنا للدكتور مشاقة الذي قال في كتابه مشهد عيان (صفحة ١٣٧) وذلك في سياق الكلام عن كره الناس للامير بشير :

« ولما وصل الى الاستانة قدم اليها المعلم بطرس كرامي ، وسعى عند رجال الدولة بارجاع الامير او احد انجاله الى حكومة لبنان ، وكاد يفلح بسعيه وارسال الامير امين حاكما علـى الجبل وبقـاء والده في الاستانة ••• وقيل ان الخوري نقولا (الذي كان يرافق الامير) اعلم سيده البطريرك بما ينوي الامير على اتيانه فأرسل غبطته للدولة رسالة ملأها قدحا بالامير امين ، واكد لهـا ان الجبـل يصبح ملعبا للشقاق والفساد في دولته لانه اظلم مـن والده • وكثرت العرضحالات تترى على الدولة من المشايخ والامراء ورجال الدين يسترحمونها بعدم ارسال الامير امين اليهـم • » فكـان ذلك حافزا للصدر الاعظم لان يسترد

الفرمان السلطاني الذي صدر في نصب الامير امين حاكما على الجبل •

واذا كان هذا قد حدث ابان وجود الامير في منفاه منكوبا محروما من كل سلطة فان حادثة اخرى وقعت في غضون ما كان يتربع في دست الحكم ، ويتمتع بثقة متبوعه دلت ايضا على مقدار كره الناس له وعلى اجماعهم على ذلك في المدن كما في القرى • فقد علم اهل بلدنا بيروت ان عبد الله باشا والي عكا ولى على ثغرهم الامير بشيرا حاكما فصعقوا لهذا النبأ ، وعلى الرغم من انقسامهم وقتئذ الى حزبين : حزب المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله الطرابلسي الذي كانت اسرتنا ساعده الايمن ، وحزب القاضي الشيخ احمد الاغر البيروتي فقد اتفق الحزبان المتنافسان ، يوم لم يكن ينتظر احد اتفاقهما على شيء واحد ، وتمردا معا على واليهم الجبار غير عابئين بما وراء ذلك من الاخطار • « ثم اجتمعوا جميعا وعزموا على عدم دخول الامير الى المدينة ، وطردوا اتباع الامير ، ورصدوا ابوابها » (ص ٧٢٥) • ويزيد على ذلك الامير حيدر الذي روى هذه الحادثة ان مدينة بيروت اغلقت ابوابها في وجه الامير وموظفيه ليحولوا بينهم وبين استلامهم زمام الحكم على غير ما يريدون •

الفرصة التي اضاعها الامير بشير على نفسه واسرته وقومه

في مطلع القرن السابع عشر خلف الامراء الشهابيون آل معن على امارة ما كانـوا يسمونه وقتئذ باشواف صيدا ، ويعنون بذلك الجبال المشرفة على هـذه المدينة • ولما صـارت الامارة للامير بشير الثانـي الموصوف بالمالطي ثم الكبير اتيح له ان يحكم حكما متقطعا خلال نحو نصف قرن • وفي غضون هذه المدة الطويلة ، التي قلما يدركها حاكم ، بدرت له اكثر من فرصة لتحرير وطنه من سلطة آل عثمان ، ولبناء عرش له ولاسرته من بعده اسوة بغيره من المعاصرين •

فقـد عاصر الامير بشير المشار اليه كلا مـن سلاطين آل عثمان سليم الثالث «١٧٨٩ ــ ١٨٠٧ م» ، ومحمود الثاني «١٨٠٨ ــ ١٨٣٩» ، وعبد المجيد « ١٨٣٩ ــ ١٨٦١ » ، هؤلاء العواهل الثلاثة الذين نكبت السلطنة في ايامهـم بحروب خارجية ، وثورات داخليـة كادت تودي بدولتهم خصوصا وان طائفة الانكشارية العسكرية ، التي كانت تعتمد عليها السلطنة العثمانية من قبل في فتوحاتها ، امست في القسم الاول من هذه الحقبة مصدر بلائها : فهي كانت تفرض ارادتها علـى السلاطين ، وتقف في وجه كل من اراد منهم الاخذ بالاصلاحات الجديدة المقتبسة عن اوروبا ، ولا سيما في تنظيـم الجيش علـى النمط الحديث ، واذا وجدت الجرأة عـند احدهم لمعارضتها ، او لتحقيـق شيء من هـذه الاصلاحات تعرض للخلع او للقتل • هذا ما اصاب السلطان سليم المشار اليه ، وهذا ما وقع لسلفه السلطان مصطفى الثالث •

ولما احتل نابليون بونابرت مصر شجعتـه الفوضى المستحكمة في

السلطنة العثمانية على التقدم لاحتلال سوريا ، وزحف عليها حتى حاصر عكا ، وكانت تجري بينه وبين الامير بشير شهاب مخابرات سرية في هذا الامر ، ولكن الامير بشيرا لم يجرأ على الوفاء بما وعد نابليون ، بينما ان دائرة الاستخبارات الانكليزية رفعت القناع عن سرية تلك المخابرات فأمسى الامير بعد رجوع جيش نابليون عن عكا سنة ١٧٩٩ مغضوبا عليه من دولته ومن فرنسا في وقت واحد فضلا عن بريطانيا العظمى •

ثم لما اتيح للسلطان محمود الثاني القضاء على طائفة الانكشارية وانبرى للاصلاح على وجه عام ، ولانشاء الجيش النظامي على وجه خاص ، فوجىء بثورة آل سعود الذين وصلت طلائع جيشهم الى اطراف دمشق ، وفوجىء بثورات اخرى في اليونان ومكدونيا والبلقان وكريد كانت تساندها روسيا التي جعلت هذه الثورات مقدمة لحرب شنتها عليه • وهذه الثورات الداخلية وتلك الحرب الروسية التي جعلت السلطنة تشرف على الهلاك شجعت محمد علي باشا والي مصر للزحف عليها ، وهو يريد عاصمتها بالاتفاق مع فرنسا • اما الامير بشير فانه بدلا من التفكير مع اصحاب المناصب في بلاده في الاستقلال فقد تردد في الوفاء لما تعهد به لمحمد علي باشا ، كما تردد من قبل في الاستجابة لنابليون بونابرت • ثم لما استطاع ابراهيم باشا قائد الحملة المصرية الاستيلاء على سوريا تحول الامير الى عامل له مخلص يأتمر باوامره •

وقبل ان يصل نبأ انتصار ابراهيم باشا في نصيبين على الجيش العثماني الى مسامع السلطان محمود ادركه الاجل تاركا مهمة انقاذ السلطنة لولده السلطان عبد المجيد « ١٨٣٩ — ١٨٦١ » • ولكن هذه المهمة اصبحت صعبة المنال ، ولولا تدخل الدول الاوروبية الاخرى ، ومناداتها بالحفاظ على الستاتيكو Statuquo ، أي بقاء ما كان على ما كان ، لاستولى محمد علي باشا على العاصمة وبلادها • ولكنه

اذ اضطر للرجوع الى مصر علـى الرغم من انتصاراته سنة ١٨٤٠ ترك الامير بشيرا بين يدي حكومة استامبول فانتزعته من بلاده ، والقت به الى جزيرة مالطة منفيا حيث قاسى مرارة الغربة ، ووخذ الضمير .

وهذه الاحداث التي استعرضناها كافية للدلالة على ما صارت اليه احوال السلطنة خلال المدة الطويلة التي تمتع فيهـا الامير بشير شهاب بالحكم . فقد استحكمت الفوضى فيها الى حد ان عمّالها في الولايات اخذ بعضهم يشهر الحرب علـى البعض الآخر وكأنهم مستقلون ، كما وقع بـين عبد الله باشا الخزندار متسلم عكا ، ودرويش باشا متسلـم دمشق . واما الامير فانه بدلا من التفكير في مصير بلده فانه ظل يدور في نطاق الحفاظ على امارة دير القمر ، وفي هذا السبيل مشى في ركاب عبد الله باشا الخزندار صاحب صيـدا ضد درويش باشا والي دمشق الذي كانت تسانده حكومة استامبول ، فاذا به يعزل من هذه الامارة ، ويبقى محروما منهـا مدة طويلة حتى اسعفته الظروف للحصـول على عفو دولته .

كل ذلك يعـود الى ان الامير المشار اليه كـان على غير مستوى الامير فخر الدين المعني الثاني في الطموح : فالامير المعني كان طموحه يتعدى امارة اشواف صيدا ، ويرمي الـى الاستقلال التام في ولايـة عربستان (١) ، والى انشاء دولة عربية تعترف بها الدول الاجنبية وذلك على الرغم من ان السلطنة العثمانية كانت في ايامه لا تزال تحتفظ بشيء كثير من قواها البرية والبحرية ، وتحتفظ بهيبتها الدولية . واما الامير بشير الثاني فكان طموحه يقتصر على كرسي دير القمر . وعلى قدر اهل

---

(١) كانت بلاد الشام في عهد آل عثمان يطلق عليهـا عربستان . يؤيد ذلك ما جاء في الصفحتين ١٨٦ و ١٩٢ وغيرهما من كتاب لبنان في عهد الامراء الشهابيين الذي طبعته وزارة المعارف بلبنان سنة ١٩٣٣ .

العزم تأتي العزائم كما قـال المتنبي . ولذلك فهو قـد تلهى بالصغائر المحلية في حين ان مبدأ القوميات كان قد تبلور كثيرا في ايامه ، واستفحل بالنسبة لما كان عليه في عهـد الامير فخر الدين المعني ، وفي حـين ان النفوذ الاجنبي على السلطنة العثمانية كان قـد اشتد في ايامه بعد ان انقذتها الدول الكبرى من روسيا في عهد السلطان محمود ، ومن الحملة المصرية في مطلع عهد السلطان عبد المجيـد . والجدير بالذكر ان هذه الدول كانت ، على الرغم مـن اختلاف مقاصدها في القضية التي كانوا يسمونها المسألة الشرقية كانت متفقة الرأي على صعيـد تحرير العناصر عير التركية من نير آل عثمان ، ولا سيما في شرقـي اوروبا . لذلك لما ثارت اليونان ، في بداية القرن التاسع عشر ، ايدتها الدول الاوروبية . ولما حطمت عمارات هذه الدول الاسطولين العثماني والمصري في مرفأ نافارين اليوناني اعلنت ان عملها هذا كان تأييدا للمبدأ القومي .

زد على ذلك ان فرنسا كانت متأهبة لمساعـدة الامير بشير علـى تحقيق استقلال لبنان وبلاد الشام لو آنست فيه استعدادا للقيام بمثل هذه المهمة لانها كانت ، بعد انسحابها مـن مصر بفعل بريطانيا العظمى التي اضطلعت وقتئذ باعباء حماية السلطنة العثمانية من الزوال ، كانت تنشط كل طامع يريد الاستقلال في بلاد الشام سواء اكان آتيا من جوار هذه البلاد او من داخلها على امل ان تتخذ منه سندا لها في ابعاد النفوذ الانكليزي ، واحلال نفوذها مكانه . فعلت ذلك من قبل مع محمد علي باشا والي مصر ، كما فعلت ذلك من بعد مع مدحت باشا والي دمشق ، ثم مع يوسف بك كرم بلبنان وكـان قصدها بذلك ان تخلـق الفرصة المواتية للعودة الى الشرق الادنى .

ولكن الامير بشير الذي كان مطمعه لا يتعدى نطـاق الحكم في لبنان لم يعر أي إهتمام للظروف الداخلية والخارجية المواتية للاستقلال .

بلى راح في سبيل الامارة يطارد خصومه ، ثم يتبع بهم انصاره القدماء ، ويلقي الخصومة بين الطوائف ، ويستخدم جند الدولة في اذلال المتمردين عليه ، وفي جمع الاموال التي يطلبها متبوعه على استمرار . وهو في ذلك لا يتمنى شيئا آخر غير الحفاظ على « طيبان الخاطر » من قبل هذا المتبوع . « وكفى المؤمنين القتال » . حتى اذا قتل من قتل من اصحاب المناصب ، وشرد من شرد منهم ، والقى الشعب في هاوية الفقر جعل هؤلاء وهؤلاء من الرعية ينافسونه في العبودية لعمال الاتراك في عكا ، ولباشاواتهم في استامبول على الرغم مما هو معروف عنهم من عزة النفس ، وكرامة الاخلاق فضلا عن شدة البأس والشجاعة . وعلى الرغم من مناعة بلادهم الحافلة بالجبال والمعاقل .

واذا التمسنا له عذرا في عزوفه عن الخروج على دولته استنادا الى انه كان مخلصا لمتبوعه الاعظم عملا بالآية الكريمة « وأطيعوا الله والرسول وأولي الامر منكم » فهذا العذر يبدو غير مقبول اذا علمنا بانه سبق له ان تآمر على هذه الدولة سرا وتباعا مع نابليون بونابرت ومحمد علي باشا وروسيا مع العلم ان مؤامراته هذه لم يكن الغرض منها استقلال لبنان ، وانما كانت ترمي اما للعودة الى الامارة ان كان معزولا ، او الحفاظ عليها ان كان حاكما .

وقد يلتمس احد الناس عذرا آخر للامير بشير بالاشارة الى فشل مدحت باشا والي دمشق الذي حاول بعد نحو ربع قرن أن يقيم له خيديوية في سوريا كخيديوية مصر ، ولكن هذا العذر غير وارد لان مدحت باشا فضلا عن كونه غريبا عن بلاد الشام ، ولا عصبية له فيها ؛ فان اوضاع لبنان هي غيرها في سوريا . فعدا جباله التي تشبه المعاقل فان سكانه الناشئين بين الصخور في الاجواء الصحية ، اولئك الذين كانوا يحافظون على تكتلاتهم القبلية وعلى التضامن عند الملمات ، والذين كانوا مشهورين بالشجاعة التي ما بعدها شجاعة كانوا اشد كفاءة

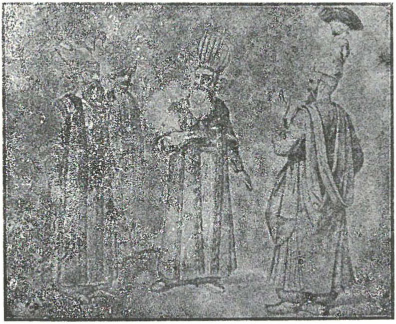
في الحروب من القاطنين في السواحل والسهول على وجه عام • زد على ذلك ان المؤرخين المتأخرين يزعمون بان الامير بشير استطاع ان يجند خمسة عشر الف مقاتل • وهو امر مبالغ فيه علـى ما اعتقد لان خزينته المالية لم تكن عامرة الى هذا الحد • وعلى افتراض صحة هذا القول • فاذا اضيف هـذا الجند النظامـي الوافر العدد ، الى قـوى اصحاب الاقطاعات ، وهي الشعب كله ، فانها تشكل قوة لا يستهـان بها ، ولا سيما اذا كانت الحرب من قبيل حرب العصابات • بلى والأهم من كل ذلك هو اختلاف الظروف : فالامير بشير كان يعاصر سلاطين ضعفاء ، سلاطين ألقتهم المشاكل الداخليـة والخارجية في احضـان دول اجنبية تعهدت بحمايتهم ، وهي في الحقيقة غير مخلصة لهم • واما مدحت باشا فقد حاول الخروج على الدولة ، في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ذلك الداهية الذي كان يلعب بالدول كالكرة وذلك باثارة بعضها على بعض في القضايا العثمانية • هذا فضلا عن انه كـان يظهر القوة مكان الضعف برفع راية الجامعة الاسلامية على نطاق عالمي فكان يجـابه بها المشاكل الكبيرة المتوالية بقلب كبير ، وكلما جاءه الصدر الاعظم ينبئه بانذار جديد من قبل احدى الدول محدد الساعات كان يهدىء روعه ، ويقول « لا تجزع اترك الامر للزمان فهو كفيل بحله » •

ولكن السلطان عبد الحميد لم يكن مـع ذلك يتوكل على الزمان فحسب ، وانما كان يعقل قبل التوكل اذ يلجأ الى القـاء كرة السياسة بين الدول المتصارعة ، في غضون ما كانت الامبراطورية الالمانية قد برزت الى الميدان متحفزة الى التوسع ، فاذا بسحابة تلك الازمة التي ارتعدت لها فرائص الباب العالي في استامبول تنجلي ، وتذهب مع الريح • على ان هذا السلطان وان سقط في نهاية الصراع سنة ١٩٠٩ على يد داخلية في الظاهر ، يد جمعية الاتحاد والترقي ، وخلع الا انه لم يهزم الا بعد ان

استطاع بدهائه وحنكته السياسية تأجيل وفاة الرجل المريض ، « على ما كانت المحافل السياسية تسمي به دولة آل عثمان » نحو ثلاثين عاما ، بينما ان الاتحاديين « نسبة لجمعية الاتحاد والترقي » الذيـن سيطروا على الدولة من بعده قضوا عليها قبل ان ينقضي عشرة اعوام تقريبا على استلامهم زمام الحكم ، واذا اراد الله امرا يسر له الاسباب .

ومن هنا جاز لنا ان نوجه اللوم للامير بشير على اضاعته الفرصة التي سنحت في ايامه لاستقلال هذا البلد العربي ، ذلك الاستقلال الذي كان مقدرا له ان يكـون بمثابة الخطوة الاولى لاستقـلال سائر القطر السوري منذ القرن التاسع عشر .

وعلى افتراض ان النجاح كان غير مؤكد فانا ما كنا لنلوم الامير لو رأينا في سيرته ما يدل علـى تفكيره في شيء يسمى الاستقلال ، او محاولة التحرر .



زعماء طائفة الانكلشارية في جيش آل عثمان

هل كان الامير بشير مسلما ؟

ذهب المؤرخون اللبنانيون الى الجزم بان الامير بشير الثاني كان على دين عيسى ، واستطاعوا ان يحملوا الناس على الجزم مثلهم في هذا الامر بصورة لا يخامرها شك .

ولكن الاستاذ يوسف يزبك اعرب عن ريبته فيما اصبح بين الناس من قبيل البديهيات التي لا تقبل الجدل : فقد ارسل احد القراء الى « مجلة اوراق لبنانية » وثيقة للنشر ذوده بها رئيس دير بزمار بلبنان كدليل على نصرانية الامير فقال الاستاذ يزبك في تقديم هذه الوثيقة ما يلي :

« وفي احاديثنا التاريخية الكثيرة التي دارت بين استاذنا الفاضل لحد خاطر وبيننا حاولنا غير مرة ان نفتش عن مستند ثبت يزيل شكنا نحن شخصيا في نصرانية الامير بشير الشهابي الثاني ، او يؤكده » .

وقد وجدنا في هذا القول حافزا لنا للمساهمة مع الاستاذ يزبك في التثبت من هذا الامر وفي تمحيص الموضوع من كل جهاته خدمة للتاريخ ، ولا سيما لان الاستاذ يزبك لم يتعرض لتبيان مصدر شكه في دين الامير .

فعلى اثبات نصرانية الامير ابرز المتحمسون لهذا الامر وثائق كثيرة منها ما هو منسوب لخزائن الفاتيكان ، ومنها ما هو منسوب لخزائن الكنائس والاديرة بلبنان ، فضلا عن انهم استندوا في التدليل على ذلك ، الى اقوال بعض معاصري الامير ومرافقيه ، والى وصية

تنسب للامير بشير وضعت في مدينة بروسه في ١ تشرين الاول ١٨٤٩ يقول في مطلعها « اقر معترفا بان امانتي علـى امانة الكنيسة الرومانية المقدسة ، واؤمن بكلما تؤمن به وتعلمه » • وكان الشهـود على هذه الوصية الخوري اسطفان حبيش وعبد الله انطون بدردقجي ، وبطرس كرامة •

ولكن هناك ادلة اخرى ، ولا سيما في واقع الامير وواقع عصره ، تثبت من جهة ثانية بانه كان مسلما ، وانه لـم يكن في استطاعته الا ان يكون كذلك ولو في الظاهر •

وهذه الادلة وتلك تشير الى ان الامير المشار اليه الذي تقلب في السياسة تبعا لمصلحته الخاصة تقلب الانتهازيين كان له في الدين كذلك وجهان : وجه اسلامي يقابل به سلطانه ودولته ورعيته ، وآخر نصراني مستتر يواجه به الاكليروس المسيحي في بلاده ، والفاتيكان بروما على رجاء وساطة هذا الصرح الديني للحصول على مساندة فرنسا له التي كانت وقتئذ ذات نفوذ عظيم في المحافل الدولية ، فضلا عن انها كانت حامية النصارى في الشرق الادنى باعتراف السلطنة العثمانية •

ففي عهد الامير بشير كـان التعصب الديني شديدا بين الناس في الشرق والغرب على السواء ، وكانت السلطنة العثمانية لا تزال تعيش في شبه عزلة عن التمدن الحديث وهي مـن اشد الدول تعصبا للدين ، وحفاظا على اواصره ومذاهبه • وقد نوه دوسن بذلك حيث قال :

« فسواء للسلم او الحرب ، ولنظام سياسي او لقانون عسكري ، ام لعقاب وزير وقائد عام كانت تركيا تلجأ الى المفتي (١) طالبة فتواه • »

---

(١) لقب شيخ الاسلام عند العثمانيين جاء متأخرا عن هذا العهد الذي كان يطلق فيه اسم المفتي على صاحب اكبر منصب ديني في الدولة .

كما ان جوانان وفنكوفر صاحبا كتاب العالم L'univers اشارا في كتابهما الخاص بتركيا الى شدة نفوذ المفتي فيها بقولهما :

« كل شيء في المملكة تحت نفـوذه لانه نائب السلطان المطلق في الامور الشرعية والمدنية على السواء • وله مقام رفيع حتى انه اذا جاء لمقابلة السلطان يخف جلالته لاستقباله ، ويتقدم سبع خطوات نحوه حين انه لا يتقدم لاستقبال الصدر الاعظم الا ثلاث خطوات فقط • وفضلا عن ذلك كان للمفتي الحق بان يقبـل كتف السلطان بينما هو لا يسمح لكبير الوزراء بغير تقبيل ذيل ثوبه » Jouanan et Vangaver وكان جزاء المرتد عن الاسلام القتل • ومن هنا فان محمد علي باشا عزيز مصر ما ان بلغه تنصر نفر من الدروز بلبنان ابان الحملة المصرية حتى وصف هذا بالامر الخطير ، وكتب الى عامله ليستوضح من الامير بشير ، فكان جوابه ان هذه المحاولة توقفت بفضل شدته وتهديده •

لذلك لم يكن بوسع الامير بشير ، وهو عامل مـن عمال الدولة ، ان يتنكر لدينها ، فكان مسلما امامها ، وكان متقيدا بالشريعة الاسلامية في احكامه ومعاملاته ، يجري مجـرى سائر الحكام العثمانيين في احياء الشعائر الاسلامية في المناسبات خصوصا في شهر رمضـان والعيدين ، نيتقدم اليه المهنئون ، ولا سيما الشعراء بقصائدهم ويبادل اولى الامر التهاني والاماني على ما ورد في تاريخ الامير حيدر الشهابي وغيره من تواريخ عصره •

وهو بالاضافة الـى ذلك جرى مجرى المسلمين في جواز التسري فكان له بالاضافة الى زوجته: الاميرة شمس التيلم يشك احد من المؤرخين في بقائها على الاسلام سريته الجركسية حسن جهان التـي تزوجها ايضا بعد ان اعتنقها •

كل ذلك جعل الناس المعاصرين للامير حكومة وشعبا يجمعون على

تمسكه بالاسلام . واية ذلك ما روى الامير حيدر الشهابي بكتابه الغرر الحسان في احداث سنة ١٧٩٨ (ص ١٩٣) حيث قال : « قبل قيام الفرنساوية من عكا كان انمسك نصراني في ساحل بيروت اخذ خمر الى الافرنج » ، « سأله قبطان انكليزي عن الحاكم على الجبل فاخبره ذلك الرجل عن الامير بشير وحسن كرمه وزود عقله وانه ممشي الطريق محامي عن دين الاسلام . » ، هذا قول مسيحي لمسيحي آخر يرويه المؤرخ الشهابي . لذلك كان من شأنه ان يكون منسجما مع الحقيقة .
وبعد فلا ادل على اسلام الامير من صك الوقف الذي وقفه في اواخر ايامه بلبنان في محكمة بيروت الشرعية دون غيرها ، سنة ١٢٥٥ هـ « ١٨٣٩ م » . واعني به وقفه قصر بيت الدين الشهير على زوجته حسن جهان ، ومن بعدها وبعد انسالها من الامير واعقابهما على ابن اخيه الامير عبد الله بن الامير حسن ، ومن بعد انساله واعقابه الى الفقراء والمساكين على ان يكون قاضي بيروت الشرعي وقتئذ هو الناظر على الوقف المذكور (١) . وقد حررت هذه الوصية على وجه اسلامي مستهلة بالاحاديث الشريفة التي توصي بالصدقات ، وتنوه بالآيات القرآنية التي تدعو اليها . واني احتفظ في متحفي المتواضع بنسخة منها.

زد على ذلك ان ماورد في المحفوظات الملكية المصرية التي نشرها الدكتور اسد رستم جاء كدليل آخر على حفاظ الامير المومى اليه على الاسلام وعلى ملاحقة المرتدين : ففي هذه المحفوظات ، وفي صدد محاولة بعضهم تنصير نفر من الدروز بلبنان خلال الحملة المصرية وجه محمد شريف باشا رسالة الى سامي بك معتمد مصر بلبنان وذلك بناء على امر محمد علي باشا عزيز مصر الذي وصف هذه المحاولة بالامر

---

(١) كان السيد عمر بيهم مع مصطفى اغا وكيلين عن الامير في هذا الوقف بالمحكمة الشرعية .

الخطير • وجه اليه رسالة في سنة ١٢٥٢ ه يأمره فيها بالتحقيق عن هذه المحاولة ، وبوجوب تلافيها ، فرد الامير لسامي بك الجواب بتاريخ ٦ جمادي الاولى سنة ١٢٥٢ ه جاء فيه :

« فاما حقيقة هذه القضية هو انه كان بعض الاشخاص ، وقليل جدا جدا ، اراد التداخل بالطريقة العيسوية فأظهرنا التنبيه والتشديد الكلي ، وايدنا كمال التهديد بالسطوة الخديوية العلية فانقطع هذا المبدى ، وخمدت نار هذه الشهوة •

« لا يغرب عن النيرة الشفافة انه موجود في الجبل طائفة امرا يقال لهم بيت ابي اللمع • فهذه الطائفة في الزمن القديم كانوا دروز ، وتداخلوا في الطريقة العيسوية رويدا رويدا الى ان صاروا جميعهم عيسويين وذلك من مدة اربعين خمسين سنة • ولم يبق منهم على طريقة الدروز احد الى عصرنا هذا سوى الامير احمد قايد بيه المقيم في قرية برمانا ، واولاد الامير نصر مراد المقيمين في المتين • وهم الامير سلمان ، والامير موسى والامير يوسف • فالامير احمد لم يزل باقيا على طربقة الدروز ، واما اولاد الامير نصر الثلاثة المذكورين كانوا بهذا الوقت ارادوا الدخول بالطريقة العيسوية لكنهم لما سمعوا بالتهديد والتشديد الذي حصل من عبدكم تركوا ما كانوا عزموا عليه • والان حينما صدر امر دولتكم بالفحص عن هذه القضية فحصنا ودققنا وحققنا فوجدنا ان الامراء الثلاثة اولاد الامير نصر المذكورين قد دخلوا في الطريقة العيسوية سرا ، ولم يزالوا مصرين عليها • وغيرهم من طائفة الدروز لم يدخل احد منهم في العيسوية لا سرا ولا جهرا ، لا من الاكابر ، ولا من الاصاغر • »

وعلى الرغم من ان مصادر اخرى تتهم الامير بشيرا بانه كان يشوق بعض الدروز لاعتناق النصرانية فان جوابه هذا لرئيسه سامي بك يبرهن

على انه كان يقف موقف المحامي عن الاسلام في وجه المبشرين الداعين الى التنصر . وربما كان الامير يفعل ذلك لا تمسكا بالدين الاسلامي ، وانما مراعاة للاوضاع وخوفا من العواقب .

وقد ذهب المصريون من لبنان سنة ١٨٤٠ ، وذهب بذهابهم الامير بشير الى مالطة منفيا ، ثم الى دار السعادة باستامبول ، فكان فيها لا يزال يعيش مسلما ، او متظاهرا بالاسلام . ولا بدع فهو في عاصمة السلطنة العثمانية وفي دار الخلافة منفيا احوج لهذا التظاهر منه ايام امارته بلبنان .

على ان الامير المشار اليه كان على الرغم من ذلك متهما في دينه خلال منفاه : فالوثيقة التي نشرتها مجلة اوراق لبنانية « س ٢ ص ٢٣٢ » للاب اغناطيوس طنوس التي قال عنها انها موجودة في خزائن الفاتيكان هي رسالة كتبها عبد القادر الحاج من استامبول في ١٣ ذي الحجة ١٢٤٠ هـ « ١٨٢٤ م » الى نسيبه مصطفى اغا بربر قال فيها في معرض شرحه المفصل عن سعايات الحاج عمر الدبوسي ضد بربر المشار اليه « وكان الدبوسي مبعوثا الى الاستانة من قبل والي طرابلس يومئذ علي باشا الاسعد قصد الوشاية بعبد الله باشا الخزندار والي عكا وصيدا ، وبالامير بشير امير الشوف » قال :

« هذا المفسد الدبوسي يجعل شواهد لكلامه بحقكم انكم دروز وانكم والامير بشير صايرين فرنج وغير ذلك . »

وهذه التهمة للامير بشير ان دلت على شيء فانها تدل على ما قلناه بانه كان حريصا على الظهور بمظهر المسلم على اقل تقدير لان الاتهام يوجه للبريء دون غيره ، ويبقى على مستوى التهمة اذا لم يصبح في حيز الثبوت .

ولكن هناك وثائق اخرى نشرتها مجلة اوراق لبنانية تثبت بان

الامير بشيرا كان على الرغم من مظهره الخارجي مسيحيا ، ومنها وثيقة للدكتور ب. ط « س ٢ ص ٥٧٤ » يرجع تاريخها الى سنة ١٨٢٠ هـ ، قال عنها انها محفوظة فياضبارات مجمع نشر الايمـان في روما الخاصة بالطائفة المارونية . وهذا نصها :

« ان الطائفة المارونية في جبل لبنان تعد سعيدة لان لها من يعنى لدرجة فائقـة بامورها الروحية ، وايضا لان حكامهـا المدنيين الذيـن يتقلدون زمام الامر هم الامراء الموارنة انفسهم . وهم يؤدون الجزية للتركي . في هذا البيت الاميري شخص له الاسبقية في بسط حكمه . ويقين ان سائر الامراء الذين لهم حكم على حدة هم دونه يؤدون له دون سواه طاعة عمياء . والذي يكبر الان الجميع هو الامير بشير الشريف رجل جد معتبر لصفاته النادرة ، والنيات المرموقة التي يجب ان يكنها في نفسه كل حاكم كاثوليكي . وقد لقب بالامير الكبير نظرا لعلو شأنه ، ونسبة للاخرين » وقال الدكتور ايضا انه قد جاء في هذه الوثيقة ما يلي : « لما كـان يحيط بالامراء من كل جهة اتـراك ودروز وبدو ووثنيون وعرب ومتاولة وهراطقة وسواهم مـن الشعوب غـير المؤمنة . فلكي لا يتعرضوا لخطر وفقد الامارة اقاموا لهم داخل قصورهم معابد خاصة حيث تقـام بكـل احتشام ووافر الاحترام الحفلات الكنسية المقدسة حسب تقسنا الماروني على يد واحد او اكثر من الكهنة الموارنة معينين لهذه الغاية ، ويلقون مـن الحكام انفسهم مظـاهر التقدير والاحترام الفائقة . »

ونحن نشك في وجود وثيقة كهذه في مجمـع نشر الايمان بروما الا اذا كانت مكتوبة في وقت متأخر عن عصر الامير بشير دست بـين اضبارات هذا المجمع . ذلك لان اسلوبها اذا قوبل باسلوب الكتابة في عصر الامير المشار اليه يبدو غريبا عنـه ، وانه اشد انسجاما بالاسلوب

الذي خلف زمنه ، او الاسلوب الذي لا يزال معروفا حتى الان . هذا من جهة ومن جهة اخرى لان الامير بشيرا لم يكن يلقب في حياته بالكبير، وانما كان هذا اللقب مختصا يومئذ بالامير حيدر موسى الشهابي « ١٧٠٦ – ١٧٣٢ » . واكبر دليل على ذلك صك وقف قصر بيت الدين الذي اوقفه الامير بشير على زوجته حسن جهان الجركسية الصك المذكور قبلا . فعلى الرغم من ان هذا الصك وصف الامير باوصاف كثيرة تكريما له فهو لم يشر اليه بلقب الكبير وانما قال في وصفه : سعادة الامير بشير ابن سعادة الامير قاسم ابن سعادة الامير عمر ابن سعادة الامير حيدر الكبير » والى هذا فليس من المعقول ما جاء في هذه الوثيقة من ترديد لاقوال نفر من الاوروبيين اللاتين زاروا لبنان وقتئذ وبعد عودتهم الى بلادهم طاب لهم ان ينشروا ما سمعوه في بعض المحافل الخاصة ان الامير بشيرا اقام له داخل قصره معبدا دينيا مسيحيا ، وكهانا قائمين عليه ، وان هؤلاء ما زالوا يسومون زوجته حسن جهان سوء العذاب والاضطهاد حتى اضطرت للاذعان وتنصرت . اجل ليس بمعقول ذلك بالنسبة للامير نفسه لانه وهو الذكي الداهية كان يعلم ان وراء القصر ، وربما في القصر ايضا خصوما منافسين له يتربصون به الدوائر ، وعيونا لهم يحصون عليه كل واردة وشاردة . فهل من المعقول ان يترك الامير لهؤلاء الخصوم مأخذا عليه ، وخصوصا مثل هذا المأخذ ، حين ان كان يضحي كل عزيز ونفيس في سبيل مرضاة اولي الامر ؟ ثم هل من المعقول ان يسمح الامير لاي احد ان يضطهد زوجته المحبوبة حسن جهان ويستعمل الاعمال الشاقة بغية حملها على التنصر . وهي التي كان يخاف عليها من النسيم على لغة الشعراء ، وهي التي خصها دون احد من عيلته بقصر بيت الدين ووقفه عليها ؟

والواقع فان اهم مستند اثبات على ان الامير بشيرا مات نصرانيا هو دفنه في كنيسة الارمن الكاثوليك باستامبول . خصوصا وان رستم

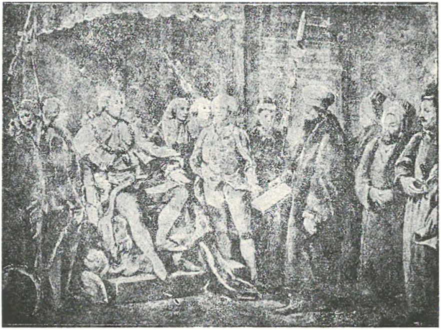
باز . الذي كان في عداد حاشيته شاهد عيـان ، يروي في مذكراته ان الدفن هناك كان بناء على وصية الامير . ولكن كل ذلك ليس من شأنه ان يجعل نصرانية الامير حقيقة لا ريب فيهـا ، لانه مات فجأة في غياب رستم باز الذي روى هذا الخبر دون ان يسمعه من فم الامير . والواقع فان الامير باستامبول كان محاطا بثلة من رجال الدين على رأسهم الخوري اسطفان حبيش ، والاب حسون وكيل بطريرك خانه الارمن الكاثوليك ، وبثلة اخرى مـن الاسر اللبنانية كآل باز وآل حبيش . وكل هؤلاء بالاضافة الى سفراء فرنسا وايطاليا وسردينيا ، الذين كانوا على اتصال بالامير في غربته ، كانوا يحرصون على ان يكون هذا ابن الكنيسة في الظاهر والباطن على السواء . وما يدرينا ان بعض هؤلاء اختلقوا نبأ وصيته في صدد دفنـه في كنيسة الارمن تحقيقا لهـذه الرغبات ام ان هؤلاء حرصوا على دفنه في تلك الكنيسة تجاوبا مع أمانيهم . وانهم هم نفسهم الذين اختلقوا وصيته الاولى في بروسة . على ان هذه الشكوك التي ساورتنا ونحن نناقش عقيدة الامير بشير الدينية لا تساعدنا على البت في رأي نهائي بهذا الموضوع . لذلك فانا وان كنا نؤكد محافظته على المظاهر الاسلامية في حياته الا اننا نترك الجزم في صدد الدين الذي لقي عليه ربه للممستقبل والله تعالـى اعلم بالسرائر . ولعل المستقبل يظهر ادلة جديدة تنير السبيل اكثر امام الباحثين .

وبعد هذا وذاك فان الذي يرجح القول بان الامير المشار اليه كان مسلما وفاة ابنائه الثلاثة على دين محمد اولئك الذيـن عاشوا في كنفه ورافقوه الى استامبول في منفاه ، وكانوا هنا وهناك يسترشدون باوامره ويتجهون بمقتضى توجيهاته حسب عادات ذلك العصر .

ولعل مصدر جزم كثرة المعاصرين من اللبنانيين ومؤرخيهم في ان الامير بشيرا المشار اليه كان نصرانيا يعـود الى قدرته علـى احسان التمثيل .

الفصل السابع

كيف اصطبغ لبنان بصبغته الحاضرة ؟



اول سفير للسلطنة العثمانية في البلاط الانكليزي

تجاوبا مع السياسة

طالما تساءلت أسوةبغيري: «لماذا تنصربعض أمراء لبنانفكانلتنصرهم ما كان من حيث القاء لون جديد على لبنان ؟ » تساؤل كان يحدوني اليه العجب من وقوع هذا العمل خلال عهد السلطنة العثمانية التي ما كانت تحمل لقب الخلافة فحسب ، وأنما كانت تتعصب لدينها ، وتتقيد بأحكام الشرع الشريف (١) حين كان امراء لبنان عمالا لها ، وكانوا يحرصون على أدراك رضاها للوصول الى المناصب الكبرى ، أو للاحتفاظ بها .

كان جوابي لنفسي على هذا السؤال أنهم فعلوا ذلك تجاوبا مع السياسة . ولكني وان أدركت السبب الحقيقي لهذا الامر فما كنت أعلم التفاصيل قبل أن أتيحلي دراسةالمواد التي تعينني على اثبات عروبةلبنان.

وقد أتضح لي بعد هذه الدراسة صحة ما ذهبت اليه من أن السياسة هي السبب الاول لتنصرهم ، وأن هناك أسبابا أخرى داخلية وخارجية منها ما يتصل بوضع آل عثمان ، ومنهـا ما يتصل بأوضاع أوروبا كانت ، بالاضافة الى وضع لبنان الخاص ، من العوامل الهامة لاختيـار أولئك الأمراء الدين الذي تتدين به الدول الاوروبية على رجاء ان يكـون هذا الاختيار في غضون تنازعهم حول كرسي الحكم ، عونا لهم على دنياهم .

وهذا ما سنبينه في هذا الفصل رغبة في تدوين ناحية من تاريخ لبنان لا أدري لماذا تجنبالباحثون التعرضلها، فهيوانكانت تبدو أنها منالامور الفرعية الا انها ، في الواقع ، مهمة اذ كانت صاحبة الاثر الاكبر في تكوين لبنان الحاضر على لون خاص ، وفي اصطباغه بصبغة لا شرقية ولا غربية ، أو شرقية وغربية معا ، تختلف عن الوان سائر البلاد العربية ، كما تختلف أجمالا عن لون العالم الغربي .

---

(١) الاسلام يأمر باعدام المرتد .

١ ـ الوضع العثماني في الناحيتين السياسية والاجتماعية واثره في تطوير لبنان

كانت سلطنة آل عثمان في القرن السادس عشر ، ولا سيما في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م) قد أدركت السيادة على البر والبحر على الرغم من أن الامبراطور شارلمان (١٥٠٠ ـ ١٥٥٨) الذي كان يجمع في نطاق الحكم بين المانيا والنمسا وأيطاليا وهولاندا ، ويتمتع بكنوز المستعمرات الامركية العظيمة كان منافسا لها ، وكان يحرص على تحرير أوروبا منها • بيد أنه حاول عبثا بالاتفاق مع الكرسي الرسولي بروما ، وغيره الوقوف في وجه تقدمها بأوروبا ، وأسترداد السيادة البحرية منها ، وأن يجعل عاصمته دون القسطنطينية عاصمة العالم •

ولكن الخطر التركي المستفحل لم يلبث الا قليلا بعد ذلك حتى جمع الدول الاوروبية تحت لواء الكرسي الرسولي ، وحملها على أشهار حروب متتابعة عليها ، أسميت مقدسة ، لانقاذ بلادهم ، ولاجلاء هذا الغريب عنها •

وقد أتيح لهذه الدول المتحالفة ان تسترد من السلطنة زعامة البحار بعد محاولات عديدة فاشلة • وذلك حينما فاجأت أساطيلها المتحدة العمارة العثمانية ، سنة ١٥٧٠ ، الراسية في مرفأ اينابختي Lepante في اليونان على غير أنتظار منها ، وأسرت أكثرها ، وأحرقت الباقي منها • ثم أتيح لهذه الدول أسترداد السيادة البرية منها حينما أنتصرت عليها سنة ١٦٨٣ تحت أسوار فيينا ، وسنة ١٦٩٢ في معركة سن كوتار •

ومنذ ذلك ، وقد أطمأنت أوروبا على مصيرها ، أنصرفت الى معالجة

مشاكلها الخاصة وألى بناء التمدن الحديث تاركة للنمسا ، ثم لروسيا أمر مكافحة الترك الغرباء • أما هؤلاء فانهم على الرغم مما أصابهم من الاندحار وقتئذ في أكثر هذه الحروب بسبب تفاوت التنظيم العسكري وتباين المعدات بينهم وبين محاربيهم فانهم ظلوا يلتزمون الجمود، ويتلهون بالامجاد الماضية حتى قرر الزمان نصيبهم المظلم خصوصا عندما واصلت العناصر العثمانية غير التركية الخروج عليهم في كل ناحية ، وأقبلت الدول الاوروبية على التدخل في شؤونهم تحت ستار حماية العناصر المظلومة وتحرير الاقليات • على أن هذه الحالة السيئة التي تردت اليها السلطنة العثمانية كانت حافزة أيضا للبلاد العربية منذ القرن السابع عشر للخروج عليها • وبالاضافة الى الثورات في جزيرة العرب التي أخذ بعضها برقاب بعض ، ثم بالاضافة الى الثورات في العراق فان السلطنة واجهت في بلاد الشام ثورة فخر الدين المعني الكبير ، ثم ثورة علي أبي الذهب في مصر ، كما واجهت ثورة ظاهر العمر ببلاد الشام وأخيرا ثورة محمد علي باشا في مصر سنة ١٨٣٩ • ولكنها مع ذلك كله ، وعلى الرغم من انها لقبت في القرن التاسع عشر بالرجل المريض فقد خرجت من هذه الازمات الشديدة سليمة بفضل التوازن الدولي ، وعاشت حتى قضى عليها أبناؤها الملقبون بالاحرار بقيادة مصطفى كمال باشا في أعقاب الحرب العالمية الاولى •

واما شعبها خلال تلك المحن ، ولا سيما في عهد الانكشارية ، وعهد الملتزمين والاقطاعيين ، فكان يعاني الوان الظلم والحرمان ، فضلا عن الجهل لان الدولة كانت ابدا في شغل شاغل عنه ، ولان هؤلاء الباشوات والامراء الاقطاعيين أستغلوا أنشغالها عنهم فأخذوا يتصرفون تصرف المستقلين حتى كان أحدهم يشهر الحرب على جاره • من ذلك ما حدث بين يوسف باشا والي دمشق وبين سليمان باشا والي عكا ، ثم بين درويش باشا والي دمشق وبين عبدالله الخزندار والي صيدا ومعه الامير بشير الشهابي الكبير ، بل كان احدهم لا يتورع عن الاستعانة بأعداء الدولة

عليها كما فعل ظاهر العمر عندما كانت الحرب ناشبة بين روسيا وتركيا . ولا يتورع آخر عن الاستعانة بمحاربي السلطنة على خصم له من زملائه الحكام كما فعل الامير يوسف ملحم شهاب حينما التمس من الاسطول الروسي مساعدته على أخراج أحمد باشا الجزار من بيروت وكان عاملا عليها للامير فاستقل في غضون الحرب بين روسيا والسلطنة العثمانية .

ولكن لما أتيح للسلطان محمود الثاني القضاء على طائفة الانكشارية العسكرية التي كانت العقبة الكأداء أمام الراغبين في الاصلاح والتجدد من السلاطين والوزراء ، وهمّ بالاصلاح والتجدد على النمط الحديث ابتداء من الجيش عاجلته روسيا بالحرب خوفا من شفاء الرجل المريض الذي تريد ان ترثه . ثم فاجأته مصر سنة ١٨٣٩ ، ومن ورائها فرنسا ، بحملة أبراهيم باشا . ولولا التوازن السياسي أيضا ومبادرة انكلترا والنمسا وغيرهما لانقاذ تركيا لزالت هذه من الوجود في ذلك الحين .

ولما استوى السلطان عبد المجيد على العرش في غضون الحملة المصرية ، لم ير بدا من الاستسلام لتوجيهات الدول التي أنقذته منها ، فبادر الى الاصلاحات التي كانت تتطلبها ، وأعلن ما أسمي بالتنظيمات سنة ١٨٤٤ وخط شريف همايون سنة ١٨٥٦ . ولكن كل ذلك لم يحد من مطامع الدول في السلطنة العثمانية . فكانت هذه الدول في صراعها حولها تعد العدة لاستيلاء كل منها على القطر الذي تطمع به مستعينة بقناصلها وأرسالياتها الدينية والثقافية . وكان من عواقب ذلك ان الاقليات من سكان ولاية بيروت ومتصرفية لبنان الممتازة أصبحت موزعة على الدول الطامعة بهذه المنطقة : فالموارنة والكاثوليك لفرنسا ، والروم الارثوذكس لروسيا، والدروز والبرتستانت لانكلترا. وكان قناصل الدول ذوي الكلمة المسموعة يحمون أتباعهم فيما كانوا يسعون للحفاظ على ولائهم كما يسعون لاكتساب غيرهم . وقد جاء في مجلة أوراق لبنانية « نيسان

١٩٥٥ » مثالا على ذلك لا بأس من ايراده لطرافته قالت : « كان لاحد المطارنة الخازنيين حاجة عند قنصل فرنسا ، وكان القنصل يتهرب من قضائها • فغضب المطران وقال للرسول الذي بينه وبين القنصل : « بلغ حضرتو أنه اذا كان ما بدوش يخدمنا خليه يحكي بصراحة • وقل لو المطران بيعرف بيت قنصل الانكليز • » ولم يفهم شماس المطران معنى كلمة الانكليز فسأل سيده « أيش هو الانكليز يا سيدنا » فأجابه الخازني « هودي يا بني شعب متوحشين لهم دنبي بيقرقشوا قزاز ، وبياكلوا حيات • »

وسمع البطريرك يوسف التيان جواب مطرانه فهز رأسه وزاد عليه : « أي يا بني ، وعندهم فراكيت في البحر ، وقنصل بصيدا • »

هذا ما كان عليه وضع البلاد في العهد الذي تنصر فيه بعض أمراء جبل لبنان : دولة تحكم بالاسم ، وسفراء وقناصل تتدخل في كل شيء ، فلا ترد شفاعتهم ، وشعب يعبد المناصب ، وأمراء يتنازعون حولها • وكل فريق منهم يضع ثقته العمياء في الاجانب لادراك ما يريد • واجانب لهم نفوذ في استامبول يكفل لهم التصرف في بلادها تصرف المالك •

٢ ـ نفوذ فرنسا في عاصمة آل عثمان

لم تشأ فرنسا أن تشترك مباشرة في الحروب المقدسة التي شنتها أوروبا على السلطنة العثمانية على الرغم من أن فريقا من رجالاتها المعروفين كانوا ، بدافع التعصب الديني ، يدعونها الى هذا الواجب • وكان يحدوها الى ذلك أمران : أولهما أنها أصبحت حليفة لتركيا ومدينة لها مذ أنجدتها سنة ١٥٢٦ على عدوها الامبراطور شارلمان ، وأنقذتها من التهلكة ، وخلصت عاهلها فرنسوا الاول من الاسر • وثانيهما أنها كانت تجني من هذه المحالفة فوائد مادية ومعنوية لا تقدر بثمن : فألامتيازات التي كانت تمنحها لها الدولة العثمانية تباعا كانت تكفل لها ولرعاياها حق الاولوية في

بلاد كانت رقبة جسر بين الشرق والغرب ، فضلا عن حق حماية الطوائف الكاثوليكية في البلاد العثمانية وهو لا يقدر بثمن • اذ هو بالاضافة الى انه كان ضمانة لفرنسا على صعيد امتداد نفوذها في الشرق كان بمثابة الحجر الاساسي لتحقيق أهدافها السياسية والدينية في هذا الشرق الغني الجميل•

هذا ولقد كانت فكرة أسترجاع البلاد المقدسة قد بعثت بعثا جديدا في أوروبا مذ استطاع الملك فرديناند والملكة كاترينا الانتصار على مسلمي الاندلس حين اخذت تركيا تنحدر وتزول شوكتها • وآية ذلك ما بيناه في الفصل السادس من هذا الكتاب في صدد محاولة نائب ملك أسبانيا في نابولي أغراء الامير فخر الدين المعني الكبير من أجل التحالف معه على غزو البلاد المقدسة ، ومن أجل أعتناقه النصرانية • فكان جواب الامير للرسول على ما رواه الخالدي : « روح رد الجــواب على الدوكــا ، وتشكر من سلطان اسبانيا ، وقول له : الامير قال ما جينا لهذه البلاد لا كرامة دين ، ولا كرامة حكم ولا حكومة • بل جاء علينا عسكر ثقيل حينما أحتمينا عندكم ، وأحميتو رأسه وراعيتوه ولكم بذلك الفضل والجميل والمنة • أن أردتم هو قاعد عندكم بتوابعه على حاله ••• وأن أرسلتوه لبلاده فهو المراد لان له أهل وتوابع وبلاد • »

وكانت فرنسا في القرن السابع عشر قد أخذت تتبوأ المركز الاول بين الدول الاوروبية • فرأت في ضعف السلطنة العثمانية بشيرا لها في أنها سوف تحقق ما لم يستطعه الاوائل وذلك بأسترداد البلاد المقدسة • لذلك كانت حمايتها للطوائف الكاثوليكية ، ولا سيما الموارنة بلبنان ، في نظرها على غاية من الاهمية خصوصا وانها قد اقترنت باعتراف الدولة صاحبة البلاد •

والواقع فأن علاقات الموارنة بفرنسا هي أقدم من ذلك الوقت • لان بعض المؤرخين يروون أن بوديكور وجد سنة ١٢٥٠ م في خزانة البطريركية المارونية كتابا من لويس التاسع في عكا يشكرهم فيه ، خلال الحروب

الصليبية ، على أرسالهم خمسة وعشرين ألف مقاتل بقيادة سمعان • ويقول فيه أن هذه الطائفة التي تنسب الى القديس مارون هي جزء من الامة الفرنسية وقد نشرنا هذه الرسالة بكاملها بكتابنا الثاني « فلسفة التاريخ العثماني » حيث وفينا هذا الموضوع حقه أبتداء من الصفحة « ١٠٣ » •

وبعد أن استقر الحكم لآل عثمان ، في بلاد الشام نهدت فرنسا ، منذ بداية القرن السابع عشر ، للحصول على حق حماية الطوائف الكاثوليكية في الشرق الادنى ولا سيما في لبنان • فعلت ذلك في عهد الملكة آن دوتريش «١٦٠٢ — ١٦٦٦ » ، ولويس الرابع عشر « ١٦٤٣ — ١٧١٥ » ، ولويس الخامس عشر « ١٧١٥ — ١٧٧٤ » وكانت تسعى على التوالي لتأكيد هذا الحق ، ولتوصية سفرائها في أستامبول وقناصلها برعاية أخواننا الموارنة وحمايتهم ومساعدتهم • كما أن أحبار الموارنة وزعماءهم كانوا يواصلون مراجعاتهم لباريس ، ولا سيما عند الملمات : ففي السنين الاخيرة من أمارة آل معن أرسل أحدهم رسولا الى لويس الرابع عشر يحمل رسالة اليه يلتمس فيها تعيين الشيخ حصن الخازن قنصلا لفرنسا في بيروت • ذكرت ذلك جريدة الهدى النيوركية (في العدد ٣٣ من سنتها الاول) ، وقالت ان الجواب كان أيجابيا على ان يكون قنصل بيروت مستقلا عن قنصل فرنسا بصيداء

وكذلك فان بطريرك الموارنة في عهد الملك لويس الخامس عشر ، كتب اليه يطلب تأكيدات جديدة في صدد حماية فرنسا لطائفته • وكان ذلك في غضون حكم الامير ملحم حيدر • فأمر الملك سفيره بأستامبول سنة ١٧٣٧ بأن يراجع الباب العالي للحصول على هذه التأكيدات •.La Vallée Hsitoire de la Turquie T II.P.115 وهكذا دواليك • وكان المبرر لهذه الطائفة الكريمة على مساعدتها للصليبيين ، ثم على طلب حماية فرنسا يرجع الى أن الحروب الصليبية كانت حربا دينية ، وان الدولة العثمانية كانت

دولة الخلافة . واذ كانت الجامعة الدينية في تلك العصور أوثق الجامعات فكان من الطبيعي أن ينحاز موارنة لبنان الى أبناء دينهم خلال ذلك الصراع بين المسيحية والاسلام .

ولما كان لفرنسا هدف معين في حماية الطوائف الكاثوليكية بالشرق الادنى فقد شفعت هذه الحماية بأرسال البعثات التبشيرية اليه ، ولا سيما الى لبنان ، وهو طريق فلسطين . فاتخذت أكثر هذه البعثات التعليم والتدريس وسيلة لادراك الهدف المنشود . وحينما تعرض هنري لاقتليه المشار اليه بالجزء الثاني من كتابه تاريخ تركيا لهذا الموضوع قال في الصفحة ١١٠ ما ترجمته :

« أن أرساليات التبشير التي ارتادت الشرق الادنى تالفت بانتظام من قبل هنري الثالث ، وترعرعت ونمت في عهد هنري الرابع ولويس الثالث عشر . وبلغت ذروة الانتشار في حكم لويس الرابع عشر « ١٦٦٠ ـ ١٧١٥ » الذي ألقى على عاتق الجزويت هذه المهمة فسمح لهم الباب العالي بسكنى البلاد العثمانية كي ينشروا الدين المسيحي (١) ويعلموه لليونان والارمن والاقباط والسوريين وغيرهم دون أن يكون لاحد الحق في منعهم ، أو التعرض لهم . وبذلك القى على عاتقهم مهام سياسية خطيرة ذلك أنه كان عليهم لقاء أدراك الحظوة بحماية ملك المسيحيين الكبير ملك فرنسا ان لا يقتصروا على التبشير فحسب ، بل كان عليهم ان ينقلوا اليه المعلومات عن عادات البلاد ولغاتها ومحاصيلها وتجارتها وتاريخها ، كما أنهم كانوا يتلقون منه الاوامر والتوجيهات ، ولا سيما من وزارة الخارجية التى كانوا يواصلونها بالتقارير والخطط ، والتفصيلات من كل نوع . »

---

(١) ربما كان قصد المؤرخ بقوله : « ان ينشروا الدين المسيحي » أي ان ينشروا الكثلكة بين اهل المذاهب غير الاسلامية ذلك باننا على يقين بان دولة الخلافة لا يمكن ان تسمح بنشر اي دين آخر بين المسلمين غير دينها ودينهم .

وهكذا فان نفوذ فرنسا في استامبول اصبح عظيما ، واضحى في سوريا ولا سيما في لبنان اعظم . ومن الامثلة على ذلك نجاح قنصل فرنسا في صيدا بوللار في اقناع المطارنة ومشائخ عجلتون وغوسطا وغزير باعادة خصمهم البطريرك يعقوب عواد الى منصبه وفقا لارادة البابا اقليموس الحادي عشر . وذلك في اعقاب ما رفع هذا البطريرك شكواه الى كرادلة مجمع نشر الايمان على ما فصلته مجلة اوراق لبنانية في عدد اذار سنة ١٩٥٧ .

وكان هذا النفوذ العظيم يسترعي انظار الطامعين بالحكم في لبنان بينما ان الدولة صاحبة البلاد كان همها يقتصر على ممارسة السلطة العليا واستيفاء الضرائب حينما كانت واقعة في المشاكل الداخلية والخارجية فاستهان بعض الامراء التضحية في سبيل ادراك عطف باريس وروما ، ومساعدتهما له عند الدولة الحاكمة لادراك كرسي الحكم دون غيره من المنافسين .

٣ ـ الوضع البابوي في لبنان

تعود علاقات الطائفة المارونية بلبنان بالكنيسة الرومانية الى زمن بعيد : الى عهد البطريرك قورش الذي كان اول من تبادل المكاتبات بينه وبينها ، وكان اول من لبس الدرع والتاج والخاتم على عادة هذه الكنيسة . لذلك فان زعماء الكنيسة المارونية خفوا عند قدوم الصليبيين الى الشرق ، في عهد البطريرك يوسف الجريسي المتوفي سنة ١١٢٠ م خفوا الى توجيه وفد منهم الى روما يحمل الى البابا اوربانوس الثاني رسائل الخضوع والاجلال .

وقد تحدث الخور اسقف بطرس حبيقة في كتابه الاحوال الشخصية بلبنان عن الخدمات التي قدمها الموارنة للصليبيين فقال في الصفحة ٣ :

« وكان لها معهم الهداة والقادة المخلصون في اجتياز طرق هذه

البلاد الصعبة التي كانوا يتناقلون بفتحها مـن حاضرة الى حاضرة حتى اورشليم • »

ثم لما انتهت هـذه الحروب بانسحاب الصليبيين مـن سوريا كتب البابا اسكندر الرابع رسالة الى البطريرك سمعان « أو شمعون » سنة ١٢٤٥ م يوصيه فيها خيرا بالفرنج المهزومين في انطاكية الذين فروا الى لبنان ؛ ويطلب اليـه الموافقة علـى ضمهم الى طائفته ، وان يرعاهـم ويحميهم • وبعـد ذلك ظلت المكاتبات تتواصل بـين البطاركة الموارنة والكرسي الرسولي • وكما فتحت روما قلبهـا لتعليم فئة مـن رجـال دينهم ، ونشر كتبهم ورسائلهم فانها كانت تعنى بحمايتهم ورعايتهم واغداق المساعدات لمشاريعهم • وكانت تستعين بفرنسا في الامـور السياسية على حل مشاكلهم ورفع الحيف عنهم فضلا عن تحقيق رغباتهم وحاجاتهم •

ولما عادت فكرة استرداد بيت المقدس الى الاوساط الاوروبية خلال القرن السابع عشر في اعقاب الانكسارات المتوالية التي منيت بها السلطنة العثمانية نشط الكرسي الرسولي الى العمـل في هذا الميدان نشاطه في تلك الحروب الاوروبية المقدسة ، وولى وجهه شطر لبنان • وكان مدار مخططه فيه ، بالاتفاق مع فرنسا ، استغلال نفوذهما الكبير لتنصير الدروز في جباله ابتداء من امرائهم على امل ان لا تبقى بين اهله قوة معارضة متى سنحت الفرصة للاحتلال •

وكـان الامير فخر الدين المعني الكبير قد مهد لهما الطريق عن غير قصد حينما عاد من اوروبا مشبعا بروح الاصلاح • فهو الى جانب رعايته للافرنج تجارهم ، وقناصلهم ومنشآتهم ، فتح الباب علـى مصراعيه امام الارساليات الدينية • ولما شاء ان يتخذ له بطانة من المثقفين لم يجد امامه افضل من بعض الاحبار وذويهم من المتعلمين فاتخذ منهم رجال شوراه ، وكان علـى رأسهم جريس مارون الاهدني مطران قبرص • وهو في ذلك

قد احسن صنعا على صعيد محاربة التخلف لولا ان بعض هؤلاء كانوا عمالا للاجانب بالنسبة للسلطنة العثمانية .

ولما خلف الامراء آل شهاب الامراء آل معن على الحكم في لبنان اتخذوا الامير المعني المشار اليه قدوة لهم في هذه الناحية : ناحية اختيار حاشيتهم من المثقفين سواء اكانوا من الاحبار او من المدنيين ، فاستطاع الكرسي الرسولي ان يدرك في عهد الشهابيين ما لم يدركه في عهد آل معن اذ قدر لبعض اتباعه ان يكسبوا بعض امراء لبنان الامر الذي ادى فيما بعد الى ان يصطبغ هذا البلد بصبغة خاصة تختلف عن سائر صبغات البلاد العربية الاخرى . وادى بالتالي ، استنادا الى رعاية اوروبا له ، واختلاطه بها الى تقدمه اكثر من غيره في مضمار المدنية . ثم لما احرزت البلاد العربية استقلالها والتزمت الجمهورية اللبنانية الحياد جهد طاقتها ابان المنازعات العربية اصبح لبنان ملجأ للنازحين . وقد سمعت بعضهم يحمدون الله على وجود هذا الملجأ الامين .

٤ ـ كيف تقرر الوضع اللبناني العام وتأثير الاوضاع الخارجية عليه

كان امراء آل شهاب اصحاب مقاطعة وادي التيم قد صاهروا آل معن اصحاب مقاطعة شوف صيدا ، وناصروهم على خصمهم الحزب اليمني . فلما توفي الامير احمد المعني عقيما اختار اعيان آل معن ابن اخته الامير بشير بن حسن الشهابي ، وهو امير راشيا ، خلفا له وكتبوا بذلك سنة ١٦٩٧ الى عامل السلطنة على صيدا ليلتمس لهم منها الموافقة على هذا الاختيار . فانتقل الحكم بذلك الى اسرة آل شهاب .

ولكن الزمن لم يصف لهذا الامير لان خصومه ، ولا سيما زعماء الحزب اليمني ، ما فتئوا يوغرون قلب الدولة عليه حتى اختارت عليه الامير حيدر موسى شهاب امير حاصبيا . وهو ابن اخت الامير احمد

المعني ايضا . وكان عمره لا يتجاوز الاثنتي عشرة سنة . وعلى اثر ذلك جرت مكاتبات ومراجعات بين زعماء لبنان وبين حكومة استامبول اسفرت عن موافقة الدولة على بقاء الامير بشير حسن في الحكم على ان يكون نائبا عن الامير حيدر ريثما يبلغ سن الرشد .

غير ان هذا الحل لم يرفع الشقاق من بين انصار الاميرين . وقد توفي الامير بشير المشار اليه سنة ١٧٠٦ في ظروف غامضة . وقيل ان الامير حيدر دس له السم في الدسم . وكانت سحر الندى ارملته ما تزال في نضارتها ولها منه ابنتان وصبي فنقمت على الامير حيدر ، وابت ان تتزوجه ، وعزمت على ان تسعى لابنها الصغير ليكون خلفا لوالده في الحكم . وقد التف حولها بعض الاحبار من انصار زوجها ، وزينوا لها انها اذا تنصرت فانهم يضمنون لها تحقيق امنيتها هذه ، وذلك بالاستناد الى نفوذ الكرسي الرسولي ونفوذ فرنسا حامية الطوائف الكاثوليكية في الشرق . وبالفعل لما عرض السمعاني على الكرسي الرسولي مشروع تحرير شمالي لبنان من آل حمادة عرض معه تولية ابن الاميرة سحر الندى على مقاطعتهم . وهذا يدل على ما كان للفاتيكان بالاستناد الى باريس ، من السيطرة على تركيا . وان ما كانت تنفذه هذه بلبنان كان يجري دون التفات للعواقب وفقا للمخطط الذي كان يوضع سرا في اوروبا .

ولذلك فان هذه الاميرة اقتبلت العماد سنة ١٧١٠ من يد الاب يوحنا مرقس خادم رعية دير القمر باسم مريم . وبغية ان تكون في معزل عن اهلها نقلوها مع صغارها الى طرابلس بحجة انها ستكون هناك تحت حماية المتولي عليها ريثما يكبر ابنها فيعود الى مناصريه ، واقاموا عليها وعلى اولادها كاخية زوجها يوسف الشماس . وهناك عاشت سحر الندى في عزلة عن الناس ، قريبة من كرسي البطريركية المارونية بعيدة عن اعين اهلها وذويها ، فتنصر ابنتاها . واما ابنها فقد اصطحبه احد الباشوات ،

ولم يعرف عنه شيء من بعد •

هذا ما تقول الرسالة التي نقتطف منها خبر تنصر الاميرة سحر الندى، وهي رسالة عثر عليهـا الاب بطرس الطياح في ارشيف الايمان في روما على ما روى في مجلة اوراق لبنانية « اب ١٩٥٧ » • ونحن نظن ان خبر تنصر الاميرة وابنتها ترشح الى رجال الحكم بطرابلس فشاؤوا انتشال الامير الصغير من حضن والدته كيما يحولوا دون تبديل دينه • على ان بعض المؤرخين يقولـون ان اولاد الامير ملحم حيدر شهاب « ١٧٣٢ — ١٧٥٤ » هم الذين كانوا اول من اعتنق المسيحية • ولكنهم لم يتعرضوا لتبيان الاسباب • والواقع فان السبب كان واحدا • وهو السياسة ، او بكلمة اخرى الرياسة : فبعـد الامير ملحم المشار اليه وقع الخلاف بين اخويه احمد ومنصور على الامارة حتى آل الامر الى قسمتها بينهما (١) فحكما معا في وقت واحد منذ سنة ١٧٥٤ م • الى ان استأثر بها الامير منصور سنة ١٧٦٢ • ففي غضون الخلاف بين الاميرين وحزبيهما برزت المطامع عنـد ابناء الامير ملحم حيدر على الامارة ، وعلى رأسهم الامير يوسف والامير قاسم ، وبرزت معها الفرصة المواتية للمبشرين لاستغلال هذا الخلاف وتلك المطامـع • خصوصا وان السلطنة العثمانية كانت في حربها مع روسيا منقطعة عـن لبنان ، وكانت السفن الروسية اقرب اليه منها : ففي سنة ١٧٧١ جاءت العمارة الروسية من عكا الى بيروت واطلقت عليها النار ونادى منـاد في ازقتها « سلطان ملطان ما في • ما في الا الملكة كاترينا • » علـى ما روت لي عمتـي آمنة رحمها الله فيما سمعته من اسلافها •

ونظرا لما هو معروف من نفوذ فرنسا الكبير في استامبول استطاع

---

(١) دفن الاميران ملحم ومنصور في فناء جامـع الامير منذر التنوخي ببيروت المعروف الان بجامع النوفرة .

هؤلاء الاحبار المشمولين برعاية باريس ان يقنعوا الامير يوسف ابن الامير ملحم بانه اذا اعتنق النصرانية ستكون الامارة من نصيبه • وكان الامر كذلك • ففي سنة ١٧٧٠ تنازل الامير منصور لابن اخيه الامير يوسف عن الولاية وفقا لارادة الدولة على ما يقــول المؤرخون • والواقع فان هذا التنازل كــان نتيجة لمساعي فرنسا والاكليروس في استامبول وفاء لما وعدبه الاميريوسف منقبل الكنيسة بلبنان• واذ كان الامير يوسف اول مسيحي تقلدالحكم فيلبنان اقبلعليه الاكليروس وشملوه برعايتهم، وجعلوا فرنسا ظهيرة له فاستطاع بمساعدة هــذه واولئك ان يبدل وجه شمالي لبنان ، وان يضع اللبنة الاولى في اساس بناء الكيــان اللبناني الجديد • اذ بعد قضاء الدولة بمساعدته على المشائخ آل حمادة هناك وزع اقطاعهم الواسع وما يليه جنوبا على الاسر المسيحية • على ان تنصر الامير يوسف وبعض اخوانه بقي مكتوما ، وكانوا يمارسون الطقوس المسيحية سرا في قصورهم على يد كهنة انتدبوا لهذه الغاية •

هذا وكان الامراء اللمعيون اصحاب الاقطاع على المتن يرون بأم عيونهم ما ادرك الامير يوسف بن ملحم من المساعدات الداخلية والخارجية في اعقاب قبول العمــاد • فما وسعهم الا الاصغاء للنصائح والاغراءات التي كانت تقــدم لهم حفاظا على امارتهم ، ثم رضخــوا في اواخر القرن الثامن عشر لهذه الاغراءات ، ولم يبق منهم وقتئذ علــى دينه الا الامير احمد قايد بيه المقيم في قرية برمانا ، واولاد الامير نصر مراد المقيمين في المتين • وهــم الامراء سلمان وموسى ويوسف • ولكــن اولاد هؤلاء وهؤلاء جرفهم التيار فيما بعــد مثلما جرف غيرهم من المسلمين الذين كانوا يملؤون الجبال والساحل فيالجنوب من ايالة طرابلس الا ما ندر منهم لانهم وقد امسوا في عزلة عن غيرهم استبد بهم الضعف حتى لم يعودوا قادرين على مجابهة ذلك التيار • ونتيجة للصراع بين القديم والحديث في اوضاع لبنان شهد هــذا البلد اضطرابا تمثل بالثورات المتوالية التــي

وقعت بين الدروز الذيــن كانوا زعماء المنطقة التي كانت تعرف بجبل الدروز ، وبين النصارى الذيــن شرعوا ينازعونهم على الزعامات فيها ، وذلك في اواسط القرن التاسع عشر ، فانتهى الصراع بانتصار الحديث على القديم عندما اتفقت الدول علــى انشاء المتصرفية الممتازة • على ان يكون المتصرف من ملة اوروبا ومن رعايا السلطنة العثمانية • وكانت هذه المتصرفية الممتازة في الواقع تكريسا للوضع الذي كـــان يسعى له الغرب منذ زمن بعيد •

لقد حدث كل ذلك في عهد السلطنة التي تدعي الخلافة ، واضطلع به غرباء مسلحون بالتنظيم في بـــلاد غير بلادهم ، فاذا بالتنظيم والتجدد ينتصر على الغفلة والتخلف • وقد دار الفلك بعد ذلك دورته وما زال التنظيم يتغلب على اللامبالاة •

هذه سنة الله « ولن تجد لسنة الله تبديلا » •

الفصل الثامن

خاتمة الكتاب ، الخلاصة والرسالة

كان لبنـــان حتى عهد الانتداب الفرنسي جزءا مـــن سورية لذلك فان تاريخه في القرون البعيدة والقريبة حتى عهد الفرنسيين يدخل ضمن اطار سائر بلاد الشام • كما ان اسم لبنان في معجم السياسة لم يكن له وجود قبل البروتوكول الذي وضعته له الدول في اعقاب ثورة ١٨٦٠ • وكذلك فهو لم يتمتع بشيء يسمى الاستقلال الناجز الا في سنة ١٩٤٣ •

وفي معرض التدليل على « ان لبنان جزء متمم لسورية لا يتجزأ منها ، ولا يتميز عنها » قال ندره المطران في كتابه الفرنسي « سورية الغد » الذي طبعه في باريس سنة ١٩١٦ على ما ورد في مجلة الميثاق كانون الاول سنة ١٩٦٦ •

« اول ما نبدأ به القول ان لبنان لم يكن في يوم من الايام مستقلا : اما قبل المسيح : فلقد حكم سورية ولبنان منها على التتابع ملوك أشور وبابل « ٧٣٣ الى ٦٧٠ » ، ثم عادوا اليها « ٤١٠ » ثم الفرس « ٦٧٠ » فالاسكندر الاكبر « ٣٢٠ » ، فالسلوقيون « ٣٠١ » ، فالاناطسة «١٦٤» واخيرا الرومان • اما بعد المسيح فقد تعاقب عليها البيزنطيون فالامويون، فالعباسيون ، فالطولونيون ، فالسلاجقة ، فاتابكة سورية ، فالصليبيون ، فالايوبيون ، ثـــم قلاوون وسلالته فالمماليك البحرية ، ثـــم سلاطين بني عثمان • فلا يزعمن زاعم ان سورية ولبنان مـــن باب اولى ، علـــى مر تاريخهما الطويل كان لهما في حقبة مـــن حقب التاريخ شرف الاستقلال تحت حكم امير وطنـــي • فالاستقلال الذي كان للبنان قبل سنة ١٨٦٠ لم يكن الا وهما • وكان لسائر الولايات السورية استقلال مثله • »

وفي سياق التعليق على نضال لبنان القديم في سبيل الاستقلال قال هذا المفكر البعلبكي :

« ولا يجعلن احد كثرة ما يحدث بلبنان من تمرد وعصيان دليلا على تأصل النزعة الاستقلالية في اللبنانيين : فلقد حدث مثلها ان لم يكن اكثر

منها في غيره من الولايات السورية : فامراء آل حرفوش في بعلبك ، والجيروديون « آل الجيرودي » بالنبك ، والسويدانيون « آل سويدان قرب حمص » ، وبنو مطرد وبنو عثمان وبنو شلحة وبنو علي في بلاد النصيرية ، والاسماعيليون وبنو سيفا بعكار ، وبنو الجرار : طوقان وعبد الهادي في نابلس ، وبنو الصغير بمرجعيون الخ .. كل هؤلاء قاتلوا الدولة بضراوة وتغلبت على امرهم كلهم . ذلك انهم ، في هذه المعارك التي لم يتكافأ فيها الخصمان ، كانوا يعتمدون على قوتهم فحسب في حين ان اللبنانيين لغالبيتهم المسيحية وبما لهم من ميزة نزولهم بساحل البحر الابيض قد اسعدوا باهتمام اوروبا بامرهم ومصيرهم الخ . »

اجل وان الموجات التي صدرت تباعا من جزيرة العرب نحو الشمال في العهد القديم وغمرت بلاد الشام لم تقف عند حدود جبال لبنان الشرقية، على ما يزعم الزاعمون ، بل تسربت اليه ايضا ، واقامت فيه الدول والامارات تباعا ابتداء من الكنعانيين الذين اسماهم اليونان الفينيقيين الى الايطوريين بعنجر الذين دخلت جبال طرابلس في حوزتهم . كما ان القبائل اليمنية التي جاءت الى حوران وما يليه من بلاد الشام وذلك بعد سيل العرم لم تلبث الا قليلا حتى تسربت الى الساحل الفينيقي ، ونزلت في جباله العامرة بالسكان وقتئذ دون غيرها كجبل عامل نسبة لعشيرة عاملة . ثم لما فتح العرب سورية الكبرى ، واجلوا عنها الامبراطورية البيزنطية ألحقوا لبنان بجند دمشق ، وساقوا اليه القبائل العربية على نطاق واسع للمرابطة فيه حتى كانت بيروت تدعى رباط اهل الشام .

ثم كانت الحروب الصليبية حافزا جديدا لزحف قبائل اخرى عربية الى لبنان . وكذلك فان ما حدث في القرن الخامس عشر بحوران من الفتن حمل اسراً كثيرة من اهله على النزول في لبنان حتى اصبح يعج بالعرب ، واصبحوا فيه وبفلسطين اكثر عددا منهم في سائر البلاد التي

دخلت في حوزة العرب • لذلك فان اللغة العربية سرعان ما اصبحت ايضا لغة اهل الساحل • ثم ما زالت تنتشر في الجبال حتى قضت على كل لسان آخر • ولم يكن يرجع ذلك الى انها لغة دين الفاتحين فحسب ، وانما لانها واللغة الآرامية ، ومنها السريانية ، توأمان يرجعان الى اصل واحد هو اللغة السامية • وهكذا كان شأن اللغة العربية في البلاد الاخرى بمقدار اقل لان المدنية العربية كانت كالعسل مزيج من ازاهير الاقطار المفتوحة ، ولان سياسة اولئك الفاتحين الانسانية لم تكن تعرف فرقا بين الغالب والمغلوب ، وبين العناصر والالوان وذلك متى اعتنقوا الاسلام ، بينما هي قد وضعت للذميين الذين اختاروا البقاء على دينهم ، اولئك الذين كانوا مضطهدين في العهود السابقة ، حقوقا لم يكونوا يعرفونها من قبل • وبناء على ذلك دخل لبنان في نطاق المدنية العربية بعد ان كان قبلا لا يعرف مدنية اخرى غير المدنية السورية بالاضافة الى مدنيات الفاتحين • ولما استولى آل عثمان على بلاد الشام سنة ١٥١٦ كتب السلطان سليم الفاتح ، وكان يعرف بلبنان بملك الروم (١) ، كتب الى اصحاب الاقطاعات في الساحل بالامان ، ودعاهم الى الحضور لمقابلته بدمشق • فحضروا وكانوا كلهم من العرب ما عدا الامير عساف صاحب كسروان وبلاد جبيل الكردي الاصل • وكان عاملا للمماليك اصحاب مصر على تلك المنطقة • وقد رحب بهم السلطان واقرهم على اقطاعاتهم • وكان لبنان وقتئذ ، كما من قبل ، اسما جغرافيا فحسب ، واما في التشكيلات الادارية فكان يعرف كل اقطاع منه باسم الناحية التي يقوم فيها ذلك الاقطاع كالشوف

---

(١) هكذا لقبه ابن سباط الفقيه من اهالي عاليه في تاريخه الذي لا يزال محفوظا في كل من الفاتيكان والجامعة الامركية ببيروت . وهو المؤرخ اللبناني الوحيد الذي عاصر الفتح العثماني . ويعود السبب في تلك التسمية الى قيام سلطنة آل عثمان على انقاض الامبراطورية البيزنطية وعاصمتها في اوروبا وآسيا الصغرى التي كانت تعرف عند العرب بدولة الروم .

والغرب وكسروان • وكذلك فلم يكن له كيـان واحد ، بل كان مجزءا الى قسمين : القسم الشمالي ، والقسم الجنوبي يفصل بينهما جسر المعاملتين الذي لا يزال قائما حتى الان على مقربة مـن جونية • فالقسم الشمالي كان تابعا لمعاملة طرابلس بينما كان القسم الجنوبي تابعا لمعاملة صيدا •

وقد حكم آل عثمان لبنان مدة تزيد عن اربعماية عام ، ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا ان يضعفوا عروبته ، ولا ان يبدلوا لغته ، بل كان لبنان في اواخر عهدهم هو الذي حمل مشعل العروبة ، وراح يشعل مناراتها في البلاد الاخرى حتى بلغ الامريكتين •

والجدير بالذكر هنا ان اللبنانيين لم يكونوا يعرفون للطائفية معنى خلال الحكم العثماني الاول ، وانما كانوا وعلى رأسهم امراؤهم العرب الاقحاح : التنوخيون ، والمعنيون ، والشهابيون ، واللمعيون وغيرهم من اصحاب المناصب ينتسبون اما للحزب القيسي ، واما للحزب اليمني على غرار البلاد العربية الاخرى • وهما حزبان قديمان في تاريخ العرب بعد الاسلام لا يفهمان للطائفية معنى • ولما قضى الامير حيدر موسى شهاب « ١٧٠٦ ــ ١٧٣٢ » في صدر امارته على الحزب اليمني في معركة عيندارة استقرت الوحدة الحزبية بينهم • بيد انها لم تعمر لان حب الزعامة المتأصل في نفوسهم لم يلبث الا قليلا حتى برز وقضى عليها ، وذلك في عهد ابنه الامير ملحم « ١٧٣٢ ــ ١٧٥٤ » ، فانقسموا مـن جديـد الى حزبين : الجنبلاطي واليزبكي على ما فصلناه في كتابنا « الحلقة المفقودة في تاريخ العرب » المطبوع بمصر • ومع هـذا فالى ذاك الحين ظـل اللبنانيون بعيدين عن الطائفية ، وظل امراؤهم يتخذون بطانتهم مـن المثقفين دون التفات للاديان في هذه الناحية • وكان اكثرهم من النصارى لان هؤلاء

كانوا اسبق من سواهم الى اقتباس معارف التمدن الحديث (١) • ولكن لما بدت السلطنة العثمانية وكأنها مشرفة على الزوال في اواسط القرن الثامن عشر ، وطمعت كل واحدة من الدول في ان تكون لها حصة الاسد في ارثها ، واخذت تعد العدة لذلك على قاعدة فرق تسد ادى تدخلها ، في لبنان ، الى بروز الطائفية ، ولا سيما بعد ان استطاعت فرنسا ان تكسب بعض الامراء بالانضمام سرا الى ملتها • فكان من عواقب كل ذلك ان لبنان امسى في صراعه على الزعامة ميدانا للتنازع الطائفي ، وان هذا التنازع لم يبق محليا ، وانما كانت الايدي الاجنبية التي اثارته والتي ظلت تزيده شدة على شدة بالوعود والمساعدات تحوله الى تنازع دولي في الخفاء • واما لبنان الضحية فقد شهد في القسم الاول من القرن التاسع عشر من جراء ذلك ، ثورات طائفية متعددة صورته في أعين العالم بلدا متوحشا • وآية ذلك ما جاء في خطاب القاه احدهم في مجلس النواب الفرنسي في ١٥ حزيران سنة ١٨٤٦ على ما روى الدكتور عادل اسماعيل في الصفحة الاولى من كتاب تاريخ لبنان حيث قال النائب :

« كثيرا يا حضرة النواب ما نرمي الموارنة والدروز بعدم التهذيب ، وبالخديعة والغش• لكنهم اذا تعلموا يوما ان يكتبوا التاريخ فسيحكمون دون شك على اوروبا بالخيانة لانه جاءهم اناس منها اثاروهم ، ووعدوهم

---

(١) كان موارنة لبنان أسبق الطوائف الشرقية الى اوروبا لتلقي العلم : فقد استقبلت روما في عهد البابا غريغوريوس الثالث عشر نفرا من ابنائهم سنة ١٥٧٨ . وكذلك في سنتي ١٥٨١ و ١٥٨٣ ، وفي تلك الحقبة نشأت مدرسة روما المارونية التي تخرج منها في ذلك القرن وبعده تلاميذ انتشر بعضهم في اوروبا للتعليم في معاهدها ، وآخرون عادوا الى لبنان ، وانصرفوا الى الخدمة في الناحية الثقافية وغيرها . فكانوا نبراسا لابناء ملتهم وقدوة لغيرهم في غضون تلك الايام التي كان الجهل فيها يخيم على الشرق كما كانوا مصدر سبق وطنهم في مضمار التمدن الحديث .

بحفظ امتيازاتهم ، بل بتوسيع دائرتها . وقد رأيتم كيف بروا بالوعود . »
ثم لما وقعت ثورة ١٨٦٠ ادرك الاجانب بعض ما يريدون اذ جعلوا لبنان تحت حمايتهم ، ونصبوا عليــه متصرفين عثمانيين غرباء عنه في القومية ، وحتى في المذاهب . ولولا ان الدول الطامعة كانت على خلاف في المقاصد لما نجا لبنان من الدخول منذ ذلك الوقت في نطاق المستعمرات .

ومع ذلك فان كلا من هذه الدول شرع منذ ذلك الوقت يعد العدة لاحتلال لبنان وسائر سورية عند سنوح الفرصة ، وفي مقدمتهم الجمهورية الفرنسية استنادا الى علاقات فرنسا القديمة بطوائفه الكاثوليكية . وهذا الوضع كان حافزا لبقية الدول لاكتساب الطوائف الاخرى بالمساعدات المختلفة ، ولتمتين علاقاتها بها . على ان هذا الصراع الدولي كان يتمثل في دور القناصل ببيروت هذه المدينة التي وان لــم تكن داخلة وقتئذ في النطاق اللبناني الا انها ، في الواقع ، كانت بمثابة عاصمة فعلية للبنان في الناحيتين الاقتصادية والسياسية .

ومن جــراء ذلك امسى اهل لبنــان في ذلك الوقت شيعا متفرقة الميول : هذا فرنسي وذلك انكليزي ، وذاك روسي ، وهذا عربي النزعة ، والآخر عدو العروبة . وهــذا مخلص للدولة العثمانية ، والآخر يتآمر عليها . ودام الحال على هذا المنوال الى ان وزعت الانتدابات في اعقاب الحرب العالمية الاولى « ١٩١٤ ــ ١٩١٨ » . وكان الانتداب على سوريا من نصيب فرنسا . فاستهلت عملها باعلان لبنان الكبير سنة ١٩٢٠ مستقلا عن سائر سوريا ملحقة بــه الاقضية الاربعة التي كانت جزءاً من ولاية الشام . وحيال ما لاقته الدولة المنتدبة من المعارضة للانتداب ، وللتجزئة وذلك من السوريين ومن فئة من اللبنانيين اقبلت هذه الدولة على الفئة الموالية لها ، واسندت اليها مقاليد الحكم ، وراحت توطد اركــان عزلة لبنان ليس عن سوريا فقط ، وانما عن بلاد العرب كافة . ومن جراء هذه

السياسة نشأ في ذلك العهد جيل جديد اخذ يتبرأ من العروبة واهلها اشد من سلفه المخضرم . ولكن الوعي اللبناني ، وحب الاستقلال لم يلبثا ان تغلبا على اسباب التفرقة المفتعلة . فما ان تصافح الفريقان المتخاصمان حتى تحررا معا من الاجنبي سنة ١٩٤٣ على الرغم من كل الوسائل الداخلية والخارجية التي استعملها هذا الاجنبي حبا بالبقاء . وقد نعما بالاستقلال المنشود ، وراحا يتعاونان على بناء وطن واحد للجميع ، وطن يحق لكل منهما ان يفاخر به على السواء ، يحملهما الحرص على الوحدة الوطنية على مجابهة كل خلاف قد يقع بينهما بفعل الدسائس الاجنبية .

وعند مباشرة العمل ايقنت الحكومات اللبنانية الرشيدة ان مصلحة الوطن تقتضي بان يمشي مخلصا في الصف العربي على اساس الحفاظ التام على الاستقلال السياسي والداخلي ، وذلك على الرغم من ان بعض خريجي المعاهد الاجنبية المعلومة كانوا يشدون هذه الحكومات الى الوراء . فدخل لبنان في جامعة الدول العربية ، وكان عضوا من ابرز اعضائها ، وعضوا عاملا في لجانها ومتفرعاتها واشترك في مؤتمرات القمة . واما الاسباب التي دعته الى هذا التطور بعد ان كان شعاره يوم الاستقلال «لبنان ذو وجه عربي فقط» هذا الشعار الذي وضعه كل من الشيخ بشارة الخوري اول رئيس للجمهورية في عهد الاستقلال، ورياض بك الصلح اول رئيس لمجلس الوزراء، ورضي به رياض بك حبا باجلاء الاجنبي. اما هذه الاسباب التي حملت دولة لبنان على اختيار العروبة شعارا له فقد فصلها تفصيلا قطب من اقطاب الفكر بلبنان تقلد السفارة والوزارة ، ورئس هيئة الامم في احدى دوراتها ، وأعني به الدكتور شارل مالك الاستاذ الان في الجامعة الاميركية ببيروت وذلك بخطاب نشرته جريدة البيان في نيويورك في عددها الصادر يوم ٣ كانون الاول سنة ١٩٥٥ . وهو خطاب القاه سفيرنا في واشنطن وقتئذ في المهرجان الذي اقامه حزب

الكتائب في بيروت يوم ٢٠ تشرين الثاني ١٩٥٥ • فقد قال في التحدث عن لبنان العربي :

« اما عربية وجودنا فمردها اولا الى لغتنا : هذه العربية التي وان كان بعض مثقفينا يعيشون في طبقات تفكيرهم العالي بالضرورة في غيرها ، فحتى هم لا يغضبون ، ولا يحبون ، ولا يحيون الحياة الاجتماعية المرضية الطبيعية الا فيها ، والتي تكاد ثقتي بامكانياتها لا تحد شرط ان يتحرر عقل متكلميها فيقدرون هذه الامكانيات ، ويصبحون بالتالي اهلا لها •

وقوام عربية وجودنا « ثانيا » هو هذه الصلات الحميمة في التاريخ والثقافة والدين والتفاعل الاجتماعي التي تربطنا بالعالم العربي ، والتي ان امكن قطعها ، او اضعافها ، وهو غير ممكن ، فلا يجوز ذلك بحال من الاحوال •

ومزية عربية وجودنا « ثالثا » هي عضويتنا في جامعة الدول العربية ، واشتراكنا الامين الفعال فيما تعنى به من مشاكل ، وحرصنا الصادق على وحدة الصفوف ، وقفزنا الى الطليعة في نطاق حدودنا امام كل محنة ، وكل امنية عربية •

ومحك عربية وجودنا « رابعا » هو صحونا بازاء شقيقاتنا الدول العربية الاخرى في وجه العدوان الصهيوني ، واصرارنا الجازم بان لا سلام في الشرق الادنى حتى تعود الى العرب جميع حقوقهم في فلسطين ، وتأويلنا الخطر الاسرائيلي على حقيقته ، اعني على انه خطر ماحق ندر ان جابه العرب مثله في تاريخهم •

وظاهرة عربية وجودنا « خامسا » هي اختيارنا تنسيق سياستنا الخارجية مع الدول العربية بحيث لم نشذ حتى الان عما اتفقت عليه هذه الدول ، ولم نتخذ موقفا خارجيا اساسيا الا بعد اعتبارنا مواقفها هي ،

وبحيث اذا اختلفت الدول العربية اساسيا فيما بينها وقفنا فورا في الحيرة والشلل •

وتعبير عربية وجودنا « سادسا » هو كون وفدنا في الامم المتحدة ما زال منذ عشر سنوات في تشاور رأي وتنسيق سياسة دائمين ، واعيين مع سائر الوفود العربية •

واساس عربية وجودنا « سابعا » هو ان البلاد العربية هي حقل فعلنا وتفاعلنا وفاعليتنا بحيث اذا قفلت في وجهنا عقمنا في اداء رسالتنا • وقد يكون بعضها الاهم • اما اذا وثقت عرانا في محبة واخاء واحترام ومساواة واستقلال انفتحت امام خلقنا في جميع مراتبه آفاق لا تحد •

وحقيقة عربية وجودنا اخيرا هي كوننا نفهم قدس اقداس الشرق في محبة واناة ، وسبر غور ، كما لا يفهمه الغرب • وكخير ما يفهمه الشرق نفسه •

هذه عربية وجودنا على تعقدها وتشابكها • فعبث اذن كل محاولة لعزلنا عن العرب لاننا مسؤولون ليس فقط عن انفسنا ، وليس فقط تجاه انفسنا ، بل على اكثر من انفسنا ، وتجاه اكثر من انفسنا • »

هذا واني اختم كتابي هذا بتحية قرائه الكرام ، وبالترحم على روح وديع عقل احد رؤساء المجمع العلمي اللبناني • ذلك العبقري الذي صدّر جريدته الراصد بمقال نشر في ٢٤ تشرين الاول سنة ١٩٣٠ متوجا بالعنوان التالي :

« من كان عدوا للعربية فهو عدو العرب ، وعدو لبنان • »

اختم كتابي بهذه العبارة الصادرة عن قلب كبير مخلص وانا ارجو ان لا يبقى في لبنان الا الاصدقاء الذين يتبادلون المحبة والوداد • واذا تنافسوا فانما يتنافسون على صعيد الاخلاص لوطنهم والاعتزاز به وخدمته وشعارهم جميعا « الدين لله والوطن للجميع » ثم هم اذا طاب

لهم المفاخرة بالماضي القديم فانما يفاخرون عن حــق باجدادهم الفينيقيين اسياد البحار ، وبآبائهم العرب الذين كانوا على صعيد الحضارات ، صلة الوصل بين التمدنين القديم والحديث . واذا ارادوا بعــد ذلك المفاخرة بلبنان الحاضر فامامهم اولئك الابطال الذين انتزعوا لاول مرة في التاريخ استقلال لبنان ، وامامهم ايضا اولئك الساسة الكرام الذين خلفوا ابطال الاستقلال في الحكم فارسوا بناءه على قواعد سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية متينة حولت اليه زعامة الشرق الاوسط في النواحي الثقافية والاقتصادية والعمرانية خلال ربــع قرن فقط ، وجعلته مركزا لمؤسسات هيئة الامم المتحدة في هذا الشرق الذي اصبح مركزا استراتيجيا للعالم .

وحسبنا اعتزازا بكــل ذلك دون ان نكــون في حاجــة لما زيفه الاجنبي في تاريخنا مرددين مع شاعرنا القديم ابي تمام :

ان يختلف مــاء الحيــاة فماؤنا عذب تحدّر من غمام واحد
او يختلــف نسب يؤلف بيننــا (وطن)[1] اقمناه مقام الوالد

انتهى الكتاب

ويليه (لبنان المعاصر بين مشرق ومغرب)

(١) في الأصل « أدب » .

فهرست الاعلام

(خ)

(د)

(ر)

(س)

فهرست الصور

صفحة

فهرست المراجع العامة
مرتبة حسبما وردت تباعا في الكتاب

المراجع باللغتين الاجنبية

H. Lamens .	La Syrie	13 15
H. Lamens .	Les Mardaites	17
Beaven .	House of Seleucus	11
Dussaut .	Les Arabes en Syrie avant L'islam	11 14 33
Demonbygne.	La Syrie aux temps des Mamlukes	12
E. Insabato .	L'islam et la politique des alliées	12
P. Hitty .	History of the Arabs	15
G. Lebon .	La civilisation des Arabes	23
N. Dahdah .	Evolution Historique du Liban	45 87
U. David .	the Lebanon mount Syria	56
Jauanin et Vangaver .	L'univers	174
Lavallée	Histoire de la Turquie	189 190

فهرست الكتاب

صفحة

الفصل الرابع

الامير فخر الدين المعني الكبير

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

تصويب الاخطاء

صفحة	سطر	خطأ	صواب
الغلاف	٩	بينها	بينهما
وقع تقديم وتأخير في الصفحة ٢٧ حيث جاء السطر ١٩ مكان السطر ٢٠			
٢٨	١٢	فيه	فيها
٢٨	١٣	طفتلين	طغتكين
٤٤	١٢	وجهة	جهة
٤٩	٤	حليا	جليا
٦٢	١٤	اوسون	دوسون
٦٤	١٧	احمد حيدر شهاب	حيدر احمد شهاب
٦٤	رفع الهلالين « » ما بين سطري ١٧ و٢٠ لانهما من كلام المؤلف		
٦٥	٦	احمد حيدر شهاب	حيدر احمد شهاب
٦٨	٢٠	تتناول	تتناول
٦٩	٤	بموقفه	بموقعه
٨٢	١٨	لذلك كان عليهم	وكان على هذه الفئة
٨٦	٢٤	كران دون	كران دوك
٩٧	٥	لا يتوخى منهم التوسط	لا يتوخى منهم الا التوسط
١٠٠	١٥	مثلهم	مللهم

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠٩	١٤	وبممارسة	وممارسة
١١١	١١	الى دار	الى الدار
١٢٣	٢	الامير بشير عمر قاسم	الامير بشير قاسم عمر
١٢٥	١٤	الامير بشير عمر قاسم	الامير بشير قاسم عمر
١٣٣	٤	رعية	رعيته
١٣٨	٢١	المعازير	المعاذير
١٥٣	١٢	التزمر	التذمر
١٥٩	٤	شعبها	شعبه
١٧٤	٨	Jouanan	Jouanin
١٩٠	٧	لاقتليه	لا قلليه
١٩٤	٤	عن	عنه